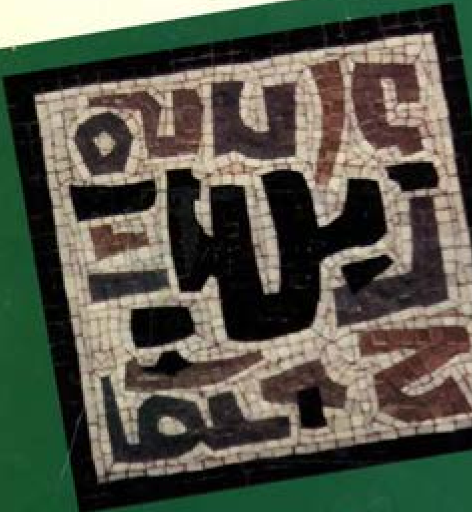
سلسلة عام 2000

جاك ريسلر

الحضارة العربية



منشورات عويدات
بيروت - باريس

الحضارة العربية

جاك ريسلر

الحضارة العربية

تعريب
الدكتور خليل أحمد خليل

منشورات عويدات
بيروت - باريس

منشورات عويدات
بيروت - باريس

الطبعة الأولى 1993

مقدّمة المعرّب

للأستاذ الدكتور خليل أحمد خليل
الجامعة اللبنانية

ليس الأستاذ جاك ريسلر من أسماء المستشرقين ، المألوفين كثيراً لدى القارىء العربي ؛ وربما يكون كتابه هذا « الحضارة العربية » تاريخاً وينابيع ، هو الأول ـ على ما نعلم ـ في المكتبة العربيّة . فريسلر ، الأكاديمي تكويناً واحترافاً ، لا يجهل أصولها التوثيقيّة ؛ وهنا لن نتوقّف عند نقد غياب مصادره ومراجعه المعلنة ؛ فهو ضمّنها بأمانة علميّة مرموقة طيّات كتابه ؛ إذْ أن غايته الكامنة وراء تأليفه هذا الكتاب ، هي محاورة القارىء الفرنسي خصوصاً ، والغربي عموماً ، لتعريفه بجاره العربي ، التليد والطارف ، القديم والدائم ، العدو والصديق . إلّا أننا رأينا أن هذا الجار نفسه ، يحتاج بدوره إلى أن يرى نفسه في مرآة تاريخية ، غير المرآة الذاتية وما عكس فيها مما يحلو لذاته ويطيب . إنّ تاريخ صورتنا يستلزم غير نظرة ؛ نظرة الذات ونظرة الآخر أيضاً . هذا هو جوهر الحوار ، وأساس السؤال المعرفي . من نحن ؟ لسنا وحدنا معنيينَ بتحديدها . الآخرون معنيّون أيضاً ، بقدر ما نحن معنيّون أيضاً وأيضاً بمعرفة ذاتنا وعالمنا ، شرط ألّا يفرض أحد على أحد رأياً بالترغيب أو بالترهيب ، بالتدليس (ومنه الدبلوماسية) أو بالعنوَة والقهر . فالمعرفة فتح حر ، ليست غزواً ولا احتلالاً ولا استعماراً . فهل تمكّن جاك ريسلر من نهل نزيهٍ وصافٍ من مناهل الحضارة العربية ؟ نقول بكل ثقة نعم ، فغالباً ما تشعر ، لشدّة نزاهة الكاتب ، أنك أمام ذاتك الإنسانية تكتبها بمحبة وأمانة قلّ نظيرهما في أدبيّات كتابة الآخر . وفوق ذلك نقول إن هذا

الكتاب الوجيز ، يختصر تاريخاً حضارياً مديداً ، يصعب في الواقع اختصاره . لـذا لا يكاد يخلو فصـل من اعتـذار المؤلف عن تقصـيره في التـوسّـع . ولكن الدقة لازمت المكتوب / المقروء باستمرار ، ومنحته حيويـة العقل الشجـاع في مقارعة المقوّمات والمعطيات المبحوثة .

إلى ذلك ، ندّعي أنّه كتاب فريد من نوعه ، وربما يكون الأول في بنائه من حيث ربط الفرضية الكبرى بأجوبةٍ عنها متواصلة : لماذا تقدَّم العرب ؟ ومما نهلوا ينابيع تقدمهم ؟ ثم لماذا تأخّروا حضارياً بعد ازدهار نادر ، وما زالوا يحومون حتى اليوم حول مستغلق الماضي ؟ كتاب فريد من نوعه في عرضه أسباب الفتح العربي ، الذي كان فتحاً لغوياً ، فكرياً ، دينياً ، بقدر ما كان فتحا عسكريا لأرض تبحث عن قانون وجود بشري جديد . ثم هو جديد ومفيد من حيث فتحه مجدّداً كوى الفكر الغربي والعربي أيضاً على مناقب أمة ، خرجت بالعروبة والإسلام إلى عالمٍ منغلق وراء حدود تقاليد بائدة أو جامدة . وهنا ينظر ريسلر في أعماق الينابيع وحركاتها العميقة ، فيرشدنا ـ مع إشارات لطيفة إلى مكوّنات العقلية العربية ، قبل الإسلام ، ومعه مزدهراً وبعد الانحلال حتى اليوم ـ إلى ينابيع العقلية العربية التي تألقت بالتوالف مع عقليات أمم وشعوب كثيرة أخرى في منظومة حضارية استطاعت ، بقوّة تكوّنها ، أن تفرض نفسها واحدة بين أربع أو خمس حضارات كبرى راهنة . وقد يجد القارىء العربي في كتاب لويس غارديه (رجالات الإسلام) ، تقريب العقليّات ، الذي عرّبناه والذي سيصدر قريبا سنة 1992) متمّماً موضوعياً لكتاب ريسلر .

يحدّد ريسلر الحضارة العربية بينبوعها الثقافي الثرّ في عصر نشوئها ، ونعني بذلك الإسلام الحنيف ، التقي ، الحر ، المحرّر . فالإسلام قوّة تحضيرية للعرب ولشعوب المعمورة ، جمع في تجربة نبوية وفي الكتاب مرشدا لإنسانية جاهلة وضالّة ، واستقوى بعلم الدنيا أو علمانيتها لمساندة علم الآخرة ، وجعل آفاق القيامة متكاملة في مستوى الوعي الأرفع . إلاّ أن ذلك الصعود التكاملي ما لبث أنْ أصيب بقوتين هدامتين : من الداخل التراخي بعد ازدهار ، وفقدان مفهوم التقدم والتحول والتغير في عالم نهري يجري متحوّلاً دائماً وأبداً ، وبالتالي الاستكانة جموداً واعتقاداً بأن لا مجهول في الدنيا يستحق بحثا وكشفاً ، فكل ما

هو مجهول معلوم في ذات إلٰهية ، ومَن آمن بهذه الذات كأنه علم المجهول ؛ ومن الخارج ، الحروب والغزوات المدّمرة التي خلخلت البناء الكبير المترامي الأطراف ، وطاولت مركزية السلطة والقرار والسيادة ، فراحت الامبراطورية العربية / الإسلامية تأكل ذاتها بينما كثيرٌ من قبائل وشعوب متضوّرة جوعاً ، غرباً وشرقاً ، تقف عند تخومها تنتظر الفرص المؤاتية لنهش أسود الأمة الذين استحالوا تماثيل في قصور خلفاء وأمراء ، يحرسهم أغراب مرتزقة .

زدْ على ذلك أنّ ريسلر الموضوعي الواضح ، يختم الفصل الأخير « سبات الإسلام » بصورة رمزية واضحة / غامضة تحتاج من القارىء العربي جهداً نقدياً وتأملياً يجعله يستنبط صورة حاضرة من خلال أسلوب يُقارب بل يُضارع أسلوب ابن المقفّع في كليلة ودمنة . أما استعمال ريسلر لصفة العربي الازدرائية التي تناقلتها أدبيات القرون الوسطى (صفة Sarrassin) فلا نجد مسوّغاً له ، حتى وإن كان المؤلّف قد يبرّر ذلك ، كلاتيني ، باستعمال لغة عصر لاتيني قديم . فالعربُ هم عربٌ ، لا أكثر ولا أقل ، مهما بدّلوا جلودهم وأسماءهم القطرية والمحلية ، المذهبية أو السياسية ؛ بالقدر نفسه الذي يرى فيه ريسلر أن الفرنسيين هم الفرنسيّون أيضاً وأيضاً . وبما أننا لسنا في مباراة تحديدات هوية لأحد ، فإننا نرفض هذا الاسقاط ، وقد أسقطناه من النص المعرّب ، وأشرنا إلى ذلك في هامش .

هل أحسنّا ؟ هل أسأنا ؟ هذا ما ننتظر الحكم عليه من القارىء الناقد .

بيروت في 1993/2/12

تمهيد

من تمنيّاتنا الصادقة أن يتمكّن هذا الكتاب من مساعدة أولئك الذين سيطالعونه ، على فهم أفضل لهوية الروح المسلمة وكيف جرى تكوّنها عبر الأزمنة . ففي مواجهة العالم العربي ، يتردّد الغربيّ وكأنه أمام لغز . فليس هناك أية استجابة إسلامية مألوفة لديه ؛ وهو بمنأى عن أدب كامل ، أدب حياة وإحساس ورد فعل .

الحقيقة أنَّ هوّة عميقة تفصلُ بين هذين النموذجين منْ الأفراد ، النموذج الفطري / الصّوفي والنموذج العقلي المنطقي . وبينما يحاول هذا الأخير أن يكتنه الحقيقة من طريق القياس الديكارتيّ ، فإن الآخر ينتظرها من الله وحده . أحدهما يعاني ، بلا ارتياب ، من واجب حكمه الخادع أحياناً ، والآخر ينقاد بلا نقاش لشريعة الكتاب والسُّنّة .

إن هذه الملاحظة البسيطة تسمح بسبر المسافة الهائلة التي تفصل الشَّرقي عن الإنسان الغربي . صحيح أنَّ الشرقي لا تعوزُه غواية الإنماء في حضارة ساطعة ، لكنّه يعلم أنّ مستقبل العلم محدود ، وأنّ مصير الإنسان لا يزال بين يديْ الله .

إن هذا الكتاب الذي يسرد تطور العالم العربي ، وضعنا تصوّره مع صديقنا العقيد بيار كالفي ، فتبحّره الواسع ، ومعرفته الدقيقة بالأماكن التي تقع فيها البؤرُ الحضاريّة العربيّة ، كانا مفيدين وضروريّين لوضع هذا الكتاب ، مثلما كانا مثمرين على صعيد التدقيق الصارم في أفكارنا .

والآن نترك لتقويم القارىء أسطرَ هذا الكتاب . . .

ج . ريسلر

الباب الأول

الأســـــس

الفصل الأول

في أزمنة ما قبل الإسلام

الإطار الجغرافي للمشرق

المشرق منطقة سهوب وصحارى واسعة ، تمتّد من الجنوب إلى شرق البحر المتوسط . وهي اليوم تتسم بقوّة بسمات الحضارة والديانة الإسلاميّة ، ذاك أنّ البلدان التي جرى التواضع على تسميتها بهذه التسمية العامة ، تُعرف بشكلٍ مألوفٍ أكثر باسم « البلدان الإسلاميّة » . فعلى طول امتدادها ، يجري فيها الكلامُ والكتابةُ باللغة العربيّة التي باتت ، منذ ظهور النبي محمّد ، الركيزة الأساسية لحضارةٍ باهرة .

إن ما يثيره الإسلام في خيال الغربيّ ، هو الأراضي المُشمسة والمناطق الواسعة ، الجافّة والقاحلة تحت سماءٍ أثيريّة وأنوار ساطعة ، تشعُّ فيها نجومٌ لا تُحصى في مسرى الليالي الصافية والمُبهمة . فهنا وهناك ، شيمة جزر متناثرة فوق محيط الرّمال ، تتمايز واحاتُ طراوة واخضرار وسط طبيعة رمليّة وصحراويّة .

وإنّ هذا العالم ، المقذوف على إمتداد أكبر الطرق التي تصل الغربَ بالشّرق ، يحتلُّ موقعاً جغرافياً خاصّاً ، كانت حصيلتُه الأولى تقسيمَ البؤر الأساسيّة للإنسانيّة المشرقيّة . فطبيعةَ التربة ، وكذلكَ المُناخ ، قسّما شعوبَ المشرق بين بدوٍ وحضر ، مثبّتين الحَضَرَ في الواحات مصادفةً ، وتاركين البدو ، في المقابل يبحثون في السهوب المعشبة والمراعي .

أما الجزيرة العربية التي يبدو أنّ أجداد كل الشعوب السامية قد انحدروا منها ، فهي أكبر شبه جزيرة على وجه الأرض ويبلغ طولها 2800 كيلومتر وعرضها 2000 كيلومتر في قسمها الجنوبيّ . وهي من الناحية الجيولوجيّة الامتداد الطبيعي

للصحراء التي تمتّد عبر الهضبة الإيرانية حتى صحراء غوبي . وبالتالي ، تنتمي إلى هذه « الأرض المهجورة » الكبرى ، التي كانت تشكّل في الماضي سداً منيعاً بين ثلاثة تجمّعات بشريّة كبرى ، العرق الأبيض ، العرق الأسود والعرق الأصفر . وفي وسطها ترتفع هضبة الجزيرة العربية فجأة إلى ارتفاع 3000 متر بالقرب من البحر الأحمر وتنحدر بعد ذلك بمنحدرات هادئة نحو الخليج .

تشتهرُ الجزيرةُ العربيّة بجفافها ومناخها القاسي : فالبحران اللذان يحيطان بها شرقاً وغرباً ، لم يتمكّنا من ترطيب المناخ المداري / الإستوائي لهذه المنطقة الصحراويّة الهائلة ، حتى أن الرياح الموسميّة ذاتها فقدت كل قوّتها منذ بلوغها الساحل . وفي داخلِ الهضبة ، في الشمال ، يسودُ السُّهْبُ مع صحراء رمليَّة كبرى ، النفود ؛ ويمتّد قفر آخر ، الرُّبع الخالي ، في القسم الجنوبي . وحدُه الشريط السَّاحلي قابل للسكن فوق رقعةٍ ضيْقة . فهو مزروع بواحاتٍ قليلة ، تفصل بينها مئات الكيلومترات .

الواقع أنّ فوق هذه التربة العـاقّـة ، لا تنبتُ سوى أشجار النخيل والكرمة وبعض الحبوب والأشجار المثمرة . ومع ذلك ، هكذا تتنافر الأشياء ، فهناك ، بمحاذاة البحر الأحمر وعلى سواحله المكتئبة ، في الحجاز وسط السفوح الصخريّة التي تتخلّلها أوديةٌ ضيِّقة ، والتي تشرف عليها تلال وجبال جرداء ، وُلد الإسلامُ ، بينما في أقصى الجنوب يمتّد اليمن ، وهو منطقةٌ خصبةٌ نسبيّاً وأكثر جدوى ، فهو بلد البن والبخور والصبر والنباتات العطريَّة والزيوت الأساسيَّة . وعلى الرغم من كون هذه الثروة المتواضعة قد عينّت اليمن ، بؤرة الممالك العربية القديمة ، كمهدٍ أكثر تأهيلاً لاستقبال دين جديد ، فإنّ القدر شاء أن تقوم المدن المقدَّسة في الحجاز على الرُّغم من عداوة الطبيعة .

ويُلاحظ بالدهشة ذاتها أنَّ المنطلق الجغرافيّ لواحد من أكبر الإنقلابات الدينيَّة لا يقع هو أيضاً في هذا القسم من الجزيرة العربية المؤهّل لذلك أصلاً والذي يمتُّد شمالاً ، كأنه زاوية مدوّرة في بلد الحضارات العريقة . ومع ذلك ، هنالك في ظلال قوس دائري كبير ، يُدعى الهلال الخصيب ، استوطنت من الخليج حتى البحر الأحمر ، كِلدة ، بلاد الرافدين ، الشّام ، وفلسطين . وامتدَّ

الساحل الفينيقي من الشمال إلى الجنوب على شواطىء البحر المتوسط . بموازاة هذا الساحل ، يجري سفح جبليّ ، تتجاوز بعض قممه الألفي متر ؛ ويفصل البحر عن بقية البلاد . هذا السفح تقطعه أودية طرابلس والناصرة التي تحيط بلبنان . وتفضي ثغرةُ طرابلس إلى ذراع الفرات ، إلى بلاد الرافدين وكلدة ، رابطةً بذلك بين أوروبا وآسيا ؛ إنها طريق الهجرات الكبرى وهي في الوقت نفسه طريق الغزوات . أما ثغرة الناصرة في الجنوب ، فهي أقل أهميّة على الصعيد الستراتيجي ، وتؤدي إلى فلسطين والشام والصحراء . بين هذين البابين الوحيدين المفتوحين على مؤخرّة البلاد ، كانت تصطفُّ في الماضي المرافىء الفينيقيّة الكبرى ، مرافىء صيدا وصور وجبيل وأرغوز التي زالت أهمّيتها اليوم .

في الجانب الآخر من الهلال الخصيب ، بين بادية الشام وهضاب إيران ، في سهل طوله 2000 كلم وعرضه 400 كلم ، يجري في اتجاه واحد نهرا دجلة والفرات اللذان يتدّفقان بقوَّة من جبال طوروس ويجريان بهدوء عند وصولهما إلى البلد المسطّح ، الذي يحق لنا القولُ فيه : « إنّه هبةُ النّهرين » . فعلى غرار النيل ، تروي هذه المجاري المائية وتغمر في الربيع الأرياف المحيطة ، وان ارتفاعات منسوبها ، التي كانت تستوعب في الماضي بشكلٍ منتظم ، كانت تمنح البلد خصوبةً خارقةً وتجعل من بلاد الرافدين (ما بين النهرين) منطقة زراعاتٍ استثنائيّة . فعلى ضفاف دجلة ، كانت قد قامت على التوالي : سلوقية ، المدائن - حيث تقوم بغداد اليوم - ثم نينوى بالقرب من الموصل الحاليّة ، وعلى ضفاف الفرات ، كانت تسطع بابل . وفي الماضي كان النّهران يصبّان في الخليج على نحوٍ منفصل ؛ وبما أنَّ البحر كان يتراجع شيئاً فشيئاً على مرّ الأجيال ، فإنهما يجتمعان اليوم تحت إسم شط العرب ، في هذا المجال الجديد المكوّن لإقليم البصرة ، الذي لم يكن موجوداً في الأزمنة القديمة .

كانت آشور في الشمال وكِلدة في الجنوب تقعان تماماً بين النّهرين ؛ فعلى الضفة اليُسرى لدجلة الأوسط ، كانت بلاد المرتفعات (Susiane) تنافس بلاد الرافدين في الثراء . فهناك عند مصب هذين النهرين ، في قلب السهول المغمورة بالطمي ، كانت الحضارات القديمة قد تفتّحت وازدهرت .

وبعد ذلك كانت تعود إلى الينابيع ؛ وكانت أور ولارسان عند شط البحر ،

ثم بابل ونينوى ، تدلُّ على مراحل الحضارات المتعاقبة . وفي وسط منطقة غنيّة جداً ، كانت بابل تتصل من خلال دجلة والفرات مع آسيا العليا والمحيط الهندي ؛ وفي الشرق والغرب كانت تتصل مع فارس والغرب من خلال طرق القوافل . وكان يوجد في هذا المركز أسواق مهمّة ، ملاّحون ، تجّار قادمون من افريقيا والجزيرة العربيّة أو من أقاصي الصين . فهناك ، كانت قوافل تضم أكثر من ألف جمل ، تتوالى وتتتابع ، واصلةً الهند وفارس مع آسيا الوسطى وبون أوكسان من جهة ، وفينيقيا ومصر من جهةٍ ثانية .

ومرَّت الأزمان . ففي هذه المناطق ، الموحلة حالياً ، المغمورة بالصحراء والبحيرات الشاطئيّة ، يصعب على المرء أن يتخيّل البلاد التي كانت واحدة من أخصب بلدان العالم ، عدنَ الأجيال الغابرة ، وأن يتخيّل النهُر ذا الضفاف الهائلة حيث جمع الرومان ذات يوم أسطولاً مكوّناً من ألف سفينة محمّلة برجال مستعدين للقيام بالهجوم على بلاد فارس .

لا يمكن تناول مشكلة الشرق الكبرى ، دون الكلام على مصر .

تتسم مصرُ القديمة بكثيرٍ من السّمات التي تقرّبها من كِلدة وآشور . فهي كهذين البلدين ، الناعمين بخيرات النّهرين اللذين يرويانها ، « هبةُ النّيل » أيضاً . فهذه المنطقة الصحراوية في شمال أفريقيا ، يمكن القول عنها ، باختصار ، إنها واحة تمتدُّ على مدى ألف كيلومتر طول و1200 كلم عرض . هناك أيضاً ، وُلدت حضارة في دلتا النهر ، لتعود بعد ذلك إلى ينابيعه . ولكن نظراً للإتجاه الذي حدّدته الطبيعة ، في هذا البلد الذي أبدعته معجزة النّهر ، فإن الحضارة تطوّرت من الشمال إلى الجنوب . في البدء ، قامت ممفيس وكبرت ، ثم ظهرت حضارة طيبة . وشيئاً فشيئاً أخذ الطمي الوفير ، الذي تحمله فيضانات النيل الدوريّة ، يملأ مصرّ بخيراته ويحوّلها بلداً عجيباً ، رائعاً ، لا مثيل لخصوبته سوى خصوبة كِلدة . ومصر ، الأقل تعرُّضاً من هذه الأخيرة ، والمحميّة بالبحر والصحارى التي تحيطها من كل الجهات ، تمكّنت من التطور بمعزلٍ عن التدخلات الأجنبيّة .

مهدُ الديانات ، أصلها وأساسها

إن التاريخ الأساسيّ للشرق هو قبل كل شيء نشوء الأديان المتفتّحة في هذا الجزء الخارق من الأرض . فقد نما الإسلام في المنطقة التي كانت قد أعطت من قبل اليهودية والمسيحيّة . وهكذا ، ازدهرت على التوالي فوق التربة غير المضيافة ذاتها ، الدياناتُ الثلاث الكبرى التي كان يُفترض بها أن تتقاسم العالم المتحضّر . هناك فقط مسيرة عدّة أيام تفصل بين القدس وجبل سيناء ، وبين هذا الجبل المقدّس ومكّة تكاد تكون المسافة أكبر بقليل . لكنّ المفاجأة تبدو مثيرةً أكثر في القدس حيث تتداخل الآثار المقدّسةُ وتتدامج . فعلى بُعد عدّة خطواتٍ من الهيكل المقدس ، المُقام فوق أسس هيكل سليمان ، حبر الأحبار العبرانيينَ ، يقوم جامع عُمَر وفي وسطه ، المُحاط بشبكة أقامها الصليبيّون ، الصّخرةُ التي كان ابراهيم يستعد فوقها للتضحية بإسحق . وقد لعبت هذه الصخرة دورَ المعبد الذي تُقدَّم فيه الأضاحي على امتداد ألف عام ؛ فهناك قُدِّمت العذراء الطفل يسوع ، ومن هذه الصخرة بالذات عَرَج محمَّد إلى السماء في إسرائه الصوفيّ . إن هذه البؤرة التوحيديَّة الحارَّة ، المولودة مع داوود وسليمان ، تعينَ عليها في وقت لاحق أن تُلهب بنيرانها موجدةَ المسيح وإشراقة محمَّد . وهكذا ، تقع أعظم ذكريات تاريخ البشر فوق رقعة مساحتها عدَّة أقدام مُربَّعة .

فمهما يكن الإطار الجغرافي لمرتفعات الكتاب مدهشاً ، فإن المرء لا يقل دهشة عندما يلاحظ أنّ ظهور الأديان قد حصل في وقتٍ متأخر جداً . ففي الواقع ، جرى قبل نزول الوحي ، في مجرى أعرق الأزمنة من تاريخ البشريّة ، رصد المُشيرات الأولى إلى ما سيتحوَّل لاحقاً إلى الإيديولوجيا الدينيَّة .

شيئاً فشيئاً كانت تلك الفكرة القديمة والغامضة عن الاعتقاد بقوى خفيَّة ، خيِّرة أو شريرة ، والاعتقاد بآلهة ينبغي الخوفُ منها أو تبجيلها ، تلك الفكرة التي وُلدت ربما مع الإنسان ، كانت مصحوبةً بفكرة أخرى ، فكرة البقاء أي الحياة بعد الموت . إن هذا التصوّر لبقاء الفرد الذي يفترضُ سلامة ومدة جسمه الأرضيّ ، إنما كان أساسُ العبادات الدينيّة الأولى ومرتكز الطقوس التي كانت ترمي إلى حفظ الأجسام . فالازدواج إذ يعاود إنتاج الإنسان ويمدّد بقاءه ، إنما كان

يستوجب الحفاظ على جسمه في حالة طبيعيّة تامة . وبالتالي كانت الديانات القديمة تجهّز القبرَ أو المدفن بطريقةٍ تزيد من فرص ديمومة الأشكال البشريّة القابلة للفناء .

وشيئاً فشيئاً ستُضاف إلى تصوّر البقاء ، في ذهن البشر ، فكرةُ عالم أفضل يقوم على العدل . ففي كتاب الموتى ، وهو طقسيّ مصريّ يُعَدُّ من أصلٍ إلهيّ ، يقوم الميت بالدفاع عن قضيّته أمام المحكمة التي تحرس الجنّة : « يا ربّ الحقيقة والعدل ، لم أرتكبْ أي ذنبٍ بحق البشر ، فلم أعذّب الأرملة ، ولم أكذب قطّ » . وهكذا ظهرت شيئاً فشيئاً للإنسان ضرورة الخضوع لشريعة إلهية أو إنسانيّة ، والطاعة لنظام تذهب إلى حد القبول بالقصاص أي بالعقاب أو الثواب وفقاً لكميّة الأفعال التي قام بها الفرد في أثناء حياته الأرضيّة . وعلى هذا النحو كان بنو البشر يتخيّلون ما ستكون عليه الأديان بعد الوحي والتنزيل ، والشريعة ، تلك الشريعة الإلهيّة التي كانت البشرية تنتظرها بفارغ الصبّر وبحماسٍ كبير .

ففي الوقت الذي آكتشفت فيه الكتابات على أوراق البردى القديمة ، دلّت المنحوتات والرسوم المعاصرة للحضارات البائدة على الجهود التي بذلتها البشرية الشرقيّة بحثاً عن ميتافيزيقا ضرورية لإعطاء الإنسان قوّة الحياة . إن تمثّل جثمان الميت ، والتماثيل المجنّحة أو المُريّشة ، تدلُّ كلها على أنّه منعتق من آفات الإنسان الفاني ، في حين أنَّ التصوير المألوف لمحكمةٍ توزن أمامها الأعمال الحسنة والسيئة في ميزان ، إنما يؤكد عقيدة خلود النفس التي يمكنها أن تكون سعيدة أو تعسة وفقاً لدرجة سمو الأفراد أخلاقيّاً .

عملياً ، قبل مجيء الديانات الثلاث الكبرى التي أوحي بها على التوالي . كان الشرقيّون قد اكتشفوا عقائد أخرى وعبادات أخرى ، وهي علامات مبكّرة للمعتقدات التي ستظهر لاحقاً . فقد كانت الآثار وأوراق البردى القديمة تُعيد إنتاج موضوعات حكم الله ، الجنّة والجحيم ، شجرة الحياة والمعرفة ، المرأة والحيّة ، الطوفان . ويؤكد كتابُ الموتى أن الإنسان وخلفاءه ، بعد التمرّد والعقاب ، يحملون وزرَ خطيئة أصليّة ، تعتبر الحياةُ تكفيراً عنها ، ويمكن في كل آنٍ ، أن يُلاحظ أنَّ الفن المصري ، الآشوري أو الكلدانيّ ، وكذلك الأدب

العبرانيّ أو أدب الزند ـ آفستا الفارسي قد طُبعت كلها بطابع الاهتمام الثابت بالصيرورة الدائمة للإنسان بعد الموت .

الحقيقة أنّ كل شيء كان قد قيل . ومنذ أزمنة بعيدة جداً . كان أفلاطون في كتابه « طيماوس » ينسب إلى محاوره المصري هذه الأقوال المدهشة : « أنتم اليونانيُّون الآخرون ، لستم إلا أبناء الأمس ؛ فلا شيء عندكم يتّسم بسمة أزمنة قديمة جداً » .

لكنْ لا بد من الاعتراف بأنَّ أياً من عبادات الأزمنة القديمة لم يؤكد في أية لحظة إيمانه العلني بتدبير إلهٍ عليّ ، أخلاقيّ ، للعالم وبقيادته نحو غاية عادلة ونبيلة . لقد كانت هذه ثغرةً كبيرة ستقوم الأديان المنزّلة بردمها .

أما الإسلامُ المسكون بهاجس وحدانيّة الله وتوحيده ، فقد رفض ، في سياق بحثه عن المطلق ، عقيدة الأقانيم الثلاثة ، وابتعد بذلك عن المسيحيّة التي كان يتّهمها بنوعٍ من الشرك في تصوّرها لإلوهةٍ ذات ثلاثة أشخاص . ولكنّ الإسلام كان يعترف ، بوفاءٍ نادرٍ جداً في تاريخ الأديان ، بأن الكتب العبرانية أو المسيحية كانت منزَّلة ، وكان يتقبّل قصص التوراة اليهودية ـ المسيحية . وكبرهانٍ على رسالته الإلهيّة ، يعترف النبيّ ويحتجُّ حتى بالتوافق القائم بين القرآن والتوراة ، وعلى غرار المسيحية ، يعلّق على الإيمان أهميةً أكبر بكثيرٍ من الأهمية التي يعلّقها على سلوك الفرد ذاته .

ولئن بُحث عن إلهامٍ عام على صعيد أصل الديانات المنزَّلة ، يُلاحظ أنَّ الديانات الثلاث كانت واقعةً كلها تحت تأثير بعض المفاهيم المشرقيَّة جداً . إن فكرة محاكمة الأنفس بعد الموت ، مثلاً ، تقتربُ من العقائد الفارسية الزرداشتيّة التي قدَّمت ، فضلاً عن ذلك ، مساهمةً في الديانات الثلاث الشقيقة ، ومن المناسب التذكير بأن تشابهات هذه الديانات تبقى جوهرية وعديدة ، على الرغم من بعض الخلافات . فالنبيّ محمّد يدعو اليهود ، بتسامحٍ وبتعقلٍ في آن ، إلى طاعة شريعتهم ، ويدعو المسيحيين إلى احترام أناجيلهم ، ولكن من المؤكَّد أنَّ عليهم التسليم بالقرآن بصفته آخر كلام الله ، ودينه المنزَّل المميَّز .

هذا هو الوجه العام لأصل الديانات ، وأول ركن الحضارة .

فبعد تقويض الابراطورية الرومانيّة في العالم الذي عاد إلى البربريّة ، ستحاول هذه القوى الروحيّة الثلاث ، التوراة ، التلمود والقرآن ، أن تعيد النظر في تنظيم الشعوب والنفوس ، كما ستحاول غزوها من جديد . وإن دراما التاريخ الغربي في العصر الوسيط تكمن في التعارض الدموي في معظم الأحيان بين هذه الإيديولوجيات الشقيقة الثلاث .

الفصل الثاني

شعوب المشرق

نشأت المراكزُ الحضارية العربية الأولى على الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربيّة ، في المناطق الخصبة نسبياً في الحجاز وفي اليمن خصوصاً . وإننا نكتشف في اليمن آثار مملكة سبأ ، التي كانت ملكتها على اتصال بسليمان قبل عيسى المسيح بألف سنة . ومن المفترض أن يكون السبأيون قد تعرّضوا بعد العصر المسيحي بقليلٍ ، لغزو الحميريّين ، وهم شعب في جنوب غرب الجزيرة كانوا يتحكّمون بالعلاقات البحريّة بين الهند ومصر .

خارج هذه التجمّعات البشرية ، الناشئة من وضع جغرافيّ فريد على ساحل رقعة صحراوية كبرى ، لم يكن العرب يتقبّلون أي انتماء وأي واجب ولاء وطاعة ، سوى ذلك الذي تمليه قبيلتهم .

البـدو

كان القسم الأكبر من سكان الجزيرة العربية ولا يزال بدوياً . فاليوم أيضاً لا يزال الدعاة البدو الذين يشكلّون هذه الأقوام المتنقلة بين أفريقيا الشمالية والجزيرة العربية يعيشون تحت الخيمة كما عاش أجدادهم منذ أقدم العصور ، ويتنقلون مع قطعانهم ، بحثاً عن المراعي حسب الفصول والأمطار . بتعبيرٍ آخر نقول إنّ بداوتهم ، هذه الملكة على التنقل ، هي التكيّف الوحيد الممكن للإنسان مع طبيعة جاحدة تحت شمس حارقة .

في العصر الجاهلي ، كانت كل عائلة عربية تملك خيمتها ، وكان مجموع المضارب والخيام يشكّل عشيرة وكانت القبيلة تتكوّن من مجموع العشائر

المتقاربة . أما التكافل فكان مطلقاً بين أفراد القبيلة الواحدة ، غير أن القبيلة المجاورة كانت في المقابل طريدة مستهدفة بكاملها ومعرَّضة للمناوشات والغزو . والتشكيل القبلي يقوده الشيخ (السيد ، القائد) الذي تنتخبه الجماعة (الجمعيَّة) بناءً على ثروته أو قيمته الحربيَّة .

ثمَّة عاملان متلازمان في البداوة القبليَّة ، الجمل والحصان . ففي حياة الصحراء ، يلعب الجملُ دوراً رئيساً لأنَّ صبرَه وجلدَه يتجاوزان الخيال ؛ ولا تُقتصر صفاتُ هذا الحيوان الخارق على هاتين الميزتين وحسب ، فهو ليس فقط « مركب الصحراء » ، إذْ أنَّ الجمل لا غنى عنه في الاقتصاد العائلي : فلبنه يُشرب ، وبولُه علاجٌ مرموق ، وروثُه السلوّلوزي جداً يُستعمل في الوقود . ولحمه يؤكل أخيراً عندما يموت ، بعدما يكون قد عبر الفيافي والقفار مراراً وتكراراً بلا كلل . وتُصنع الملابس والخيام من وبره وجلده .

أما منافسه ، الحصان ، فهو أنوفٌ وفيئي ، ومشهور بحقّ ، لكن رعايته أصعب . فالبدوي يعتبره صديقاً له ، والشعراء خصصّوا له آثاراً أدبية جميلة ؛ ونجد ما لا يقلّ عن ألف كلمة للدلالة على الحصان في المعجم العربي . إنّ نجاح الغزوات الكثيرة الرامية إلى تأمين حياة القبيلة ، يتوقّف في الواقع على سرعته وقوّته .

إن البدويّ ، المتعطّش للمجالات الحرّة والآفاق اللامحدودة ، الشديد مثل جمله ، المتوثّب كجواده ، يمكنه العيش على التمر واللبن ، وقضاء جزء من حياته في الحرب ، في العراك والغزوات ، بوصفها الاهتمامات الوحيدة الخليقة به ؛ لكنّ غريزته كإنسان طراد ، كنهّاب ومحارب ، شديد الهيام بالمرأة ، تماماً مثل هيامه بجواده ، يقابلها إلى حدٍ ما الكرمُ والصّدق والوفاء وإحساسه الرفيع بالضيافة والشّرف .

هكذا يبدو الشخص الأساسي الذي كان ، قبل محمَّد بكثيرٍ ، ومنذ الأزمنة القديمة وحتى أيامنا ، بطل المغامرة في صحراء الجزيرة العربيَّة . ودون أن نعلم من أين يأتي ، نراه يحارب فجأةً ، على صهوة جواده ، في أماكن مختارة من الهلال الخصيب ، وينهب القوافل أو يطلب فدية ؛ ثم يلوي العنان دائماً ، ويرجع على

أعقابه إلى صحرائه المغلقة ، حاملاً معه غنيمته .

وفي كل الأزمنة ، كانت كِلدة والشام المنطقة الأكثر تعرُّضاً لضربات قراصنة الصحراء .

الكلدانيّون والآشوريّون

كان الكلدانيّون من الساميينّ الذين لا نزال نجهل ماضيهم البعيد ، على الرّغم من الاكتشافات الحديثة جداً . ففي كِلدة ، بين دجلة والفرات ، يحدّد سفر التكوين مهد البشريَّة ، والأساطير الكلدانيّة غنيّة بأحداثٍ تذكر على نحوٍ غريب الطوفان وبرج بابل ومغامرات نوح وتفرّق اليهود .

لم يكن هناك فرق جوهري بين الشعبين الآشوري والكلداني ، اللذين كانا يعيشان جنباً إلى جنب . وتكشف النصوص المساريَّة أنَّ التفوّق إذا كان ينتقل طيلة ألف سنة إلى بابل تارة ونينوى تارةً أخرى ، فإن الحضارة والعادات واللغة والمعتقدات كانت قد بقيت مشتركة بين الشعبين .

منذ ثلاثة آلاف سنة ق . م . كان البشر الأوائل المقيمون في كلدة مزارعين وبناة مدن . وهكذا شيّدوا أور ، سيرتللا وبابل . كانوا ناشطين وماهرين فحفروا القنوات ، وانشأوا السدود على امتداد الأنهر وأصلحوا البلاد بغية ريّها . بعد هذا العمل التمهيدي ، شرع الكلدانيّون في استيطان المنطقة الجبلية وأسسوا العسّور ، سنجار ، كلخ ، نينوى . وفي وقت لاحق ، عندما احتل المصريون كلدة مؤقتاً ، كان الآشوريّون ، سكان الجبال ، المتوافدون إلى المناطق المجاورة ، يعملون لفرض نفوذهم على بقية الشرق .

ففي غضون ألف سنة ، لم يكن هناك سوى غزوات ، اجتياحات ومجازر ، مدّ وجزر الغالبين أو المغلوبين . هكذا ، كانت الشعوب الشرقيّة تدشّن السلسلة الطويلة من الحروب الأخوية التي كانت تنهال بلا رحمة على هذه المنطقة من العالم ، ومع دخول الميديّين والسكيتيين والفرس على المسرح بدورهم ، بدأ التنافس على الشراسة . كانت عبقرية التهديم قد استولت على جماع البشرية المراهقة . فلم يبقَ الآن من سوسة ونينوى وبابل ، التي أُحرقت وأُغرقت بالدم

عدَّة مرات ، ثم أُعيد بناؤها وجرى تهديمها من جديد ، لم يبقَ منها سوى أنقاض بلا إسم .

باختصار ، لم يبقَ من ذلك العصر ما يمكن حفظه أو الاشارة إليه ، سوى إسم نبوخذ نصر الذي هدم أورشليم ، بلا ريب ، ولكنّه بقي مع ذلك بانياً كبيراً ، ترك آثاراً عن نشاطه الإعماري .

كما أنَّ عدة أسطر ستكون كافية لتحديد مكانة هذه الحضارة الناشئة .

ففي تلك الأمم الكائنة في طور التنظيم ، كان الجيش والطبقة الكهنوتية يحتلّان مكانة نافذة ، وكان يأتي بعدهما الكتَبَة الذين كانوا يتولّون الوظائف والمهام الإدارية . ومنذ ذلك الحين ، كانت الزراعة والتجارة موضع تقدير رفيع في منطقة مميّزة بطبيعتها المرموقة ، وبوضع جغرافيّ ممتاز . فهناك أيضاً كان يُفترض أن تنشأ صناعة الأقمشة والسجاد والأثاث والجلود والأسلحة ، تلك الصناعة التي بلغت في وقتٍ قصير ذروة الأناقة والتّرف . وسرعان ما تطوَّر التعليم لدى الكلدانيين والأشوريين ، الذين كانوا بوجه عام يعرفون القراءة والكتابة ، فالنصوص المكتشفة منقوشة على ألواح خشبيّة ، ومرقونة على الجلود والقرميد ، وحتى أنَّ بعضها مكتوبٌ على ورق البردى .

إن هذه الشعوب المأخوذة بسحر السماء والفضاء ، كانت تدرس علم الفلك . وكانت تحسب بدقة ومهارة ، فابتكرت نظاماً مترياً . وندين أيضاً لهذه الشعوب المبدعة بتقسيم الدائرة إلى 360 درجة ، وقسمة السنة إلى أشهر ، أسابيع ، أيام ، ساعات ، دقائق وثوانٍ .

ولا تزال العقيدة الدينية غامضةً لدى هذه الشعوب العريقة ، فالسلاطينُ هم في آنٍ ملوكٌ وكهنة كبار ، والآلهة كثيرة ، والأنفس مضطربة من جراء الرعب الذي توحيه الشعوذة والخوف من القوى الخفيَّة الشريرة . ومثال ذلك أن السّاحر والمشعوذ يملكان القدرة على زعزعة أقوى النفوس ؛ وهذا الأمر قد يبدو غريباً جداً ، إذْ أن كثيراً من تلك الشعوذات لا يزال قائماً وحتى أن بعضها قد انتقل إلينا (إلى الأوروبيين) ، طالما أن العقل البشري ينجذب في الحقيقة نحو سر الطبيعة وقواها الخفيَّة .

مهما يكن الأمر ، وعلى الرغم من تقلّبات مصيرهم ، فإن الكلدانيين والأشوريين يشغلون مكانة كبيرة في أصول الحضارة ، فقد ابتكروا المداميك الأولى للتنظيم الاجتماعي ، لكنّ هذه المحاولة أثبتت أنّها مضنية ومرهقة .

في الواقع ، لم يبقَ من حضارتهم البدائية شيء ، لكن العناصر التي وزّعتها هذه الشعوب انتشرت عبر العالم ؛ ولقد أمكن القول إنّ تلك الأرياف الغنيّة ، حيث كان التراثُ يحدّد موقع عدن ، « كانت الرياح قد حملت منها بذوراً أخرَى كثيرة ، غير حبّة الحنطة المقدسة ، لكي تنشرها فوق أراضي الغرب » . وليس من المبالغة أن نضيف ؛ « أنّ جناحها قد أرخى فوق الأمم التي كانت لا تزال نائمة ، بذارَ كل الفنون المفيدة وخمائر الفكر » .

الفــرس

لقد مارس الفرس نفوذاً اعمق في فسيفساء الشعوب هذه ، وعبر تلك المحاولات الحضاريّة . فمن دجلة إلى الهند ، ومن القزوين إلى المحيط الهندي ، كانت الامبراطورية الفارسيّة تمتدّ فوق هضبة هائلة تفصلها مسطّحات مرتفعة عن البلدان المجاورة . إنّ وسط الهضبة التي تتخفّى فيها بعضُ الواحات النادرة ، ذو طبيعة صحراوية ، بينما ينحدر الجنوبُ نحو ساحل مُحرِق وموبوء ، ولكن في المحيط ، في ثنايا حزام الأعالي ، كانت تتخفى أعداد كبيرة من القرى والمدن على ضفاف عدّة أنهر تروي الأودية الخصبة . وظلّت الحياة والخصوبة متمركزتين في هذا الرحم حيث كانت ترعى القطعان ، وحيث كان في مستطاع الحبوب أن تنمو بسرعة ، بينما كانت جنائن رائعة تعطي ثماراً لذيذة . فوق هذه الأرض المميّزة ، كانت الضرائب أقل إرهاقاً مما هي عليه في الامبراطورية الرومانية ومع ذلك كانت الخزينة الفارسيةّ أغنى من خزينة الأباطرة ، كما أنّ كمال هذا النظام الإداري أدّى إلى حثّ العرب على الأخذ به كما هو ، في أثناء الفتح .

كما أنّ تاريخ فارس مدينٌ لوضعها الجغرافي ، ذلك الذي سيجبرها على الدفاع عن نفسها باستمرار ، من جهة آسيا في مواجهة الأرهاط البربرية ، ومن جهة أوروبا في مواجهة الإغريق والرومان ، وفي القرن السادس ق . م . كان ملكها قورش قد غزا العالم القديم ، بينما كان داريوس ، سيّد الشرق ، قد عبر في

القرن التالي مضيق البوسفور وتمكّن من اجتياز الدانوب . لقد كانت الامبراطورية الفارسية في ذروتها ، ولكن بعد داريوس ، غُلب ولدُه إكزركسيس (Xerxès) في سالامين وبلاطة ووقع خلفاؤهُ تحت قبضة الإسكندر وضرباته سنة 330 . إن الحروب المتواصلة والصراعات التي كان يتعين على فارس أنْ تخوضها في مواجهة الرومان ، والفتن الداخلية ، أودت بها إلى الهاوية .

زدْ على ذلك أنَّ والي الشام العربي كان يمكنه ، سنة 634 ، أن يشير في ظل الخليفة عُمَر ، إلى أنها كانت « ناضجة للفتح » . مع ذلك ، خلّف الفرسُ تراثاً مرموقاً للحضارات المتعاقبة .

إن ديانتهم من أنقى ديانات الأزمنة القديمة ، فقد بشّر بها زرداشت في كتبه الأفستا (Avesta) قبل المسيح بكثير ؛ وهي تعلن أنَّ العالم من صنع إله قدير ، حكيم ورحيم ؛ لكنَّ روح الشّر تنازعه على مملكته باستمرار . والأخلاق التي تنجم عن هذا الدين ، الرائع أصلاً بترفّعه ، تأمر الإنسانَ بأن يفعل الخير في كل مناسبة . وهي تمجّد العمل وتكرّم الأسرة وتعلن المساواة بين البشر .

في مجال العلوم والفنون والآداب تصرّف الملوك الساسانيّون ، كحماةٍ متنّورين وأجادوا تثقيف الفنون وتهذيبها بنجاح . ففي عهدهم ، جرى في اصطخر (برسيبوليس) وسوسة بناء قصور ذات أبهة لا تضاهى ولا تزال آثارها مدهشة . وهناك رسوم وتصاوير منقوشة على الصخور تدلُّ على عبقرية فنيّة رفيعة وأصيلة في آن ؛ ومن الفنون التقنيّة هناك صناعة الخزفيّات التي بلغت درجة عالية من الجودة . فقد حافظت الخزفيّات الفارسيّة ، رغم الزمان ، على ألوانها ووهجها الخارق ، كما أنَّ الأقمشة والسجاجيد الساسانية تُعَدُّ من أثمن المنسوجات في العالم . كما حدث بعد الفتح الإسلامي وفي ظل التأثير الفعّال للعرب ، انبعاثٌ فارسيّ حقيقي .

المصـريّون

في غرب العالم القديم ، كانت الحضارةُ المصرية تتطوّر بانتظام وبلا تاريخ ، بفضل انعزال هذه المنطقة . فبينما كانت بقية الأرض لا تزال غارقةً في البربرية ، كانت ضفافُ النيل تقوم بإطعام « مملكة قويّة ، مستندة إلى تنظيم

رائع » . وكان يسود في أعلى الهرم الاجتماعي ، الفرعونُ ، صورةُ الله ؛ وكان تحته الكهنةُ والجيوش يشكّلون النخبة القيادية . ثم يأتي بعدهم الكتبةُ أو موظفو الدولة الموجلون بملء المراكز الإدارية ؛ وأخيراً ، كان العامّة يضمّون التجار والعمّال المنتظمين في أصناف مهنيّة ، والفلاّحين المرتبطين بالأرض .

كانت العادات والآداب دقيقة ، والحياةُ وديّة ، مرحة وسهلة نسبيّاً ، حتى للعبيد . وكانت القوانينُ المدنيّة والعلاقاتُ بين الأفراد منتظمة وفقاً لـ« قانون العقود » . وهناك آثارٌ كثيرة ، « مبنية للأبدية والخلود » ، كانت تمتد على طول السلسلة الليبيّة ، قصيرةً ، واطئةً ومنقبضةً مثلها . وكان الفن الديني مفعماً بالواقعية والصّدقيّة ، وكذلك كانت الفنون التزيينيّة أو الصناعية قد بلغت أناقةً وجودةً لا تزالان صالحتين كنموذج للفن الحديث .

وسرعان ما جرى استيعاب الغزوات النادرة التي طاولت برزخ السويس ، مثل غزوات الهيكسوس وغزوات الآشوريّين . كما أن مصر ، وبوجهٍ خاص الاسكندرية شهدت في عهد البطالسة حياةً فكريّة غنيّة . وعلى الرغم من الغزو الروماني ، كان يتعينّ على نمو مصر ، بمجملها ، أن يهيّىء هذا البلد للقيام بدور دماغ الإسلام .

الفينيقيّون

بينما كانت فارس وكِلدة ومصر حالات غربيّة ، كانت فينيقيا ـ الشريط البريّ الضيق بين لبنان والبحر ـ أمبراطورية بحريّة . ومع ذلك ، كان ساحلها رديئاً ، مستقيماً ، مفتقراً إلى مصبّات نهريّة وملاجىء ومرافىء طبيعيّة . عملياً ، كانت غائبة في فينيقيا شروطُ الحياة البحريّة ، وقد يكون هذا الإبداعُ الصُّنعيّ تحدّياً للحس السليم ، لو لم يكن قد تولّد من حاجة ضرورية .

ونظراً للثغرتين التين تحيطان بها من الشمال والجنوب واللتين تشكلان الممرّين الوحيدين الموصلين إلى آسيا ، لم تكن فينيقيا مستقلة عن مؤخرة البلد . وكان هناك مواقع مرفأية حصينة وأسطول بحري قوي ، تفرض نفسها على مدخلِ هذه الممرات وعلى امتداد ذلك الساحل ، فوق الطريق الذي سلكته الجيوشُ باستمرار ، في الاتجاهين ، والذي لا يزال أعظم طريق دولي حتى في

أيامنا هذه . ولا تزال عند مصبّ نهر الكلب ، بالقرب من طرابلس ، محفورةً في الصخور ، الخطوط الهيروغليفية والنقوش والنصوص اليونانية واللاتينية التي تدلُّ ، تباعاً ، على العبور المظفَّر لرعمسيس الثاني ، وستة ملوك آشوريين ، والجحافل اليونانية والفرق الرومانية .

ربما كان الفينيقيّون المحاصرون بالجبال ، بحريّين لأنهم لم يجدوا أمامهم مخرجاً آخر غير البحر ؟ لكن مهما يكن الأمر بدافع الضرورة أم بدافع المزاجِ ، فمن المعروف جيداً أنهم كانوا ملّاحين ممتازين وتجاراً من الطراز الأول . كما أنهم أنشأوا أعظم قوّة بحرية وتجارية في العصر القديم . فقد وقع بين أيديهم بسرعة حوضُ البحر المتوسط ، ويـون أيوكسان والبحر الأحمر ، وكانوا الأوائل بين الشعوب البحارة ، فداروا حول افريقيا ورأوا « الشمس عن يمينهم » ، وهذا ما كان يبدو لهيرودتس أمراً لا يُصدَّق ، ولكنّه يؤكد مصداقيَّة الرحلة . غير أن امبراطوريتهم زالت بعد تدمير طروادة[1] وصيدون وصور وقرطاجة التي لم يبقَ منها سوى أنقاض مهشّمة .

لم يكن لدى الفينيقيين فنٌّ أصيل . وكانت مزاياهم تجاريَّة (مركنتيلية) في المقام الأول . لكنُّهم كانوا يجيدون ، في مواجهة اندهاش زبائنهم المتوحشين ، الحفاظَ على تمثيل دقيق لكل أعمالهم بواسطة دمج الإشارات والعلامات التي تدلّ على تمفصل الصَّوت . لقد كان ذلك بمثابة الجنين الأبجدي الأول .

ففي عصر لم يكن الإنسان يمارس سوى المقايضة ، ويستبدل سلعةً بأخرى ، من العدل الاعتراف بأنْ الفينيقيّين أجادوا بطريقة ماهرة تبسيط الأعمال التجارية من خلال ابتكار النقود المعدنية التي تحمل علامة التجّار الكبار . وبفضل عبقرّيتهم التجارية ، كانت الحضارة قد خطت خطوةً حاسمة ، وجرى ابتكار العملة .

الإغريق والرومان

إن هذا التعداد الوجيز لشعوب المشرق لا يمكن اعتباره كاملاً إذا لم نذكر

(1) لم يسجّل هيرودتس في تاريخه أي تباين بين الطرواديين والفينيقيّين .

المستوطنات المتعاقبة التي أقامها الإغريق والرومان الذين كان يُفترض بهم القيام بمهمة تأسيس العلاقات الأولى بين الشرق والغرب .

ففي سنة 312 ق . م . ، كان اليونانيون قد أنشأوا المملكة السلوقية في شمال ـ غرب شبه الجزيرة العربية . ونشروا فيها الثقافة والحضارة الهلينيّة وعانوا بدورهم من تأثير روحيّة الحضارات السابقة وتقاليدها وعبقريتها ، الحضارات السومرية ، المصرية ، الإيجيّة ، الحثيّة ، الكلدانيّة ، كما تشهد على ذلك الآثار التي نجدها من خلال الحفريّات . ولقد تجلّى في بلاد الشام انصهار كل تلك المظاهر لعبقرية شعوب المشرق في أبهى حللها . وكل يوم تقدّم انطاكية والسويداء واللاذقيّة لمعول البحّاثة عجائبَ نوعٍ سوريّ في نهاية المطاف سيجري دمجه فيما بعد في تراث الحضارة العربيّة .

كان الاسكندر الكبير (356 -323 ق . م.) الذي عُيّن قائداً عاماً للقوات اليونانية المسلحة ، قد انطلق لغزو المشرق مع 35 000 رجل ، منهم 5000 خيّال . وكان هذا العبقريّ الحربيّ قد غلب قوات أكبر من جيشه بعشرين وبثلاثين مرّة ، في غرنيقة ، وإيسوس وإربيل ، وسيطر بسرعة على كل آسيا وصولاً إلى تركستان والسّند ما بين 335 و 323 . لكنّ الموتَ فاجأه وهو في الثالثة والثلاثين ، في الوقت الذي كان يحلم فيه بتوحيد الفرس والإغريق المتعادين منذ قرون ، وجمعهم في وطنٍ واحد .

مع الاسكندر بدأت الحقبة الهلينيّة بالنسبة إلى المشرق ، تلك الحقبة التي سيتواصل تأثيرها العميق على امتداد أكثر من ألف سنة . كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسميّة آنذاك ، وجرى إضفاء الطابع الهلينيّ على المدن الشرقية . وصارت الإسكندرية وأنطاكية وسلوقية حواضر عملاقة ومراكز تجارية ضخمة . وامتدت العقلية الهلينيّة المتسامحة والمتشكّكة حتى في البلد المُقدّس ، فلسطين .

إلّا أنَّ الانصهار الذي حلم به الاسكندر لم يتحقّق ، فانحصرت الهلينيّة في المدن ولم تتمكن من الانغراس في الأرياف ، وظلّت هاتان الحضارتان في مواجهة بعضهما ، جامدتين ومتمايزتين . وفي بلاد الشام ، كانت سلوقية وانطاكية تشكّلان مِصْرَين منعزلين ومتخاصمين . وفي مصر ، كان سكان وادي النيل

الأصليّون يجابهون إغريق الاسكندرية . ورأى الرومان أن الوقت قد حان لكي يتدخلوا في المشرق .

إنّ الغزو الذي بدأه إسكيبون الإفريقي سنة 189 ، أكمله پومپيوس سنة 63 . ولكن الامبراطورية لم تستطع أن تقدّم للمشرق سوى ركيزة إدارية سطحية ، فكان أثرها لا يطاول الأعماق ، وظلّت النفوس مؤيّدة للثقافة اليونانية . أما روما فكانت قد بقيت غربيّة جداً ، فلم تفهم الشرق وهو لم يفهمها . وربما تمكّنت روما فقط من إعاقة تطور الهلينيّة ، وأسهمت بذلك في فشلها الذي سيكون فشلاً ذريعاً أمام صعود الإسلام .

الفصل الثالث

الينابيع المادية والمعنوية

كان العبرانيّون من أقرب جيران العرب ومن أقربائهم المقرّبين إثنياً. يروي سفرُ التكوين تاريخهم الذي يلتبس مع التاريخ الأسطوري للبشريّة.

جاءت القبائل العبريّة من الجزيرة العربية، مثل كل الملل الساميّة، وأقامت أولاً في كِلدة حول أور، حيث كانت ترعى قطعانهم. ثم بقيادة إبراهيم، سارت بمحاذاة مجرى الفرات حتى وصلت إلى ساعدة، وواصلت السير غرباً باستمرار حتى تمكّنت من بلوغ ضفتي نهر الأردن. هذا هو الطريق الذي يحيط ببادية الشام، الطريق الأقصر الذي يمتدّ من كِلدة إلى مصر، ذلك الذي ستسلكه الهجراتُ والجيوشُ الغازية. أما حوض الأردن فهو الأرض «الموعودة» غير مرّة، بلد كنعان، الذي صار يهودا فيما بعد، ثم فلسطين. وكان بالنسبة إلى شعب راعٍ يمثل أرضاً فقيرة. ترك ابراهيم فيها حفيده لوط ومضى هو إلى مصر.

كان لإبراهيم ولدان، حسب التوراة: إسحق الذي انحدرت منه قبائل إسرائيل الإثنتا عشر، وإسماعيل أب الفرع العربي، الذي يضعه محمّد على رأس النسابة.

منذ أن صار العبرانيّون كثيري العدد في مصر، استؤنف الخروجُ إلى «الأرض الموعودة». تشرّد الشعب العبراني وتاه بقيادة موسى زمناً طويلاً عبر المناطق الصحراوية من الجزيرة العربيّة إلى النفود، واتصل مصادفةً بالقبائل البدوية الأصليّة. عند طور سيناء أعطى موسى لليهود «ألواح الشريعة» ثم التشريع الذي كان يُفترض به أن يقودهم على امتدادَ الأجيال. عملياً لم تستطع

القبائل اليهودية والقبائل البدوية في المناطق الصحراوية أن تتجنّب التلاقي . ويُقال إن موسى قد تزوج إبنة راهب ربّاني في منطقة مديان (مدين) . وهذه الألوهة المسمّاة يغوث لم تكن شيئاً آخر سوى الألوهة المسمّاة يهوه (Yéhovah) لدى العبرانيينّ . والحال ، فإنّ مديان تتصل بالحجاز ، حيث كانت القبائل البدويّة قد جمعت أوثانها . وهكذا تمّت بقوة الأشياء مبادلات بين المتشرّدين والرحّل ذوي الأصل الواحد ومن بلادٍ متجاورة .

من جهةٍ ثانيةٍ انطلقت الهجرات العبرّية ، من كلدة مع ابراهيم ، ومن مصر مع موسى . وهذه المرّة لم تجر التأثيرات المتبادلة بين جيران وحسب ، بل بين طرفٍ مشرقي وآخر .

وشيئاً فشيئاً راح يفعل فعله الاختراقي ، تصوّرُ الإله الواحد الذي تبنّاه اليهود ، وجرى تبادل الأفكار حوله ببطء . ولم يتمكن العرب أنفسم ، على الرغم من عزلتهم ومن استقلالهم الشديد ، أن ينجوا من هذا التأثير . وعندما أقدموا فيها بعد على توحيد الشرق في ظل إيمانهم الديني والسياسي ، وجدوا الميدان مهيئاً لذلك .

كان هناك تراثاتٌ أخرى تنتظرهم .

فلو شئنا أن نستذكر جيداً أنْ الفينيقيينّ ، أولئك الكنعانيينّ الساحليّين ، كانوا قد سيطروا من قرطاجة على افريقيا الشمالية وأسبانيا ، لصار في إمكاننا على الأقل أنْ نفسّر جزءاً من سرعة الفتوحات العربيّة .

إنّ التفاعل الحتمي ، بحكم الوضع الجغرافي ، بين الجنس العربي والجنس اليهودي لأمدٍ طويل قبل الإسلام ، هو نتيجة إثنيّة . وهو يفسّر كثيراً من الوقائع التاريخية الصغيرة ، وحتى الخرافيّة . فالملوك الذين يتحدّث عنهم إرميا ربما كانوا مشايخ الجزيرة العربية الشمالية ، وربما كانت سلاميّة التي يخلدّها نشيدُ الإنشاد أميرة عربية من قبيلة كدرة ؛ أما أيوب ، واضع أجمل قصيدة ساميّة ، فهو عربيّ . أما « حكماءُ المشرق » الذين ساروا وراء النّجم حتى القدس ، فربما لم يكونوا سوى مشايخ بدو ، أكثر مما كانوا سحرة (مجوساً) قادمين من بلاد فارس البعيدة . في الواقع ، ربما يكون من السهل أن نتابع التواضعات التوراتية مطوّلاً .

كانت اليهودية قد جمعت فلسطين في « دولة كهنوتيّة » . وشيئاً فشيئاً كانت الأرستقراطية الدينية قد تهلينت إلى حدٍ ما ، في ظل الملوك المتسامحين كالبطالسة والسلوقيين . وزُعم أنَّ تيتوس عندما قوّض القدس في زمنٍ لاحق إنما وضع حداً لشكل اليهودية القديم ، وصنع على مثاله بلا شك ، الشكل الجديد لليهودية . لكنَّ هجرات الماضي ، التي لم تكن ناجمة دائماً عن الإكراه ، كانت قد رسمت من قبل وبقوّة الخطوط الكبرى لمصيرها التشرّدي .

إلاّ أن اليهودية لم تعد شرقيّة حصراً ، بعدما تناثر اليهود ، وكانت روما قد استبعدت هذه اليهودية الممثلة للفكر الديني .

وعليه فإننا نتساءل عما إذا كان كره اليهود للرومان لم يكن قائماً على الانعكاس العميق لشعور الشرق تجاه الامبراطورية . من الواضح أن المشاعر الشرقية وكذلك المشاعر اليهودية لم يكن في مستطاعها الانتماء إلى عبادة الامبراطور أو المشاركة في الشرك والوثنيّة. ولكن تلك المشاعر لم تجد أيضاً في المسيحية ما يشبع تطلّعاتها الغامضة . فلم تتمكن المسيحية من أن تبقى محصورة في مهدها الشرقي . فقد انطلقت لغزو الجماهير الشعبيّة في الامبراطورية ، فقلبتها رأساً على عقب ، بعدما كانت المسيحية نفسها قد صارت غربيّة ، وفي ذروة تطورها ، عندما صارت الطقس الرسمي لدى الرومان ، لم يعد الشرق قادراً على التعرّف إلى ذاته في ذلك الدين الذي كان هاجر وتغرّب . ونُرى الأمور بشكلٍ أوضح ، عندما أمر شابور الساساني بقتل مسيحيي امبراطوريته ، في الوقت الذي كانت فيه المسيحية قد حظيت باعتراف اليونان وروما بها كدين رسمي ، وكانت كلتاهما معاديتين دائمتين للفرس . وبطريقةٍ ما كانت اليهودية والمسيحية قد طُردتا من المشرق . صحيح أنَّ مؤيدي الأديان الجديدة لم يكن هذا البلد يخلو منهم في القرون الأولى من التقويم المسيحي ؛ ولئن تمكّن رينان من الاستهزاء بـ«العدميّة الدينيّة لدى الغربيين»، فإن غريزة الشرق الدينيّة لا يمكن إنكارُها في المقابل.

لا يمكن تصوّر هذه الحالة العقلية ، هذا الاستعداد للتأمل الغيبي ، دون تجاوزات ودون غلوٍ وإفراط . فالتخمير القلق للنفوس الشرقيّة لا يزال يشكّل بؤرة هرطقاتٍ قادرة على إنجاب متصوّفة كبار مثل صانعي المعجزات المتعصّبين ،

الذين يجرّون وراءهم جماهير من المتحزّبين والمريدين ، المتهوّدين والمتنّصرين . وهذه جرجرة بلا مستقبل : فالمانوية التي هي خير مثال على ذلك ، كان لها شهداؤها الذين لم يؤدِ دمهم المُراق إلى نمو أي موسم حصاد . ولكنْ ذلك الذي كان يعلن نفسه رسولاً إلهياً ، مسالماً ومهدّئاً ، قام بصلبه شخصياً السَّحرة المناضلون والقوميّون . وفي غليان الهرطقات مَنْ لا يذكر عبادة الميترا ، روح النّور الإلهي ، الإله ـ الشمس الشعبي لدى البارثيين ؟ في القرن الثالث ، اجتاحت هذه العبادةُ الامبراطورية واليونان الآسيوية ، ثم انهارت أخيراً أمام المسيحية .

من الضروري ، بلا شك ، تخصيص مكانة لجوليان المارق ، الذي وضع الجيش الروماني في خدمة مطامعه وشواغله الصوفيّة . وغُلب هو أيضاً ، فروى مدوّنو سيرته أنّه عندما سقط عند جدران المدائن ، لم تكن آخر كلماته ضد الفرس ـ أعدائه ـ بل كانت موجهة إلى المسيح : لقد ربحت ، أيها الجليليّ .

وبالتالي جاء يوم لم يعد في الشرق الثيوقراطي صوفيّة على مقاسه . ففي هذه البلاد حيث الوجد المهيمن هو الدين الذي يملأ النفسَ وحدَه ، غير تارك أية شواغل واهتمامات خارج قانونه الخاص ، تجد النفوس نفسها فجأة بلا مثال ، بلا إيمان ، بلا قانون أخلاقي ، بلا رادع ديني ، وبكلمة تجد نفسها تائهة . وهذه برأينا هي الكلمة المناسبة . ومن جرّاء ذلك اختل نظام الحياة العامّة بأسرها . ولم يكن في مستطاع هؤلاء الغُلاة المبدعين للإيمان ، أن يتوّقفوا عن بحثهم عن دينٍ آخر يكون خاصاً بهم ، وحدهم ، ملبياً للحاجيات العميقة في النفس الشعبيّة .

في الجزيرة العربية ، لم تعد وثنيّة القبائل الموروثة تُجيب عن ميول البدو التي كانت لا تزال شديدة الغموض والالتباس . فقد كانت الهجرات والقوافل وحتى الغزوات مناسباتٍ للاتصال والتبادل مع أهل الكتب المنزّلة . وكانت تلك الظروف تفتح العقول شيئاً فشيئاً وتعدُّها لقبول توحيد لا يزال مشّوشاً بلا ريب ، ولكنّه كان يُفترض به أن يتشكّل ويتجسد ذات يوم . سياسياً ، كانت الجزيرة العربية غير عضويّة وبلا قوانين ، إذْ كان الشرق لا يزال غارقاً في الفوضى الناجمة عن انهيار الامبراطورية الرومانيّة ، فلم يعد هناك شيء قائم يمكنه سد الطريق أمام قائد قومي وديني . لقد تحقّق الجو المثالي لتفتح دين وقيام امبراطورية .

كانت ساعةُ الإسلام قد دقَّت .

الفصل الرابع

محمد والقرآن

في منتصف الطريق بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها ، كانت مكة المحطة الرئيسة للقوافل التي كانت تؤمّن المبادلات بين مصر والهند . كما كانت نقطة انطلاق وعودة التجارة مع فلسطين والشام وكِلدة . فقد كان تجار مكّة الأثرياء سادة سوق عُكاظ الذي كان يضمّ كل عام التجّار والوعّاظ والسّحرة والشعراء من كل أرجاء الجزيرة . وكان يعود إليهم أيضاً إقامة الشعائر النفعيَّة في الحج الذي كان يجري في المناسبة ذاتها . ففي خلال أربعة أشهر كانت تتوقّف المنازعات وأعمال السلب والنهب والحروب ، وذلك لكي تتمكن القبائل والقوافل في كل الجزيرة العربية من القدوم إلى المشاركة في تلك الأسواق والمعارض . وكانت تُقام في تلك الأسواق مباريات خطابيَّة يتنافس فيها أفضل شعراء القبائل ، كما كانت سباقات عكاظ تُتابع باهتمام كبير . وكان إسم المنتصر ينتشر في كل الجزيرة العربية ، وكان يشرّف قبيلته . فلا يوجد شعب يحبّ الشعر كالبدويّ ، لا سيما الشعر الذي يغنّي الجمال والشجاعة واللذة . حتى أنّ الأميّين ـ وكان معظم الشعراء العرب أميّين تقريباً ـ كانوا يتذوّقون البيانَ واللغة الجميلة . كما كانت القافية والإيقاع يمارسان عليهم سحراً حقيقاً .

من الوجهة الدينيّة ، لم يكن البدو يحترمون إلاّ بعض الممارسات الرتيبة التي يمليها امتثالٌ غامضٌ لتقاليد القبيلة . هكذا تُفسَّر عبادتهم لعدَّة آلهات كانوا يضعونها في الكواكب وعلى الأرض أيضاً : بعل ، الذي كان يجسّد الشمس ، عشتارت ، التجسيد الإلهي للقمر ، أدونيس ، تموز الكلداني ، أو حوريس المصري ؛ مولوخ مردوك الكلداني أو آمون المصري . وكان خيالهم يزرع

الصحراء بالجنّ ، وهي مخلوقات تضارع الملائكة والشياطين ، حسبها تكون صديقة أو عدوّة ، وقلّما كانوا يهتمون بحياة أخرى غير أكيدة ، فكانوا يؤمّون عدة معابد بدافع الشعوذة لا بدافع الإيمان ، وكان المعبد الأكثر تكريماً لديهم هو معبد الكعبة في مكّة ، على بعد ثلاثة أشواط قصيرة من سوق عكاظ الكبير .

وكانت الكعبة ، وهي معبد صغير ذو شكل مكعّب ، تُعدّ من إنشاءِ إبرهيم وولده اسماعيل ، جدّ كل العرب . ويُقال إنّ الملاك جبريل حمل لإسماعيل وأمه هاجر اللذين ظلّا وحيدين ، حجراً شديد البياض لكي يضعا رأسيهما عليه . وعلى مرّ الأجيال اسودّ ذلك الحجر من خطايا البشر ، فصار الحجر الأسود وجرى إدخاله في حائط البيت على مستوى مناسب لكي يمكن تقبيله . وعلى بعد عدّة خطوات ، كان الملاك قد فجّر عيناً عجيبة ، بئر زمزم ، التي يشفي ماؤها من كل الأمراض .

في هذا المكان ، نحو منتصف القرن الخامس ، أسست قبيلة قريش ، حامية البيت العتيق ، مدينة مكّة المقدّسة . وكان الحجازُ ، الذي بُنيت فيه مكّة ، يسلّم بوجود أُلوهة عظيمة ، يجري ذكرُها في المخاطر الكبرى ، هذه الألوهة المهيمنة المتعالية على الأوثان والجنّة والـ360 صنماً التي كان العرب قد جمعوها في حرم الكعبة ، كانت الله تعالى ، إله إسماعيل وابرهيم ، وبنوع من التوافق والتسوية بين هذا المعتقد التوحيدي الغامض وبين الشعائر الوثنية القديمة ، التي كانت تحتفل بآلهة العزّة واللّات ومناة ، صارت الكعبة هيكلاً للآلهة وبيتاً لله . وكانت قبيلة القرشيّين تتولى رفادة الكعبة وإدارة عائداتها في آن .

أما محمّد ، الذي وُلد في مكة يوم 30 نيسان / إبريل سنة 571 ، فكان ينتمي إلى عائلة بني هاشم ، من قبيلة قريش . فقدَ والدَه عبدالله قبل مولده ، وفقد والدته آمنة في السادسة من عمره . وخلّف له ذووه قطيعاً من الماعز و 5 جمال وبيتاً وأَمة ، اهتمّت به وربّته في كنف جدّه عبد المطّلب ، ثم في كنف عمّه أبي طالب . وعلى الرغم من ألوف الكتب الموضوعة في هذا الموضوع ، فإننا لا نملك أبداً شهادات أكيدة حول سنواته الأولى وحياته الرُّهاقيّة . كانت قبيلته تسمّيه الأمين ، والقرآن يسميّه محمّداً ، الذي يعني « المحمود جداً » . كان محمّد

جمّالاً وسائق قوافل ، تزوّج خديجة في الخامسة والعشرين من عمره ، وكانت هذه أرملةً ذكيَّة وثريَّة . لقد كانت رفيقته الأولى . لم يكن محمَّد كبيراً ولا صغيراً ، وكانت سحنتُه ورديَّةً ، وعيناه سوداوين ، وشعرُه جميلًا ، ولحيتُه كثيفة . وكان مثل معظم رجال قبيلته ، لا يجيد القراءة ولا الكتابة ، لكنَّه كان شديد الذكاء ، مفرط النشاط ، وكان يعبر عن آرائه بفصاحةٍ وطلاقة . اشتهر باستقامته وفكره العادل ، فكانت شخصيّته ذات سحر عظيم ، فذلك الذي سيغدو النبيّ ، كان مرهف الإحساس ، وكان في شبابه فتىً عصبيّاً ، شديد التأثّر ، عُرضةً لكل الأحزان بلا سبب ومهيئاً للتخيّلات وللحماسة الصوفيّة أيضاً . ولما بلغ سنّ الرشد ، عرف النبيُّ كيف يسيطر على ذاته ويصبح سيّد نفسه . كان محمَّد ، العقل التأمليّ ، المأخوذ بالقيم والمثل ، قد اهتم باكراً بالمسائل الدينيَّة ؛ فكان يحبّ التحاور مع المسيحيين واليهود والأحناف الذين كانوا يرفضون العبادات الوثنيّة والشعوذات الفاحشة . إنّ هذا الولع بدراسة المسائل الأزليّة الذي ألهب على الدوام العقول الحالمة ، تطوّر بشكلٍ كبير لدى هذا الرجل المُلهم .

على مشارف الأربعين ، قبل تلقيه الدُّعوة التي لا تُقاوم ، كان محمَّدٌ يلوذ بالصَّمت أكثر فأكثر ويستغرق في التأمّل . هكذا بدأ يتوحّد بنفسه ، كل عام ، وعلى امتداد شهر رمضان ، في غار جبل حراء ، بالقرب من مكّة ، لكي يكرّس نفسه هناك للصوم والتأمل ، وهناك ، ذات ليلة من ليالي سنة 610 ، أوحى له جبريل بأنه « رسولُ الله » . استقوى محمَّد بتلك الرسالة وراح في السنوات التالية يبشّر بها علناً ويعلن نفسه نبيّ الله ، إله العرب . كان اقتناعه مطلقاً ، وكان من واجبه أن يقود الشعب العربيّ إلى الدين القويم ويوصله إلى أخلاقيّة جديدة . ولما استأثر به تأثير قدسيّ ، صار يُرى في معظم الأحيان في حالات غيبوبة ووجد ، وينطق بعباراتٍ مسجَّعةٍ ومُعزّمة كالرُّقى ، سيستقبلها المؤمنون به لاحقاً بكل ورع ، وسينقلها القرآن بكل دقّة ووضوح .

إلا أنَّ النبيّ كان يعيش وسط أمّة تاجرة ، كان دخلها الأساسيّ يتكوّن من الصدقات المدفوعة في سياق زيارة الأوثان في الكعبة . وكان أولئك الذين يحتلون المكانة الأولى بفعل الثروة أو المرتبة ، قد سارعوا إلى اعتباره بمثابة منافس خطير ، من المستحسن البدء بمكافحته . لم يتجرؤا بأدىء الأمر على مهاجمته شخصيّاً ،

خوفاً من النزاعات الدامية ، لأنَّ أفراد عشيرته ، حتى المعادين لدعوته ، كان يتوجّب عليهم الدفاع عنه وفقاً للأعراف والتقاليد القديمة . لكنهم لم يتوانوا عن التنكيل باتباعه الأوائل الذين هاجروا ، بعد إرهاقهم ، إلى الحبشة ، البلد المسيحي .

ولكنّه ، على الرغم من الاضطهاد المتواصل والشديد ، وعلى الرغم من فقدانه زوجته ، سنده الأول والوفيّ ، التي توفيت سنة 619 ، وعلى الرغم من وفاة أبي طالب ، عمّه الذي كان حاميه أيضاً ، لم يكلّ ولم يتراجع ، بل مضى مبشّراً بالدين الجديد على امتداد البلد العربي . كان كلّ يوم يجلب معه مؤمنين جدداً ، مقتنعين أشدّ الاقتناع بكلام النبيّ البليغ . لكنَّ الوضع كان يزداد صعوبةً أكثر فأكثر . هاجر إلى الطائف ، وهي مدينة تهابُ ارستقراطية مكّة وتحرص على عدم إغضابها ، فطُرد منها بالحجارة . وعندما شعر بتعاظم الحقد وتحويمه حوله ، وعلم من جهة ثانية أنَّ أبا سفيان ، زعيم قريش الجديد ، كان قد قرَّر التخلص منه ، أدرك محمَّد أنه لم يبق أمامه سوى الهجرة إنْ كان يريد تجنّب الأسوأ .

عندئذٍ مضى إلى يثرب ، المدينة البالغ عدد سكانها 14000 نسمة ، على بعد 400 كيلومتر شمال مكّة ، التي كان قد سبقه إليها بعض أتباعه ؛ وبفضل الله كانت تلك المدينة تبدو مستعدة لفهمه واستقباله . إن هذا الحدث التاريخي المشهور باسم الهجرة ، سجل بداية العصر الإسلامي (16 تموز /يوليو 622) . أما يثرب حيث كان بمستطاع محمَّد أنْ يبشّر بكل حريَّة ، فقد صارت المدينة ، مدينة النبيّ .

غير أنَّ المصاعب كانت تتواصل .

ففي مواجهة واجب إطعام سكان المدينة ، المعرَّضة للفاقة والجوع ، أدرك محمَّد عندئذٍ ضرورة العمل ؛ وشن بلا تردّد هجوماً على قافلة كانت ماضيةً من الشام إلى مكّة ؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى مهاجمة القرشيين ، فأوقع بهم هزيمة دامية في وادي براد وعاد إلى المدينة مثقلاً بالمؤن والغنائم .

ذلك هو منطلق سلطته الزمنيّة . فعلى رأس 300 رجل ، تحرِّكهم الشجاعة والثقة بمقادير الدين الجديد ، كان الإسلامُ قد خاض معركته الأولى وربحها .

وبفعل نجاح استعراض القوّة هذا ، كان النبيّ قد أدرك الضرورة الملحّة لنشر الإسلام والدفاع عنه بقوّة السّلاح وبسلطان العقيدة في آنٍ . فمن الآن وصاعداً ، سيغدو الرسول رجلَ دولة ويجمع كل السلطات في صميم أمّة المؤمنين .

وبوحيٍ من هموم الوقائع البشرية ، كان الرسول قد أقدم عندئذٍ على طرد اليهود من المدينة ، بلا رحمة ، لأنهم كانوا يثيرونه ، وأعلن أنَّ الإسلام يُعتبر الدين الوحيد للدولة التي كان قد أسسها . وكان عنف رد الفعل مثقلاً بالعواقب . فقد تكوَّن من الخارج ، تحالف رهيب بين قبائل يهوديّة وعربيّة ، وانتظم ضده وحاصر المدينة (627) . فجمع النبيّ كل أتباعه وأمرهم بحفر خندق حول المدينة المحاصرة ، وأجبر خصومه المغتاظين على رفع الحصار ، ثم انتقل بشدّة إلى الهجوم وأحرز انتصاراً جديداً على اليهود من بني قُريظة الذين كانوا قد ساعدوا القرشيّين ؛ ومرّة أخرى كان حليماً ، فترك لهم حرية الاختيار بين الإسلام والقتل ، فوضع أولئك الذين قاوموه على حدّ السيف ، واسترقّ النساء والأولاد . لقد انتهت المرحلة العصيبة ؛ فبعد عدّة مواجهات انتصر فيها محمّد على أعدائه بلا مصاعب ، انتهت المنازعات والخصومات .

عندئذٍ عرف النبيّ كيف يفاوض بمهارة فائقة . زدْ على ذلك أنَّ أبناء جلدته السابقين لم يتجاسروا على مهاجمته عندما ذهب ، سنة 628 ، إلى مكة على رأس ألفي رجل مدجّجين بالسلاح . وبعد عامين ، حطّم الأوثان في الكعبة ؛ وأقسم له سكان المدينة يمين الولاء والطاعة ، بعدما انقادوا له بشكلٍ نهائي . وجاءت وفود من كل الجهات تبايعه كأمير- نبي ، صار من الآن فصاعداً سيّد الحرم المقدّس . وهكذا استسلمت لمحمّد ، سنة 631 ، الجزيرة العربية التي لم تكن قد خضعت من قبل لأي رجلٍ واحد . لقد هزم الإسلامُ الوثنيّة الشرقية ، وصار هو ذاته دين الدولة .

مات النبي عن 61 عاماً ، في 8 حزيران /يونيو 632 ، دون أنْ يحرّر بنفسه نصّ عقيدته . ففي بعض الأحيان ، عندما كان يشعر أنَّ ما كان يدعوه روح الله قد دخل فيه ، كان ينطق بكلماتٍ سرعان ما كان أتباعه النابهون يسجّلونها في رقع ورقية ، وألواح حجرية أو عظميّة ، وعلى سعف النخيل ؛ وغالباً ما كانوا

ينقشونها في ذاكرتهم . وفي معركة واحدة قضى ستمئة من أولئك الذين كانوا قد جمعوا الأحاديث ، بعد وفاة الرسول بعام ؛ لكن الباقين جمعوا نصوصهم وذكرياتهم .

كلّف زيد ، كاتب النبيّ ، بإعداد نسخة رسمية نهائية جرى إقرارها بعد مرور 19 عاماً على وفاة محمَّد . وتلك المدوّنة التي وضعها زيد وراجعها ثلاثة من المتبحّرين ، صارت القرآن ، أي الكتاب . وأُرسلت نسخ عنها إلى دمشق والكوفة والبصرة ، حيث جرى الحفاظ عليها بشدة . ولا يجوز أن يرقى الشّك حتى إلى الأجزاء المنقولة عن الذاكرة ، إذْ أنَّ هذا الرّكام الهائل كان حقاً من نص رجلٍ واحد .

يُقسم القرآن إلى سُورٍ أو فصول ، وهذه تُقسم بدورها إلى آيات . يتألف كثيرٍ من السور من مقاطع غير مكتملة . مما يجعل قراءتها صعبة . وإنّ أقدم الآيات ، الآيات المكّية ، قصيرة ، لاهبة ونبويّة ، شاعريّة وروحيّة ؛ فهي تتناول الوحدة الإلهية ، صفات الله والواجبات تجاهه . والقسم المنزَّل في المدينة في فترة النُصر ، هو بخلاف الأول ، طويل ، مفصَّل ، ويشير إلى أحداث وأمور عمليّة . موضوعاته هي علم الألوهة ، علم الفقه والقضاء ، المعرفة والطب . وتتسم بعض المقاطع بالطول وبالبلاغة المثيرة والصارمة ، فهي قادرة تماماً على إثارة الحماس والوجد . ومما يستحقّ التشديد هو أنّ القرآن في نظر المسلمين « غير مخلوق » ، فهو كلام الله ، الإمام المعصوم ، قلب الدين ، خلاصة كل علم ، مصدر كل سلطة ، أساس كل إدارة والقاعدة الوحيدة للحياة القضائية .

قبل القرآن ، لم يكن في العربية أي كتاب نثر ؛ إنه الأقدم وهناك إجماع على اعتباره أروع كتاب في الأدب العربي . فهو مكتوب بأسلوب بديع ، إذْ أنَّ القرآن أوحي لكي يُتلى ويُرتّل بصوتٍ مرتفع . ولا يمكن لأية ترجمة أن تحيط بدقائقه ولطائفه الموسومة بسمات الإحساس الشرقي المرهف . فلا بد من اكتناهه في نصّه الأصليّ ، لكي تُقوَّم قوّته وجماليّاته وشرف مبناه على حدٍ سواء . فنثرُه الإيقاعي والمدوزن يثير بحد ذاته فتنةً تخترق الأفكار ، وتسطع الصُوَرُ وتشعّ حرارة وإشراقاً . ولا يمكن لأحد أنْ ينكر أنَّ سلطانه البياني ورقيّه الروحاني يتضافران معاً ليؤكدا أنّ محمَّداً كان قد حظي فعلاً بالوحي ، بروعة الله وجلالته .

الفصل الخامس

الدين والفكر الإسلامي

السُّنّة

يكتملُ القرآنُ بالسُّنّة ، وهي سلسلة أحاديث تتعلّق بأعمال النبيّ وتدابيره . هنا نجد ما كان يفكّر به وجوهر مسلكه تجاه وقائع الحياة المتبدّلة . إنّ هذه الأحاديث التي تكوّن السُّنّة جرى نهلُها من ذكريات « الصحابة » أو نُقلت عنهم وأُخضعت لنقدٍ شديد . وعلى هذا النحو جرى جمع عدّة مجموعات من الأحاديث . وإحدى تلك المجموعات التي يُعتَدُّ بها ، **صحيح البُخاري** ، تذكر عشرة آلاف حديث من أصل 300 ألف حديث جرى جمعها . ولا تزال السُّنّة المتممّ الملازم للقرآن ويجري الاستناد إليها دائماً كلّما توجّب البتّ في منازعات غير معالجة في الكتاب . وكلما خلا القرآنُ أو السُّنّة من تقديم الجواب المنشود ، يُستند عندئذٍ إلى القياس أو إلى إجماع الأمّة .

المسلمون هم سنيّون في أكثريّتهم الساحقة . غير أنّ عدداً صغيراً منهم لا يقبل سوى « الأحاديث » التي يتناقلها آلُ النبيّ ، وهؤلاء هم الشيعيّون . ويمكنُ لتطبيق أحكام القرآن والسنّة أنْ يستوجب تأويلاتٍ دقيقة . وهذه التأويلات من صنع المذاهب أو الملل التي تضمّ في صفوفها متكلّمين وفقهاء مشهورين .

العقيدة

تنحصر العقيدةُ الإسلاميّة في ثلاثة مبادىء ثابتة : وجود إله واحد أحد ، فاطر الكون ، قادر ورحيم ، ـ رسالة محمّد والطابع الإلهي للقرآن ـ ، بعث الموتى والقيامة . فوحدانية الله ، عقيدة جوهرية وقدسيّة ، ينبغي على المسلم أنّ

يتشهّد بها في كلِ حالٍ وحتى الموت . وإن هذا التوحيد الخالي من الشوائب يتعارض مع الشرك ، ومع عقيدة الأقانيم الثلاثة أيضاً . كما أن العقيدة صارمة في ما يختصّ برسالة النبيّ ، رسول الله ، وبطابع القرآن غير المخلوق ، الذي أوحى الله كل كلمة من كلامه ولا يقبل الجدال أبداً . ويتضمّن بعث الموتى والقيامة (يوم الدين) القول حكماً بأن الأنفس خالدة وأنها ستكون سعيدة أو تعسة حسب أعمالها . هنا تتشابه العقيدة الإسلامية والعهد الجديد ، فهي تقوم على الخوف من العقاب والأمل في الثواب .

في الوقت الذي يتحدّث فيه الكتابُ عن الإيمان بالملائكة والشياطين ، يتحدَّث أيضاً ، ولكنْ بتشديد أقلّ ، عن الإيمان بالأنبياء ، الذين يذكر في عدادهم عيسى بن مريم . في الواقع ، إن الفكرة العامة للدين الإسلامي نجدها مختصرة في كلمة « إسلام » الي تعني « انقياد » ؛ وتعني كلمة « مسلم » « منقاد » ، وهاتان الكلمتان تميّزان العقيدة المتسمة بالانقياد للمشيئة الإلهيَّة والاعتقاد بالقدر المكتوب ، وهذه فضيلة تقدّم خدماتٍ جُلّى في المعارك ، لكنَّها تقود أيضاً إلى قدريّة استسلاميّة ، على الرغم من كونها قدراً معزيّاً ، « مكتوباً » .

العبادة

العبادة هي قبل كلِ شيء ممارسة ، وهي متحرّرة من التعقيدات اللاهوتيّة أو الصوفيَّة . فهي تفرضُ خمس واجبات دينية ، تُدعى : « أركان الإسلام الخمسة » . وهي التوحيد ، الصلاة ، الزكاة ، الصوم والحجّ .

يُختصر التوحيد في الإقرار بوحدانيّة الله وبرسالة النبي : « أشهد أنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله » . وهذا يُسمى الشهادة ؛ الشهادة التي تُنطق بالعربيَّة أمام شاهد ، والتي تكفي لإثبات الإنتساب إلى الإسلام . وهذه الصيغة يذكرها المسلمُ كلما استلزمت المناسبةُ ذلك ، فوق المهود وفوق الحتوف ، في مواجهة الغواية والمخاطر ، وفي أثناء الأذان أيضاً .

وتُرفع الصلاة خمس مرّات يوميّاً ، فهي عمل عباديّ يُمارس وفقاً لأحكامٍ محدَّدة . فبعد الوضوء ، أي بعد التطهر ، يتوجّه المؤمنُ نحو مكّة ويتلو بالعربيَّة

العبارات الشعائرية ، مهما تكن لغته الأصليَّة . أما صلاة الجمعة في الجامع ، الإلزامية لكل الراشدين البالغين من الذكور ، فهي « تجمّع » للمؤمنين الذين يخطبُ فيهم الإمام ويذكر إسم رئيس الدولة ويدعو له . وتشكّل هذه الصلاة المشتركة نظاماً انضباطيّاً ضرورياً للبدوي الذي لا يحترم شيئاً مثلما يحترم استقلاله . في ظل هذه الطاعة لشريعة النبيّ راحت القبائلُ تعي نوعاً من التكافل المجهول قبل الإسلام والذي كان يُفترض به أن يشكّل قوّتها . ومثال ذلك أن القائد الفارسيّ حين رأى العرب من بعيدٍ يركعون معاً في وقت الصلاة ، قبل معركة القادسيّة التي شهدت انكسار جيشه ، قال لمحيطه :

« هوذا عُمَر يعلّم الانضباط والنظام » .

كانت الزّكاةُ بادىء الأمر صَدَقة حرة وطوعيَّة تُعَدُّ من الخصال الكبرى . وكان النبيُّ وهو ينظّم جماعة المدينة يعتبر عمل الصَّدقة هذا ضريبةً شرعيَّةً وإلزاميةً مقدارها عُشْرُ المداخيل وتوزّع على الفقراء والمحتاجين . وفيما بعد ستتحول المؤسسة وتؤدي إلى قيام جهاز موّظفين وبيت مال وانتهاج سياسة ضريبية منحرفة عن غايتها . ولكن إن كانت الدولة قد جعلت عمل الصدقة هذا مصدراً للعائدات ، فإن مبدأ الزّكاة سيظل ، بفضل القرآن ، فضيلةً يمارسها المسلمون فطرياً كواجب دينيّ ، ولا بد من الثناء على محمّد لأنّه كان أول من أسس ضريبة شرعيَّة تُؤخذ من الأغنياء لصالح الفقراء .

هكذا أقام القرآن الحسنة الإلزامية ، الواجبة .

الصَّوم

الصوم احتفاء بـ« شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ، هدىً للناس وبيّنات من الهدى والفرقان » (القرآن 185/2) . فعلى امتداد شهر رمضان ، من الشفق إلى الغسق ، يتوجّب على المؤمن الامتناع عن تناول أي مأكلٍ ومشرب . يمكن اعتبار إماتة الجسد القاسية هذه فعل رحمة وإسترحام ، نوعاً من التكفير عن الأخطاء ، وبالتالي فعلاً تشفعيّاً يتقرّبُ به الصائم من ربّه ، ولكنّه يرمي أيضاً إلى توطيد الضبط الإجتماعيّ وجعل المؤمنين يشعرون بتماسكهم وتكافلهم . وغالباً ما كان الجمهور الإسلامي يستعمل العنف بحق أولئك الذين لا يحترمون هذه

العادة .

فضلاً عن الصلاة والصوم والزكاة ، أنشأ محمَّد الحج إلى مكة وقرّره كواجب ديني . فالحج مرَّة واحدة في العمر ، لمن استطاع إليه سبيلاً ، مادياً ، جسدياً ومالياً . ومن الثابت أنّ الحج من التقاليد الساميَّة العريقة جداً . ذلك أن البيت العتيق والحجر الأسود كانا يؤثران تأثيراً كبيراً في البدو ، فجاء تأسيسُ الحج ليخلد ذكرى الماضي . وعليه ، سوف يتجلى الأثر المتعاظم دائماً وأبداً لهذه التجمعات البشرية الهائلة ، حيث يأتي جمهور مؤمن من كل أنحاء العالم ليتآخى في الإيمان الواحد .

الجهاد

« لا أكراه في الدين قد تبينّ الرشدُ من الغيِّ » (القرآن ، 256/2) ، هكذا كان يقول محمَّد في بداية دعوته . ففي تلك المرحلة كان النبي لا يزالُ يُسلِّم بخلاص اليهود والمسيحيين الذين يؤمنون بالله ، ولم يكن يهاجم إلاّ الوثنيينّ . لكنَّ طريقة النظر تلك ، السلميّة تماماً ، الشديدة التسامح ، لم تجتذب سوى القليل من المؤيدين ولم تُعمِّر طويلاً . فالواقع أن الاضطهاد تعينّ عليه أن يملأ نفس محمَّد بالمرارة ؛ وهذا ما كان يفسّر العنف الذي سيلعن به الكافرين : « ألا لعنة الله على الظالمين » (18/11) . وهكذا شيئاً فشيئاً ، وبحكم الضرورة ، ستغدو عقيدةُ التسامح والمحبَّة هذه ، أخلاقيَّةً جهادية : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله . . . » (القرآن 19/9) .

فسّر كثيرٌ من المؤمنين هذه الكلمات كأنَّها دعوة إلى الحرب والنَّهب . ولكنَّ النبيَّ شدَّد على التوضيح بأن « الله لا يحب المعتدين » .

إلاّ أن الخليفة ، حامي الدين والمدافع عنه ، سيجد نفسه لاحقاً ، ملزماً دائماً وأبداً بتوسيع حدود الإسلام . فالشريعة والسنّة يجعلان ذلك من أولى واجباته . وأدى هذا الفهم الديناميكي للإيمان ، إلى جعل الجهاد الركن السادس للإسلام .

الأركان الدينيّة

بما أن الدين الإسلامي يخلو من الكهنوتية والكهنوتيين ، فإن الصلاة لا تستوجب وسيطاً بين الله والمؤمنين ، وكان بمستطاع الإسلام الاستغناء عن المباني الدينية والرهبان . ولكنّه مع ذلك أقام المباني الدينية وأقرَّ أصحاب الدين . فقلب الإسلام ينبض في الجامع . ففي حرمه المغطّى بسجاجيد رائعة ، وأحياناً بحُصُرٍ مستعملة ، وداخل فسحة معتمة يخترقها نور المصابيح الزجاجية الملوّنة ، بصعوبة ، يتموّج حضورُ الله بكل جلال . هنا كل الأشياء بسيطة . فهي تكاد تضمُّ تغريزاً بسيطاً مزداناً بفسيفساء مميَّزة تدلُّ على المحراب ، وهو الباب الصوفي الموجَّه نحو مكة ، وتضمُّ منبراً خشبياً متواضعاً ، ينتظر الإمامَ وكلامه القدسيّ . ولكنها جميلة كلها ، فهي رحمة وشعر ؛ وجذوع العواميد رشيقة ولطيفة ، تتعالى نحو سماء المنارات بينما هيكل الله يستحم في مياه نبع الوضوء ، المُقام وسط حديقة غنّاء .

هكذا تبدو الجوامع كلها ، مجرَّدة من صلف العظمة التي تتصف بها الكاتدرائيات الغوطيَّة ، ومن روعتها الساحقة .

وعلى الرغم من خلو الإسلام من المراتب ، فهو يتمثل في أعلى قمّته بأبناء النبي (الأشراف) . وهؤلاء هم أمراء ، مقدّسون بالوراثة كما يُقال ، ويتمتعون بنفوذ سياسي وديني كبير . ويأتي بعدهم العلماءُ ، علماء الشريعة ، الذين يدرّسون في الجامعات ؛ فالمفتي الذي يتولى أمور الشرع القرآني ، والقاضي الذي يُعالج الأمور المدنية والدينية ، ثم الإمام ، إمام الصلاة وواعظ الجامع ، وأخيراً المشايخ الذين يقومون بتدبير شؤون الأخويَّات (الحلقات) الدينية .

وحسب القرآن ، أعظم أعياد السنة هو العيد الكبير ، عيد الاحتفاء بتضحية ابراهيم ، والد كل العرب ؛ وهذا العيد يستمر أربعة أيام تقدَّم فيها الأضاحي وتُقام الصلوات ويُستمتع فيها بمسرّات الحياة . أما العيد الصغير فهو ختام رمضان ويدوم أربعة أيام أيضاً ، ويُخصص أول يوم جمعة بعد هذا الاحتفال ، للصلاة على روح الأموات . وأخيراً المولد وهو عيد الاحتفاء بولادة النبي ، وعاشوراء عيد وصوله إلى المدينة .

لقد تمكّن محمّد بقوة المثال الديني بوجهٍ خاص ، من تحقيقه مقاصده الكبرى . فقد كانت القبائل العربية تعيش منطويةً على ذاتها ، مستقلة عن بعضها ومتخاصمة ، وثنيّةً وشعبذيّةً . فجاء الدين القرآني ليرصّ صفوفهم ويوطّد قواهم الكامنة ، فركّز على خيال إنسان الصحراء ومخاوفه وآماله ، وعلّمه من خلال تعاليم ثابتة الانضباط الفردي والجماعي الذي كان ينقصه . والواقع أن الدين كوّن من شتات محاربين أشدّاء ومتزمتين ، جنينَ شعب متماسك ومنضبط سيثبت أنه شعبٌ لا يُغلب .

وعليه ، فقد أمّن محمّد على مدى أجيال وأجيال تفوّق الشعب العربي حين أمدّه بدين فائق ببساطته ووضوحه ، وزوّده بتوحيد صارم في مواجهة التردّد الدائم في الضمائر . وإذا أخذنا في الاعتبار أن هذا المشروع الضخم قد جرى تصوّره وإنجازه في أقصر فترة من فترات أي وجود بشري ، فعندها لا بد لنا من الاعتراف بأنَّ النبيّ يُعَدُّ في عداد أعظم الرجال الذين يمثّلون تاريخ الشعوب والأديان .

الفصل السادس

توسع الاسلام

الخلافة.

لمّا توفي محمّد لم يكن قد عينّ خلفاً له ، فمن جرى اختياره من بعده ؟ لقد وقع ما يحدث غالباً ، عندما يكون القرار متعلقاً بالحكم الشعبي ، فتكوّنت عدّة أحزاب ، عارضت بعضها بعنف .

فقد طالب بتعيين الخليفة حزبُ الصحابة المكوّن من مهاجري قبيلة النبيّ ، مؤيّديه الأوائل ، ومن أنصاره في المدينة الذين كانوا آووه بينهم . وعارض الشرعيّون القائلون بمبدأ الحق الإلهي والمعاداة للمبدإ الإنتخابي ، وأيّدوا في المقابل عليّاً ، ابن عم النبيّ ، وأحد المؤمنين الأوائل بالإسلام ، وزوج ابنته فاطمة . وكانت تطمع في الخلافة أيضاً ، الأرستقراطيّة القرشيّة ، عائلة الأمويين التي كانت آخر أُسرة اعترفت بالإسلام ، ولكنّها كانت تتقلّد السلطةَ قبله .

ليس هناك مسألة سياسيّة أراقت دماء المسلمين مثل مسألة الاستخلاف هذه ، الأولى التي طُرحت على الإسلام ، والتي لا تزال بلا حل حقوقي . عمليّاً ادّعى عددٌ من القبائل والسلالات الحق في السلطة ولقب الخلافة ؛ ومنذ إلغاء الخلافة العثمانية من جانب تركيا الكماليّة سنة 1924 ، انعقدت عدّة مؤتمرات إسلاميّة شاملة في القاهرة أو في مكّة ، لكنها لم تتمكّن من تعيين الخليفة الشرعي للنبيّ .

في مدى القرن الهجري الأول ، كانت مقاليد السلطة في أيدي بدو الجزيرة العربيّة ، وكان خلفاء الحقبة الراشدية ، الممتدة من الهجرة حتى العام 661 ، من

صحابة النبيّ : أبو بكر ، عُمَر ، عثمان وعليّ . ولقد تمكّن عُمرَ (634-644) من الحفاظ على الألق الحربيّ للقبائل وضمن استمرار الإسلام وصعوده ، وفي سنة 661 بدأت السلالة الأمويّة ، الأرستقراطيّة التقليديّة لرؤساء القبائل ، ودامت في الحكم حتى العام 750 .

كانت تلك حقبة الفتوحات .

فتوحات عسكريّة وسياسيّة

تقوم انتصاراتُ العرب الباهرة على أمور متنوّعة ، يكمن أهمُّها في الرّوح الأخلاقيّة الرفيعة التي كانوا يستمدّونها من الدين الجديد ؛ فقد كان الإسلامُ قد علّمهم الشجاعة وازدراء الموت اللذين جعلاهم أشدّاء لا يُقهرون . إلى هذه الفضائل الأخلاقيّة ، ينبغي أنْ تُضاف تقنيّة حربيّة كانت تحترم تشكيل وحدة القبيلة وتتكيّف تكيُّفاً رائعاً مع اتساع السهوب : سرعة حركة الخيّالة ، خفّة الأسلحة المكوّنة من الحربة والقوس ، وتجهيزهم المحصور في الحَيْك والعِمّة . ريّان الحيكُ الصوفي الذي يُلبس نهاراً ويُلتحف به ليلاً ، والعِمّة ذات الأهداب أو الجدائل ، التي تحمي الرأس من الشمس ومن ضربات السيف على حدٍ سواء ، يوّفران أماناً كافياً لأولئك المحاربين الصحراويين الأشدّاء الذين كانوا ينتظرون من المعاركِ وعودَ الحياةِ الأخرى والحصولَ الفوري على نصيبٍ كبير من الغنائم في وقتٍ واحد .

ليست القيمة الحربيّة للعرب هي التفسير الوحيد لفتوحاتهم المذهلة . فقد ساعد على تحقيقها ضعفُ أخصامهم في الامبراطورية الساسانيّة والامبراطورية البيزنطية المتحاربتين ، فهاتان الامبراطوريّتان الغازيتان للشرق الأدنى لم تحقّقا هيمنة عميقة على البلاد : فقد بقي كل شيء شرقيّاً ، من النظام الاقتصادي إلى العادات والتقاليد ؛ وكان الفتح العربيّ يحظى بتأييد ضمنيّ من جانب السكّان الذين كانوا يكرهون الإغريق والفرس ، واستبدادهم اللاهوتي والسياسيّ ونظامهم الضريبيّ الساحق . وأخيراً ، لم يعد في مقدور السكان المحليّين / الأصليّين تحمّل الاستبداد المتعجرف لأسياد لم يعودوا متفوّقين حقاً ، تلك كانت الأسبابُ التي جعلت الشُعوب المتاخمة تستقبل هؤلاء الجيران الأقدمين كأقرباء

مقرّبين قدموا لتحريرهم من نيرٍ كريهٍ لقمعيّين غرباء ؛ وقد ذهبت بعض القبائل العربية الشاميَّة إلى حد مناشدتهم ودعوتهم لمساعدتها . كان كل شيء يسهم في فتح الطريق أمام الشعب العربي ، الذي لم يظهر أي اندهاش من اكتشاف لغته وعرقه الخاص متجذّرين في تلك الديار . أما الجيش البيزنطي ، المنهوك القوى من جرّاء الحروب المتواصلة والانقسامات الداخلية على أرض الشام ، فقد كان إلى جانب ذلك عاجزاً عن المقاومة ، ومن جهتها كانت الامبراطورية الفارسيَّة في حالة تفكك كامل .

بدأ الفتح العربي في بلاد الشام . ففي سنة 636 انتصر خالد ، سيفُ الله ، على قوى متفوّقة في وادي اليرموك ، واستولى بسرعة على المدن السورية ولم يتوقّف إلا في طوروس . أثار هذا الانتصار الباهر والسريع على بيزنطة حماسة العرب وكبرياءهم . وكانت القبائلُ العربية قد استخدمت سورية كنقطة انطلاق ، فاستولت لاحقاً على أرمينيا وواصلت هجومها حتى القوقاز . وفي العام التالي ، أبادَ سعد جيشاً فارسيّاً كبيراً في القادسيَّة واستولى على العراق .

ثم بعد ذلك بقليل ، كان العربُ يدخلون مظفَّرين إلى المدائن ، العاصمة المعادية . أما مصر ، القريبة في آنٍ من الشام والحجاز ، وقاعدة الأسطول البيزنطي ، فقد كانت تشكّل في الغرب خطراً دائماً ؛ فاستولى عمر ، سنة 639 ، على عاصمتها الاسكندرية واندفع بهجومه حتى طرابلس الغرب . وفي أقل من عشر سنوات ، كان العربُ قد قوّضوا الامبراطوريَّة الفارسيَّة وزعزعوا امبراطورية بيزنطة ، وهما أعظم قوّتين آنذاك .

لكنَّ تقلّبات سياستهم الداخلية كانت تحدّ من ألقهم . وكانت فتنة قد وُلدت ، فقد راح يتجابه بعنف السنّيون المتمسّكون بالمأثور (السنّة) والشيعيّون أتباع عليّ والخوارج ذوو الميل الديمقراطي . فمن أصل أربعة خلفاء ، مات ثلاثةٌ قتلاً ؛ وتعرَّضت مكة والمدينة للتخريب وأُحرقت الكعبة . مرَّة أخرى ، كان لا بد من اللجوء إلى القوَّة . أما الداهية معاوية (610 -680) ، والي الشام ، ابن أبي سفيان وحفيد أُميَّة ، ابن عم عبد المطلّب ، جد محمَّد ، فقد استولى على السلطة وحسم نهائياً مسألة الخلافة .

من الآن فصاعداً ، صارت السلطة محصورة في سلالة الأمويّين .

وكانت قد بدأت مرحلة ثانية من الفتوحات . ففي خلال السنوات التي قضاها معاوية بصفته والياً للشام ، كان قد ابتنى اسطولاً مهمّاً من أخشاب أرز لبنان . وحين شُغّل هذا الأسطول استولى على قبرص وكريت ورودس ، وأحرز سنة 635 أول انتصار بحري كبير للإسلام على القوى البيزنطية في ساحل لوسيا . وفي سنة 716 ، كان الأسطول العربي يحاول الاستيلاء على القسطنطينية ، مستنداً إلى انتصاراته السابقة ؛ ولكن جرى الإقلاع عن ذلك المشروع بعد عام من الجهود غير المثمرة . وكان المدُّ الإسلاميّ قد انكسر في الشمال ، فراح يواصل إحراز انتصاراتٍ باهرة على الخطوط الشرقية والغربية الأقل تحصيناً ومقاومةً .

في الشرق ، كان العربُ قد شنّوا هجوماً صاعقاً ، وأحرزوا مواطىء لأقدامهم في أودية السند والهند ، وواصلوا اندفاعهم نحو آسيا الوسطى . وفي الشمال ، استولوا على تركستان ومدن بخارى وطشقند وسمرقند ، وبلغوا حدود مونغوليا . وفي الجنوب ، بعد عبور الهند والسّند ، احتلوا دلتا نهر الهندوس واستولوا على مولتان جنوب البنجاب ، في بلاد البوذيّين . وفي سنة 712 ، كانت الحركة الإسلامية قد استوطنت ولايات الهند الحدودية .

في الغرب ، كانت الاندفاعة أكثر ظفراً . ففي العام 700 تمكّن العربُ من طرد البيزنطيّين من الأراضي التي كانت لا تزال في حوزتهم في أفريقيا ، فاستولوا على قرطاجة ، وبعد إلحاق الهزيمة بالبربر ، واصلوا زحفهم حتى الأطلسي ، وحين دفع عُقبة بن نافع حصانه إلى قلب الأمواج ، وهو يقود الجحافل العربية ، أشهدَ اللهَ على أنه لم يعد قادراً على المضي إلى الأمام .

سنة 708 جرى فتح إفريقيا الشمالية بأسرها . وراح الفتحُ الإسلاميّ يمحو الآثار السطحية لهيمنة رومانية عجزت عن ضرب جذورها في العمق ، لا في داخل البلاد ولا في السفوح العالية التي كان يقطنها البربر ، الرحل أو شبه الرحّل . كان الإسلام يتكيّف تكيّفاً رائعاً مع هؤلاء السكان الذين تقتربُ عاداتهم كثيراً من عادات القبائل البدويّة . فوجد العرب في البربر مساعدين من الطراز الأول في مرحلة فتح إسبانيا . في ذلك العصر ، كانت إسبانيا محكومة

استبدادياً من طرف بعض الأمراء الفيزيغوت، الذين كان السكانُ الإسبانيّون ـ الرومان ينظرون إليهم بكرهٍ شديد . لا شك أنَّ العرب لم يظهروا بمظهر المحرّرين كما كان حالهم في الشرق ، لكنَّهم عرفوا كيف يفيدون من الانقسامات بشكلٍ رائع . سنة 711 ، دفع موسى [بن نُصير] إلى أوروبا ، 12000 بربري بقيادة طارق [بن زياد] ، نزلوا بالقرب من صخرة ضخمة ، أطلق عليها إسم القائد البربري ، جبل طارق . تقدَّم لملاقاتهم رودريك ملك الغوطيين . ودار الصدام عند بحيرة جندا الشاطئية ، بالقرب من إكزريس ، وانهزم رودريك في سغويولا (711) ، بعدما تخلّى عنه رجاله . استغلّ طارق انتصاره ، وسار إلى طليطلة ، عاصمة المملكة ، واستولى في طريقه إليها ، على أركيدونا وغرناطة . جرى الاستيلاء على قرطبة عن طريق المفاجأة . وانتصر أيضاً في أكيجه . فقام اليهود بتسليم طليطلة . وهكذا ، تلك الحملة التي لم تكن أكثر من غزوة ، انتهت بفتح المملكة في خلال عدَّة أشهر .

سنة 712 ، سار موسى نفسه ، على رأس 10000 عربي ، وهاجم المواقع المحصَّنة في مريدة وإشبيليا التي كان قائده ، طارق ، قد تحاشاها بحق . انتظمت المقاومة ، ودافعت مريدة وإشبيليا عن نفسيهما بضراوة في خلال عام ونيِّف . وتلاقى موسى وطارق في طليطلة ، فأمر بجلده لأنه لم ينفّذ تعليماته ، ولكنَّه تابع الفتح رغم ذلك ؛ فبلغ سراغوسة واندفع حتى جبال البيرينه . سنة 713 ، لم يبق للمسيحيّين الإسبان إلّا الجبال الشمالية ـ الغربيَّة . وفي تكرار عادل لمجرى الأمور ، استدعي إلى دمشق ، موسى الذي كان هو أيضاً قد تجاوز أوامر الخليفة . فدخلها بأبهة عظيمة في موكب « من 400 أمير فيزيغوتي يعتمرون تيجاناً ويضعون أحزمة ذهبيَّة ، فضلاً عن جحافل كبيرة من العبيد والأسرى المحمّلين بغنائم ثمينة » . ومع ذلك عُوقب ، وقضى فاتح افريقيا واسبانيا بقية أيامه متسوّلاً ، مثلما حلّ ببليزير Bélisaire .

غير أنَّ ذلك لم يخفّف من حماس خلفاء موسى وشجاعتهم . إذ كانت روح المغامرة وحب النهب والسلب أقوى من الحكمة والتعقّل . فتجاوز الحرّ جبال البيرينه سنة 718 .

بعد عامين ، على الطريق المؤدية إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، استولى السّمْح

على سپتيمانيا ونهب ناربون التي أحالها قلعةً ذات أهميّة استراتيجية رفيعة . لكنه هُزم سنة 721 ، في حملته على تولوز حيث صدّه إيود ، دوق أكيتانيا . سنة 732 ، استولى الأمير عبد الرحمن على بوردو وسار إلى تور . وهناك ، بالقرب من پواتييه ، عند ملتقى لاڤيينا وكلان ، تلاقى الأمير وإفرنج شارل مارتل . وبعد استكشاف دام عدَّة أيام ، بادر الأمير إلى الهجوم . ويروي المؤرّخ أنّ قوّات الخيّالة الإسلامية انقضّت كإعصارٍ على خط الإفرنج ، الذي بقي « كسدٍ جليدي . . . وعاود المسلمون الهجوم 20 مرة . . . فلم ينحنِ الجدارُ الحديديّ قطّ » . انتهت المعركة ليلاً . ومع فجر اليوم التالي ، كان العرب قد رحلوا تاركين خيامهم وأغراضهم .

قيل عن يومِ پواتييه إنه كان واحداً من المعارك الحاسمة في التاريخ . ويرى معظم المؤرّخين أنّه ربما أنقذ البلاد المسيحيّة وقرّر مستقبل أوروبا .

الواقع أنّ المدَّ الإسلامي ، البعيد جداً من قواعد انطلاقه ، كان قد بلغ « نقطة توّقفه الطبيعي . . . فقد كان يمتدّ على الرّمال ، إذا جاز التعبير » . من المؤكّد أنّ قوّة القبائل كانت قد بلغت منتهى مضمارها ؛ ولكنْ هناك أسبابٌ أخرى حتى لا تعاود القبائل هجومها على الإفرنج : الحرب الأهلية في اسپانيا ، المشاحنات العرقية بين العرب والبربر ، اختلاف المشاعر والصراعات الداخليّة بين العرب أنفسهم ، فهذه الأمور كلّها كانت قد ضربت تماسك الجيش وقوّته .

ويمكن التساؤل دائماً عمّا كان سيحدث لو لم يجرِ وقفُ المسلمين عند « سور پواتييه الجليدي » ؟ كان قادتهم قد أظهروا كثيراً من الحيويّة والنشاط في قراراتهم ، وكثيراً من المبادرة والجسارة في المعارك ، وكثيراً من المهارة الذكيّة في المفاوضات والمناورات ، حسبما تسمح بذلك الفرضيّاتُ المغامرة جداً . كان موسى وطارق في اسپانيا ، عَمْرٌ في مصر ، سعد في فارس ، معاوية في الشام ، وخالد ذاته كان مستعداً لتلقي أوامر ولدٍ إذا كان الخليفةُ يريد ذلك ، وكان كل القادة العرب قد تجاوزوا الأهداف التي كانت محدَّدة لهم ، وكانوا قد أظهروا أنهم أساتذة في فنّ استثمار الانتصارات . إنَّ حُلم عبور أوروبا والاستيلاء على بيزنطة من الجهة الثانية والقيام بوصل خليفة دمشق بالأندلس من طريق أوروبا ، كان بلا شك يراود مخيلة أولئك الذين لم تكن معلوماتهم الجغرافيّة معادلةً لعبقريّتهم في

المغامرات الحربيّة .

ومع ذلك ، كانت حملاتهم تبدأ عموماً كهجمات ظلّ هدفُها النّهب أكثر من فتح الأراضي والاستيلاء عليها . فلم يكن هناك أي تخطيط مُسبق ، ومُصمَّم بنُضج ودقّة . والواقع أن تلك الهجمات الصاعقة والبعيدة تدلّ على طابع الآلة العملاقة التي تغدو بعد إطلاقها ، غير خاضعة لرقابة أولئك الذين أطلقوها .

فتوحاتٌ لغويّة

كانت أُمنية الاسكندر الكُبرى تحقيق الإنصهار بين اليونان والشرقيّين ، على قدم المساواة : ولهذه الغاية كان قد أغرق آسيا الوسطى بمستوطنين إغريق ، وأقام 70 حاضرة ، أي « أكثر مما قوّض من المدن كل غزاة الشرق الآخرين »[1] . فقد استوعب نظامُه المغلوبين واجتذبهم إليه ، محقّقاً إزدهاراً عظيماً ، إلّا أن خلفاءه فشلوا في سياسة جمع الشعوب وإعادة بناء الأمبراطوريّة ، فلم يتمّ حدوثُ الانصهار ، على الرّغم من كون النّجاح قد كلّل المشروع الاقتصادي والاجتماعيّ .

ففي ظلّ الإرادة الرومانيّة ، المحض خارجيّة ، كان المجتمع والثقافة الهلينيّة قد استمّرا وظلّت اليونانية هي اللغة الرسمية طيلة ألف عام ونيّف . ومنذ مجيء العرب ، تعينّ على كل شيء أن ينهار بضربةٍ واحدةٍ ، بدءاً من انهيار اللغة والفكر اليونانيّين . لا شكّ أن الهلينيّة كانت قد غَزَت المدن والبلاطات ؛ لكنّها لم تتمكّن من النفاذ العميق إلى قلب سكّان الأرياف . ومثال ذلك أنّ الإدارة والحقوق والتجارة الهلينيّة في المدن ، كانت ، عادةً ، تقليديّة ومختلفة في عمق الأمصار ؛ وعلى الرغم من احتلالها الطويل ، لم تتمكّن الهلينيّة عموماً من الحلول محل الحضارات الشرقيّة القديمة . أما الإسلام الذي كان أقرب إليها ، فقد وجد لديها قبولاً وانفتاحاً .

والواقع أنّه منذ بدء الفتح ، قام العرب بممارسة تأثير عميق وسريع في البلدان التي كان الساميّون قد تركوا فيها آثار لغتهم وعاداتهم . ففي الهلال

---

(1) ڤولتير .

الخصيب ، في فلسطين والشام وكِلدة ، ظلّت العربية وقريبتها المقرَّبة ، الآراميَّة ، من اللغات الجذريّة في أمصارٍ واسعة . كذلك ، عندما توّغل العربُ في فينيقيا ، لم يواجهوا أية صعوبة في إفهام السكان والتفاهم معهم ، على الرغم من أنهم كانوا قد نزحوا عن الجزيرة العربية قبل ذلك بأكثر من 3000 سنة .

في شمال افريقيا ، ساعدت القراباتُ اللغوية على تسهيل استيطانهم أيضاً . فاللهجات العاميّة البربرية كانت قريبةً من اللغات الساميَّة بفضل تأثير قرطاجة في افريقيا الشمالية وطبعها بطابعها طيلة ألف عام ؛ وكانت اللهجات العاميّة البونيَّة قد حافظت على وجودها في الأرياف حتى بلاد القاندالييّن . فالأندلس ، وهي قاعدة بونيَّة ، كانت تتكلم اللغة ذاتها على الرغم من عدّة قرونٍ من الرُّوْمَنَة . في الواقع ، كان الفتح العربيّ قد توقَّف عند الحدّ الأقصى للذكريات اللغويَّة ، عند الخط الفاصل بين التأطير القرطاجيّ وبين الغرب ، فكان عملياً ينضافُ إلى تركيبة المجال الشرقي القديم .

يُظهر التاريخُ أنَّ الشّعوبَ المغزوة تتبنّى نظاماً سياسياً جديداً بسهولةٍ أكثر مما تبدّل لغتها ولسانها . ولقد برهن على ذلك مرَّة أخرى فشلُ اليونان والرومان في المشرق . فماذا يمكن أن تكون ، بعد الآن ، لغة الشعوب الخاضعة للإسلام ؟ لا يمكنها إلّا أنْ تكون اللغة العربية ، المميَّزة بكونها لغة الفاتح لا الغالب ، وفوق ذلك ، لم يكن هناك أيُّ لسانٍ آخر قادر على إحداث أثرٍ أعظم في النفوس ، فقد كان العامل الديني يعمل معها ولصالحها ، طالما أنّ اللغةَ والدين يساندان بعضهما كثيراً ، الأمر الذي جعل الشعوب الداخلة في الإسلام تنفتح له وتنضمّ إليه جسداً وروحاً .

فالقرآن ، كعقيدة دينية ، كان فوق ذلك خلاصة المعارف كلها . وكان يُسمّى « الكتاب » في البلاد الإسلامية ، وكانتا كلمتا قرأ وكتب تعنيان قرأ القرآن وكتبه . ولزمنٍ طويل ظلَّ القرآنُ كتابَ القراءة الأول ، إلى أن شكَّل وحدَه خلاصةَ العلمِ والتربية . وهو في أيامنا هذه ، النَّص المأثور الذي ترتكز عليه قاعدةُ التعليم في الجامعات الإسلامية ، ولن تستطيع الترجماتُ الإحاطةَ بغناها ، « إذ أنَّ جمال اللغة العربية يذبل في الترجمات ، مثلما تذبل زهرة مقطوعة عن

جذورها » . وبالتالي ، لا بد من قراءة القرآن في نصّه الأصليّ .

والحال ، لا بد من البدء مع المسلمين الجدد بتدريسهم اللغة العربية بشكلٍ منطقي وعقلاني . ومن هذه الحاجة ولد أول كتاب مفصّل في القواعد ، وسرعان ما تبينَ أنّه ضروري أيضاً لكل أولئك الذين كانوا يتولّون وظائف عامّة . فالعربيّة ، لغة الإدارات والمحاكمات والدبلوماسية ، سرعان ما صارت أيضاً لغة العلاقات الاجتماعيّة والتجارة والأدب .

كان لمعظم الشعوب المعتنقة الإسلام ، ثقافة فكرية أرفع من ثقافة العرب . فالبدويّ ، الخيّالُ ورجل المجالات الحرّة ، لم يكن رجل آداب . ولئن كان يتميّز بغريزة لغته ، فإن كل علمه كان يُختصر في بضع آياتٍ من « الكتاب » . غير أن الكتابة العربيّة ، بلا صوائت ، والمحصورة في صوامت أساسية ، كانت تُستخدم كركنٍ للذاكرة ، وتستوجب قواعد دقيقة وموحّدة المبنى ، وتستلزم بالتالي نظاماً قواعدياً لا يمكنُ درسه إلاّ في المدرسة . إلاّ أن البدويّ الأرستقراطيّ لن يذهب إلى المدرسة ولم يكن من شأنه أنْ يصنع منظومات ؛ فهو فخور بعرقه ، وكان يكفيه أن يكون على رأس الهَرَم الاجتماعي ، وأن يحصل على دَخْلٍ كبير . وبالتالي سيقع على كاهل الشعوب الإسلامية الجديدة بناءُ العربيّة الحَرْفيّة . وراح يعمل علماءُ هذه الشعوب وأعلامُها المتبحّرون ، المُغتنون من قبل بماضيهم الحضاري ، والمستندون بقوّة إلى مرجعيّة القرآن الأساسيّة ، والمعتادون منذ زمنٍ بعيد على عادة الجدل البيزنطي . وكان من المهم ضبط القوّة التي تمثّلها اللغة العربية ، لغة الرجولة والعُصاب ، وأنْ يُضفى عليها طابع الوضوح والنظام والمنهج والدّقة ، وأنْ يُطهّر مصطلحها من الشوائب ، وأنْ تُناط بقواعد ومنطق ونحو . عندئذٍ انكبّت نخبة فكريّة حقيقيّة على هذا العمل الكبير . وقامت هذه النخبة المسكونة بحس اللغة وروحها الحيّ ، باستقبال وجمع نصوص كانت ضاعت لولا ذلك ، وأُلّفت معاجم وأنشأت موسوعة ، ولا ريب في أنّ إسهام هؤلاء العلماء المميّزين كان إسهاماً جليلاً في وضع هذه الفيلولوجيا ، المتّسمة فوق ذلك بسمة السرعة والانتشار اللذين كانا سمة العرب أنفسهم بالذّات .

فمن تلك اللهجة العاميّة ، التي كان الشعراء البدو يستخدمونها في الماضي لحضّ أصحابهم على العمل ومساندتهم في المعركة ، وُلدت أخيراً أكملُ لغةٍ في العالم ، والأكثر قدرة من اللغات المحلية على تلبية كل الضرورات والمتطلّبات . كما أنّها ظلّت بلا منازع بين جميع لغات البلدان المفتوحة . وسرعان ما تبيّن أنّ غناها ودقّتها كانا يسمحان لها بالتعبير عن كل دقائق الفكر ولطائفه ، وعن كل آداب الفكر المدرسيّ . فمن الآن وصاعداً ، صارت هذه اللغة الشعريّة ، التي كانت قد فتنت البدو المتوحشين ، لغة البلاطات والمجامع والعلماء . وكان روح الكلام وترفّع اللفظ من الصفات المبحوث عنها في المجتمع الراقي ، أكثر من البحث عن أناقة آداب الحياة وأذواقها .

ولا يرقى الشك إلى أن اللغة والدين ، اللذين تطوّرا جنباً إلى جنب ، قد لعبا دوراً كبيراً في أداء المهمة الكبرى ، مهمة تعريب هذه الامبراطورية الرائعة وترسيخ الإسلام فيها . فهاتان القوتان أطاحتا بالحواجز التي كانت تفصلُ الفاتحين عن السكان الأصليّين ، واستوعبتا من الغرباء أكثر مما استوعبت روما في الأزمنة القديمة أو أكثر مما استوعب الأنكلو سكسونيون في الحقبة المعاصرة . فذلك الذي كان يعتنق الإسلامَ ، كان يتكلّم ويكتب اللغة ، ويبدو كأنه عربيّ ؛ إنّ في ذلك لواقعةً عظمى على صعيد تاريخ الحضارة الإسلاميّة . كما أنّ تلك القوّة التوحيديّة ألغت الحدود السياسيّة وأعطت بطريقةٍ ما صبغة موحّدة لبلدانٍ متفاوتة ومنتشرة فوق ثلاث قارات ، لم يعد يفصل بينها فاصل منذ الآن . ففي كل مكان كان المسلم يجد الدين نفسه ، الصلوات ذاتها ، الشرائع عينها . وبفضل هذه الشعائر ، كان يشعر في كل مكان أنّه في داره ، سواء في أثناء رحلاته خارج الحدود ، أم في علاقاته مع تجّار البلدان الأجنبية .

على امتداد عدّة قرون ، وبصرف النظر عن أعراقهم ، وضع العلماء المسلمون كل مؤلفاتهم بالعربيّة . ومن جرّاء ذلك ازداد غنى اللغة والفكر ، وأسهم في انتشارهما التعليم الذي كان مجانياً . كما أن الترجمات العربية للعلم والفلسفة ، في الشرقين الأدنى والأوسط معاً ، أسهمت في الانتشار الخارق للغة والأفكار . وهكذا احتلت رسالة أرسطو في المنطق ، التي كانت تضمّ في طبعتها العربيّة البيان والشعر (الريطوريقا والبوتيقا) ، كما احتلت رسالة « ايساغوجي »

لفرفوريوس مكانتها إلى جانب النّحو العربي ، بوصفها ركيزة للإنسانيّات الإسلاميّة .

ونجم عن ذلك أن العربية حققّت بين الشعوب المتنوّعة التي كانت تخترقها ، نوعاً من أمميّة آداب وعلوم . فقد فرضت نفسها ، وسارت على نحوٍ كليّ لدرجة أنَّ العرب كانوا أقليَّة متواضعة في عداد المفكّرين والعلماء الذين أسهموا في تفتّحها وازدهارها . وفوق ذلك كله ، فإن الفرس بعد فتح بلادهم بقليل ، زوّدوا الأدب العربي بأعمال بالغة الأصالة ، لدرجة أن الأثر العربي ما عاد يظهر فيها . إن هذا الانتصار الشامل ، الذي كان يتخطّى نفسه بنوعٍ ما ، إنما كان ينطلق من كتاب ، من « الكتاب » . وكان لتعميم لغة وحيدةً فضائل أخرى ، فقد مورست هذه الفضائل من خلال كثافة المبادلات الثقافية التي استطاعت ، على هذا النحو ، أن تنتظم عبر الامبراطورية كلها وحتى فيما يتعدّى حدودها . إن تأثير ابن سينا ، مواطن أقاصي الأمبراطورية شرقاً ، جليٌّ واضح في أعمال ابن رشد ، فيلسوف قرطبة . كما أنَّ الإدريسي ، الذي كان يعلّم ويدرّس في اسپانيا ، سيطبع بطابعه العميق أعمال ياقوت الذي كان يدرس بالقرب من بحر آرال .

هكذا على امتداد العالم الإسلامي ، أسهمت القوّة التعبيرية والمؤثّرات الطيّبة للغة العربية في اختراقها ونفاذها إلى اللغات الغربية ، الأيبريّة أو اللاتينية ، التي لا تزال مفعمة بمصطلحاتٍ من أصل عربيّ ، إلاّ أنَّ هذا الاختراق كان صعباً على العربية .

لقد قيل إنَّ تاريخ الكتابة واللغة العربية لم يكن شيئاً آخر سوى تاريخ الحضارة العربيَّة . ومما لا شكَّ فيه أنَّه سهَّل انطلاقها وتطورها بشكلٍ فريد ، فتلك الفنون العربية التصويرية ، إذْ استعارت من أرض آسيا والهند القديمة حركاتها ومحاولاتها التصويرية الأولى ، المستمدة من الكتابات الهيروغليفية ، صارت شيئاً فشيئاً لغة وكتابة تامتين .

قبل كل شيء ، ونظراً للصعوبة التي كانت الكتابة التصويرية العربية تمثّلها بالنسبة إلى الغربيين ، فإن النهضة فقدت بسرعة ذكرى الحضارة العربيَّة ، الأمر

الذي جعل الأوروبيين يستديرون شطر الأزمنة القديمة اليونانية واللاتينيّة ، لاكتساب المعارف التي كانت تنقصهم . إنّ هذا الاختيار ، رغم ما يتضمّن من جحود وعقوق ، أمر يمكنُ فهمه ، وله جملة أسباب . فقد كانت حضارةُ اليونان وروما الغربيّة أكثر عقلانيَّة في فكرها من الحضارة العربيَّة ، برأي الغربيّين . فمن الأمور المخيفة أن تكون وريثاً لماضٍ كبير ، ممثل لأعرق حضارة على وجه الأرض (غوتييه) ، عندما يتعلّق الأمر بتعليم آثارها الأولى لشعوبٍ فتية .

الفصل السابع

الآداب والتقاليد

بسيكولوجيا إسلاميّة

على الرغم من تنوّع الأعراق والشعوب المكوّنة للإسلام في العصر الأموي ، القرن السابع والقرن الثامن ، كان المسلمون قد بدؤا يتميّزون بمزايا مشتركة ، وكانوا يتصرّفون تقريباً بالطريقة ذاتها على الرغم مما كان يمكنه أن يفرّق بين الحَضَر والبدو ، بين الأغنياء والفقراء . ذاك أن عقيدةً واحدة مترسخة بقوّة ، كانت تثير ردود فعل واحدة لدى كائناتٍ مختلفة ، كانت روحيّةُ القرآن تنظّم السلوكَ اليومي ، وتشيع جواً حيويّاً ، وتتوصل من خلال تغلغلها في الأفكار إلى توحيد شكل العقليّات والطبائع . وكما قيل ، كان تأثيرُ الدين آخذاً في التعاظم من جرّاء شموليّة اللغة ، والنتائج المترتّبة على وجود سياسة خارجية مشتركة ، وكذلك من جرّاء نتائج نظام اجتماعي شامل .

لقد قيل إن عشر درجات عرض تغيّر تشريعاً ما . ومما يستحق النظر في هذا الشأن هو أن الإسلام قد انتشر شرقاً وغرباً ، وأنّه يشكّل شريطاً هائلاً ، قريباً من خط الاستواء الثلاثين . وهو إنْ كان شديد الامتداد طولاً ، فإنّه ينحصر في حدود ضيّقة نسبياً على صعيد العَرْض ، فلا يتقدّم أبداً نحو الشمال أو الجنوب ، أي نحو البرد أو الحرّ الشديد ؛ بحيث أن المناخ يبقى ثابتاً تقريباً في مختلف المناطق التي يسودها الإسلام . وقد نشأ من هذا الانتظام المُناخي وضعُ مؤاتٍ لامتثاليّة بسيكولوجية معينة .

كانت رسالةُ محمّد ترمي إلى رفع مستوى أتباعه الأخلاقيّ والثقافيّ .

والحال ، ليس هناك مسلمون ، مهما كانت عقيدتهم سطحيّة ، إلا ويؤمنون بتفوّق دينهم وعلوّه . وان حريّة فكر الغربيين ونضجهم السياسي وتقنيّتهم لا تعادلُ أولويّة الروحانيّات عند المسلمين التي تبدو لهم واضحة كالشمس . وهناك هزءٌ أكثر مما هناك أعجاب في ما يوحيه لهم التقدُّم العلمي الغربي : « لم يعد ينقصكم إلاّ أنْ تشطبوا الموت » . هذا معناه أن كل جهود الإنسان ستكون عاجزة أمام مسألة الآخرة التي حلّها المؤمن بادىء ذي بدء : « إذا كان العالم الحاضر لكم ، فإن الحياة الآخرة لنا » . الحقيقة أن هناك أموراً كثيرة يمكن قولها حول هذا التصوّر النهائي للمسألة الإنسانية . ومما لا ريب فيه أن العقيدة الإسلامية تحمل في طيّاتها نوعاً من الزُّهد ، وأنّها تؤول إلى نظرية الجهد الأدنى . إن عقليّة الغربيّ الصراعيّة صارت غاية بحد ذاتها ، فهي تغضُّ الطرف عن الروحانيّات وتقود إلى قلقٍ العدم . فمن منهما المُحِق ؟ إن طمأنينة المسلم تامّة لدرجة أن رداً دفاعياً يعمل آلياً في معرض احتكاكاته بالتقدم ، كلما تراءى له أن العقيدة في خطر . فهذه العقيدة فعّالة وراسخة بوجهٍ خاص ، وهي تجدّد رسوخها عندما تجري محاولةٌ لزعزعتها .

ذاك أنّ القرآن يتوقّع كل شيء ويحلّ مسبقاً كل المشاكل ، فهو يربط الشريعة الدينية بالأخلاق ، ويهدف إلى استتباب النظام والوحدة الإجتماعيّة ، وإلى الحدّ من البؤس والقسوة والشعوذات . إنه ينزعُ إلى رفع البسطاء ، ويقيم ملكوتَ الإحسان ويدعو إلى اللاعنف : « . . . وءاتى المالَ على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين . وفي الرقاب وأقام الصلاة وءاتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقّون » (البقرة ، 177/2) . وعلى الصعيد الحقوقي ، عالج النبيُّ أدّق التفاصيل المتعلّقة بالتعاون اليومي والعقود والمواريث . وهو يحدّد على صعيد الأُسرة سلوك كل فرد تجاه معاملة الأولاد والعبيد والحيوانات وتجاه النظافة والملبس ، إلخ . وقد يكون نجاحه على الصعيد الدنيويّ أقل وضوحاً من نجاحه على الصعيد الديني .

من المفيد الآن أن نلقي نظرةً على آداب المجتمع الإسلامي وتقاليده باختصارٍ شديد ، ثم نتناول البيئة التي كان يعيش فيها المؤمنون الأوائل ، وندرس

بعد ذلك كيف اجتمعت مختلف العوامل الطبيعية والنفسيَّة لتؤدي إلى ولادة حضارة جديدة .

الأسرة الإسلامية ـ الزواج ـ الأولاد

قبل وفاة محمَّد ، وبفضله ، كانت الأسرة الإسلاميَّة قد تكوَّنت بقوَّة . وهي تدينُ في تكوينها للسلطة التي يتمتَّع بها ربُّ الأسرة ، والتي تبدو كبيرة ومفرطة في نظر الغربيّين ، فالمرأةُ ملزمةٌ بطاعة الرجل وإذا تمرّدت عليه فمن حقّه أنْ يجلدها . إلاّ أن القرآنَ يذكّر الرجال بأن أمهاتهم قد حملتهم وهناً على وهن ، وأنجبتهم وأرضعتهم ، وأن « الجنة تحت أقدام الأمهات » ، كما يُقال .

إن الإنجاب واجبٌ على كل مسلم ؛ وعلى أولاده أن يطيعوه ويحترموه . وهذه القاعدة تحترَم قلباً وقالباً ، في المدينة كما في الرّيف . فالإبن لا يدخّن أمام والده ، والإبنة لا تسأله . وهو حر تماماً في ممارسة حقوقه على زوجته ، فهو سيّدها المطلق ، إذْ أن الأب هو سيِّد مصير أولاده أيضاً ، وهو يتصرَّف معهم حسب مصلحتهم ، كما يفهمها . مبدئياً يمكنه أنْ يزوّجهم دون رضاهم ، ولا تستشارُ الفتياتُ أبداً في اختيار أزواجهن .

إنَّ مكانة المرأة على صعيد الزواج هي وضعيَّة انقيادٍ تام ، تصحّح إلى حدٍ ما السلطة التي تستمدُّها من مفاتنها بشكلٍ طبيعي . لكنَّ مصيرها الحقيقيّ سرعان ما ينزلق وفي لحظاتٍ معدوداتٍ من موقع عبادة الحب إلى موقع العمل المضني على امتداد حياتها كلِّها ؛ فهي رفيقة متعة الرجل للحظة ، وخادمته على الدّوام ، ولكنَّ محمَّداً رأى أنْ من واجبه السعي لتحسين مكانتها الإجتماعية .

وعليه ، فإن المرأة وضعت على قدم المساواة مع الرجل على صعيد التقاضي في موضوع الأموال والأملاك . فهي من الآن وصاعداً ، يمكنها أنْ ترث وأن تشهد وأن تمارس مهنة مشروعة . ومع ذلك ، بقي موقعها محصوراً في المنزل وفي إنجاب الأولاد . فهي « حرثٌ لكم » ؛ واحترامها يتوقَّف على خصوبتها ، وهذا الأمر طبيعي في مجتمع زراعي وبطريركي (أبويّ) . كما أنَّ النبيَّ رسم لها واجبها : « كل امرأة تموت وزوجها راضٍ عنها ستدخل الجنة » . وانطلاقاً من هذا الشرع ، يمكن أن تكون عقوبة الخيانة الزوجية الموت . الحقيقة أن تعدُّد

الزوجات يخفض الغوايات الخارجية إلى أدنى حد ، إذْ أنَّ الشريعة الإسلامية توطِّد الأسرة وتسوّغ في الوقت ذاته عقوبة الزوج الزّاني .

إنَّ ولادة طفل في الأسرة الإسلامية ، لا سيما إذا كان ذَكَراً ، يُعتبر حَدَثاً سعيداً . فهو يُحاط بعدّة شعائر ، وبتعاويذ ضد الجنّ ، وبطوالع حسنة ، ويوضع السكّر بالقرب منه لكي يكون حسناً ، والخبز لكي يعيش طويلاً ، والذّهب لكي يغدو غنيّاً .

ليس من الصعب إيجاد إسم له ، يؤخذ عموماً من الدين ، ويضاف إلى شهرته مسبوقة بكلمة إبن . إنه فلان إبن فلان : « آن » في إيران ، « Wai » في بلاد فارس ، « بن » في شمال افريقيا . إبن أحمد ، أحمدان ، أحمد وتري ، كلها تعني ابن أحمد .

لقد اعتنت الأسرة الإسلامية على الدوام اعتناءً كبيراً بالولد ، بصحته وتربيته . فهذا الولد ترضعه الأمُّ لفترةٍ طويلة ، أحياناً أكثر من سنتين ، ويُربى بحنان ، فيُحاط بالعطف والوقاية المتواصلة . وإذا أصاب سوء الطالع بعضاً منهم وصاروا يتامى ، لا يتردّد أقربُ ذويهم في استقبالهم وتبنّيهم .

واليوم كما في الماضي ، يمضي الطفل سنواته الأولى في كنف الأم في الشقق والأجنحة المخصَّصة للنساء . وفي سن الخامسة ، يُمارس عليه طقسُ الختان التقليدي وسط احتفالاتٍ تظلّ دائماً مناسبةً لعيد عائليّ ، ولدخوله في الحياة الإسلاميَّة . منذ ذلك الحين ، يبدأ بالانعتاق من رقابة النساء وعليه أنْ يتولّى شؤونه بنفسه ، من الوضوء إلى الاستحمام وإقامة الصَّلوات .

ثم إذا كان الطفل ذكراً ، يبدأ بالتعاطي مع والده الذي سيبذل جهدَه للإشراف بنفسه على تربيته وتعليمه . فالحنان والعاطفة لا يمنعان الحزمَ ولا حتى القسوة . ففي ذاكرة كل أسرة إسلاميّة التعليمات التي أعطاها هرون الرشيد لمربّي ولده الأمين : « لا تكُنْ قاسياً معه إلى حد خنق مواهبه ، ولا متسامحاً معه إلى حد تعويده على الكسل . قوّمْهُ قدْرَ الإمكان بالحسنى واللطافة ، لكنْ لا تمتنع عن القوّة أو الشدَّة إن لم يستجب » . وكان الشاعر سعدي يقول باختصار أشدّ : « إن حزم المعلِّم المربّي أجدى من شفقة الأب » .

أما تربية البنات فتقومُ على تزويدهن بتعليم دينيّ متين ، وتعويدهن على الصّلاة وجعلهن مبكّراً قادرات على تدبير شؤون المنزل . ومنذ عدّة سنوات كان لا يزال جارياً في طبقات المجتمع الإسلامي الميسورة ، تعليمهن الشعْر وفنون التزيين والموسيقى والرّقص . وهن يذهبن اليوم إلى المدرسة والليسيه منذ نعومة أظفارهن .

هناك في البلاد الإسلامية تُعتبر العزوبة خطيئةً ، والزواج محبَّباً لله . كما أنَّ المسلمين يتزوّجون في سن مبكرّة جداً ، حين تبلغ الفتيات ما بين التاسعة والعاشرة ، حين يبلغ الفتيانُ نحو الخامسة عشرة . ويحضُّهم على ذلك الشّرع الديني والأعراف والتقاليد الزواجية ، ويدلُّ اختبارُ البلدان الحارَّة أنْ لا مجال لإضاعة الوقت ، لأن المرأة ، الأم في الثالثة عشرة ، تذوي في وقتٍ مبكر . إن العائلة هي التي ترعى الزيجات وتقررّها ، ففي أفريقيا ، كما في بقية العالم ، تهتم النساءُ عموماً بذلك ، وهن يفتخرن بذلك العمل ويكثرن من المكائد والأحابيل الزوجيَّة ؛ أما في إيران فإن الرجال هم الذين يتولون الطلبة التمهيدية (الخطبة) . وحين يوافق الطرفان المعنيّان . يقوم القاضي بعقد القران ويختمه بمهر يقدّمه العريس ، ويظلّ مُلكاً خاصاً للمرأة .

هناك صلواتٌ قصيرة ترافق الزواج ؛ تلي ذلك مأدبة احتفاليَّة مع توزيع هدايا وعيد ساطع . أما موكب النُقلة الذي يذهبُ إلى منزل الزوج ، فإنه يعبر المحلَّة ، العريس على حصان ، والعروس في هودج ، وتسير وراءهما البغال المحمَّلة بالهدايا . وتشاء العادةُ أنَّ الزوج عندما يرفع حجاب العروس ، يظل في إمكانه ، قبل النّكاح ، أن يردَّ الزوجة إلى ذويها ، شرط أنْ يتخلّى عن المهر . وأخيراً ، عندما تجري الأمور على ما يُرام ، يُشهّر باتمام النكاح علناً وذلك باظهار وشاح ملطَّخ بدم ، يبينّ للجميع بكورة العروس وذكورة عريسها .

إن حلّ الزواج مسموح لعدَّة أسباب . فهو في معظم الأحيان من صنع الزوج ، الذي يطلّق زوجته بتصريح يدلي به أمام كاتب بالعدل . ولئن كان محمَّدٌ يتقبَّل حرية الطلاق ما قبل الإسلامية ، فهو لا ينصح به لأنَّه أبغض الحلال إلى الله ؛ ويحيطه ببياناتٍ ومجهوداتٍ وتسوية وتحكيم . وفي حال القطع النهائي ، بعد

فترة انتظار (عِدَّة) لثلاثة قُروء[1] ، تحتفظ الزوجة المطلَّقة بمهرها وأملاكها . ويظلّ الأولادُ في عهدة الأب ، إلَّا إذا كانوا غير قادرين على الاستغناء عن رعاية الأم . وفي هذه الحالة تتلقى أمهّم نفقةً يحدّدها القاضي .

وبما أن تعدُّد الزوجات كان بوجهٍ عام تعاقبيّاً أكثر مما كان تزامنيّاً ، فإن الزوجات الشرعيَّات يتقبّلنه كأمرٍ عادي ، وغالباً ما تفاخر الضرائر بعدد أولادهن ، خاصة عندما يكنَّ « أُمهات ولد » .

المــآتم

لا يخشى المسلمُ الموت ، أو يتقبله على الأقل بتسليم ، وهذه إحدى نتائج انقياده الديني . فهو إذْ يُدار رأسه نحو مكّة في آخر ساعاته ، إنما يتشهَّدُ ، ذاكراً اسم الله ، طالباً رحمته وعفوه عن ذنوبه . تُقام بعد الموت جنازة للمتوفى ، لا تختلف كثيراً عن مآتم العبادات الأخرى . وتقام السهرة حول جثمان الميت ، فتتلى الآياتُ القرآنية وتُقام الصلوات لراحة نفسه ، ويبكيه ويندبه النساءُ وأقرباؤه وجيرانه . أما تطهير جثمان الميت وغسله فهو احتفاليّة طقسية مميّزة : « افعلوا لموتاكم ما تفعلونه لزوجاتكم » ، هكذا كان يقول النبيّ ، يتمُّ الغسلُ فجراً أو حسب العادات المحليَّة . ثم يُكفَّن الجثمان في كفنٍ بسيط ويُحمل إلى المقبرة فوق المحمل الذي غُسل عليه . ويتبادل حمله أربعة رجال خلال هذه المسيرة الجنائزيَّة . ثم يسير أعيانُ الدين ، وسط التراتيل الشعرية الدينية ، على رأس الموكب الجنائزي السائر إلى الجامع أو إلى المقبرة حيث تُقام صلاةُ الميّت . تلي الجنازةَ ، النساءُ النادبات النائحات اللواتي كانت الشريعة تمنعهن من السير في المآتم . وبين حينٍ وآخر ، كان الخلفاءُ يحظرون ولولتهن وندبهن ، وذلك احتراماً للمتوفى وحفاظاً على كرامة الموت ، لكنّ هذه المحظورات سرعان ما لفَّها النسيان .

في الجبَّانة يوضع الجثمان في التراب ، ويُدار الرأس نحو مكَّة مسنوداً إلى

---

(1) تقول العقيدة الأخيرة إذا نطق الزوج بالصيغة التالية : « أنتِ طالق » ، ثلاث مرات ، يكون الطلاق نهائياً .

قرميدة عارية ؛ ويوضع فوق الجثمان بعض الحجارة الرقيقة ثم يُهال عليه التراب حتى مستوى الأرض .

من هذا المصير المشترك بين البقايا البشريّة والحجارة الوضيعة التي تحميها وتدعمها ، استخرج عُمَر الخيّام قصيدةً رثائية أرقّ من قصيدتنا المأتمية « Pulvises » ؛ ومن قصيدته هذه الأبيات المفعمة بإحساس حزين ، التي لا يمكنُ للمرء أن يتجاهلها :

« عندما تخرجُ من الجسد أرواحُنا الملائكيّة
سيوضع فوق لحدِك ولحدي بعض الحجارة ،
وفي ما بعد ستُطحن أرمدتنا الواحدة / المُتماثلة
لتُصنع منها حجارةٌ تُغطي قبوراً أخرى » .

إن هذه العادة الرعويّة في الدُّفن لا تتم دائماً دون إثارة بعض ردّات الفعل . فمن بين المفكّرين الأحرار في القرن العاشر ، ذهب ابنُ وحشيّة ، في كتاب الزراعة ، إلى القول بأن الجثث المدفونة على هذا النّحو تسمّم الأرضَ وأنَّ بلاد الرافدين قد تضررّت من جرّاء ذلك . وبالتالي هناك مجالٌ للمطالبة بدفن الموتى في توابيت ، لكنَّ هذه العادة الوثنية لم تقم لها قائمة . وهناك عادة أخرى ما زالت قائمةً في الجبّانة ، ألا وهي عادة فصل الجنسين . فالعرفُ يؤكد بحزم تحريم ذلك ، ويعتبرُ مُحرَّماً الجمع في حفرةٍ واحدة بين جثّة رجل وجثة امرأة ، إلاّ إذا كان يفصل بينهما حاجز حجارة .

ولا يقلُّ طرافة عن ذلك اختيار مجال الراحة والدّار الأخيرة في الماضي ، كان من عادات المسلمين أن يجمعوا موتاهم في مسقط رأسهم ؛ وكان الفقراء يُدفنون في ظلّ أي مقام محلّي ، بينما كان الأغنياء يفضلون دفن موتاهم في مقامات رسمية . وبقوافل ، كان المسلمون المحنّطون والمطيّبون ، المنتمون إلى المذهب الشيعي ، يسيرون إلى المقامات المقدّسة في بلاد الرافدين ، بينما كان السنّيون يفضّلون في المقابل دفن موتاهم في المدينة ، في القدس أو دمشق . ولكنّ بما أن اليهود والمسيحيين يتصرّفون على النحو نفسه ، فقد أُنشئت شركات جنائزيّة في الوقت الذي كانت فيه بعض الأراضي قد صارت باهظة الثّمن ؛ الأمر الذي أدى

إلى ظهور تجارة زاهرة قوامها المتاجرة بالموتى .

إلاّ أنَّ حكمة المسلم لم تتأثر بذلك كلّه . فهو مستعدّ دائماً وأبداً لمواجهة الموت ، فقد كان يحمل كفنه في خلال رحلاته ، وعندما كان يشعر أنَّه منهوك أو مقهور ، كان يلتّف بكفنه بعد الوضوء والتشُّهد ، ويدعو رفاقه لمتابعة طريقهم .

الـرقيق

في الماضي كان العبد (الرِّق ، الأمة) في أسفل السلَّم الاجتماعي للمجتمع الإسلاميّ . لا يجوز أنْ يتحوَّل أيُّ مسلم إلى حال العبودية ؛ إذْ كان القرآن يرى أنَّ أسرى الحرب غير المسلمين والأولاد المنحدرين من عبيد ، بمثابة المصادر الشرعيَّة الوحيدة للعبوديَّة (الرّق) . فالسيّد على الرغم من معاملته العبد معاملة إنسانيَّة ، كان يحق له أن يفيد من حياة عبيده وأن يقتلهم ، وفي كل الأحوال ، كان يقع على كاهل هؤلاء المحرومين من الحياة ، عبءُ الأشغال غير الشريفة والأعمال في المدن والسخرات في الأرياف والخدمات في المنازل . وكان للعبيد حق الزواج وكان يمكن لأبنائهم أنْ يتلقّوا تعليماً معيّناً . أما الأمة (المرأة العبدة) التي كانت تنجب ولداً لسيّدها ، فكانت تُسمَّى « أم ولد » . وكان هذا الولد المميّز يولد حراً وشرعيّاً . كما كان يُعتق أبناء عبيد ويبلغون مراكز اجتماعيّة أو سياسيَّة رفيعة ؛ حتى أن بعضهم ، كالمماليك الأوائل ، وصلوا إلى ذروة المراتب وتولّوا زمام السلطة . عمليّاً كان محمَّد قد تقبَّل الرِّق بوصفه شراً ضرورياً ، كانت شرعيّته معترفاً بها في العهد القديم (التوراة) ، لكنَّه لم يتوانَ قطّ عن السعي لتحسين هذه العادة . ومثال ذلك أنَّ القرآن والسنَّة اعتبرا عتقَ عبد من الأعمال الحسنة ، المحمودة ، والمُرضية لله .

تجارة الرقيق

يبدو أنّ تجارة الرقيق المتواصلة وسط قبائل بعيدة مخيِّمة خارج كل رقابة ، كانت في الماضي في عهدة اليهود وحدَهم . اليهود الذين كانوا يتردّدون على الأسواق الأوروبية الكبرى ، من براغ ومجدلبورغ وإكس لاشابل ، حتى البندقية وجنوى . كما أن السجناء المأسورين جماعيّاً في أثناء تلك الحملات العسكرية على تركستان وافريقيا وإسبانيا وإيطاليا ، والذين كانوا يُباعون ثانية بالمزاد ، كانوا

بدورهم سلعاً لتجارة رقٍ ناشطة . كان بيع أولئك الأسرى بالمفرّق يجري في الأسواق التي كانت تُقام في المدن ، تحت رقابة رسميّة للمواصفات والأسعار . ذلك لأنَّ الدولة كانت تقتطع عدداً معيّناً منهم لأجل احتياجات الجيش : من هذه الزاوية ، كان الأتراكُ والسلافيون الجنودَ الأرفع ثمناً وقيمةً . في المقابل ، كان يجري استملاك بيزنطيّين وهنادكة لأجل المهن الحرفيَّة . خارج هذه الحالات الخاصّة ، كان الآخرون يُخصّصون للخدمات المنزليَّة ويستعملون خصياناً وسريّات ، حسب جنسهم .

بوجهٍ عام ، كان الراقصون والممثلون والمغنون يُختارون من بين العبيد ؛ ولكنَّ الأعمال الشّاقة في الحقول والبحار كانت من شأن الزنوج .

كان اللون والعرق والجنس يلعب دوره في تحديد الأسعار . في القرن العاشر ، كان الحبشي المراهق يساوي 18 -20 ديناراً ، وكان البالغ الزنجي يساوي 30 ، والزنجية تساوي 300 ، والبيضاء ألف دينار وما فوق ، حتى وإن كانت لا تُحسن القيام بشيء ، كان يجري تعليم أصغرهن عمراً وأكثرهن جمالاً بقصد زيادة قيمتهن التجارية (السلعيّة) . وكان هناك رسائل اثنوغرافية مطوّلة ، تفصّل محاسن ومثالب شتى الأجناس ، ومواهب كلٍ منها . في الواقع ، كان هناك فن خاص بكيفية البيع والشراء . فقبل إنزال العبيد إلى السوق ، كان يجري تجميلهم وتزيينهم حتى لا يعرف عمرهم الحقيقي . أما المشترون الذين ما كانوا يجهلون تلك الممارسات الخادعة ، فقد كانوا شديدي التحفّظ والحذر ، كان كل واحد يعرف ، فوق ذلك ، محاسن بعض الأعراق ومثالبها : فقد كان الأحباش مُعتبرين ومشهورين بكونهم لصوصاً ، وكانت أشهر الطاهيات تأتين من السّند ، ولم يكن الأتراك مقتصدين ، والزنوج ما كانوا يجيدون غير الرّقص .

فصل الجنسين

في الشرق ، حتى في المرحلة المعاصرة ، يعيش الجنسان منفصلين ومجتمعاهما لا يتفاعلان . فالمساومات والتجارة لا تجري أبداً بين أشخاص من جنسين مختلفين ، إذْ أنَّ الفصل بينهما تامّ . هناك اجتماعات ، أعياد ومآدب للرجال ، وأدب ذكريّ محض ، مليء بالكتب الغراميّة . ومن جهتهن ، يعيش

النساء مع بعضهن ، ويتزاورن ؛ وتشغلهن الشاغل ، في المقام الأول ، أمور الأنثى الخالدة ، فهن يخصصن جزءاً من يومهنّ للاعتناء بجمالهن في الحمّامات . حياتهنّ أقل رتابةً مما يُظنّ عامةً ، غير أنَّ مستوى المرأة الفكري التي لم تحرِّرها الحياة الحديثة ، لا يزال منخفضاً جداً . ما عدا بعض الاستثناءات النادرة . ففي المدينة تعمل المرأة في المشغل أو المنزل ، وتعمل في الحقول إلى جانب زوجها ؛ وذلك ليس حبّاً بالعمل ، بل لإضافة المزيد إلى موارد العائلة . وفي هذه الظروف يجري احترام مبدإ الفصل بين الجنسين على قدر المستطاع . لقد قضى التطور الاجتماعي على هذه الظاهرة جزئياً ، غير أنها لا تزال عادة قائمة .

الخصيان

كان الخصيان مرآة اليُسر في بيتٍ ما . فهم مساعدون ضروريّون للحريم ، وكانت العائلات الشّديدة الثراء تمتلك الكثير منهم . وبالطبع كانت توكل إليهم مهمة حرس الحريم والأولاد ؛ وكانوا يُبتاعون بثمن باهظ ، في الشمال ، في الهند وافريقيا . ولكن في بعض الأحيان ، كان يجري التزود بهم بثمنٍ بخس من خلال خطف الرهبان الذين كان البيزنطيّون يخصونهم حتى يتيحوا لنسائهم فرصة التردّد على الكنائس دون تعرّض شرفهن للأذى .

الحريم

هناك فكرة خاطئة عن الحَرَم (الحريم) . فالكلمة ذاتها تعني الشيء المقدّس ، غير المباح وتدلُّ على الجزء المخصص من المنزل العائلي للنساء ، والذي لم يكن في متناول الغرباء والأجانب . فإذا كانت الشريعة القرآنية تسمح للمسلم بالزواج من أربع نساء . وباتخاذ عدد غير محدود مما ملكت الأيمان ، فمرد ذلك إلى كون النبيّ يعتبر تعدّد الزوجات لدى الأقدمين بمثابة ضرورة بيولوجيّة ترمي إلى التعويض عن الوفاتيّة المرتفعة والانحطاط السّريع للقوى الإنجابيّة في البلدان الحارّة . ومع ذلك يصحُّ القول إن هذه العادة ، التي كانت تسوِّغ ضرورة الحريم ، ظلّت متعةً خاصّة بالأغنياء وحدهم . ففي الطبقة العاملة يكتفي الرجل ، شاء ذلك أم أبى ، بزوجةٍ واحدة ، ويُهزأ بلا وجل من مهاترات ومشكلات البيوت الحريميّة . وفي كل الأحوال ، في قرون الفتح الأولى ، كان

تبريرُ هذه المؤسسة يُفسَّرُ بضرورة تجنّب ذوبان العِرق وزيادة عدد الولادات العربيَّة .

الـــبغاء

مبدئياً ، الدِّين يحرّم البغي ، لكنّ الدولة كانت تتساهل في أمره ، معتبرةً إياه كمصدر للدخل . فكان لكل مدينة سوق بغاء . ونجد في هذه السوق بيوتاً فخمة ذات طباق ، ترضي رغبات الزبائن المرفهين إلى هذا الحد أو ذاك . ومن حينٍ لآخر ، كانت تصدر أوامر فاضلة تقضي بإقفال المبغى ؛ وكان الخليفةُ الحاكم قد ذهب إلى حد تحريم خروج النساء إلى الشوارع ومنع الإسكافيين من بيعهن أحذية . لكن ذلك لم يكن سوى طفراتٍ عابرة ، لأن تزايد الثروات كان ينمّي الفحشاء في كل أشكالها . وعلى الرغم من شدَّة الشريعة ، صار اللواط والشذوذ الجنسي من العادات الدارجة . فمنذ عهد هرٰون ، صار الرواة العربُ يتندّرون بنوادر تخنّث الغلمان وتأنثهم ؛ وقال فيهم الشعراء الإباحيّون ، كأبي نؤاس ، قصائد حب . وظل هذا الشذوذ يتطور لدرجة أنَّ النساء ، في عهد الأمين ، أُصبن بدورهن بتحولات شذوذية وانحرافاتٍ مماثلة .

النَّظــــافة

بقدر ما قاد محمَّدٌ العربَ إلى مستوىً من الطهارة والصبر لا نظيرَ له أبداً من قبل ، علَّمهم مبادىء النظافة ومفاهيمها الأوليَّة ، الدقيقة . يقول النبيّ : « النظافة من الإيمان » ، لكنّها تتوقّف أحياناً على مستوى الدخْل ، وعليه فقد كان الأغنياء شديدي الإعتناء بأنفسهم . فبعدما يقضون وقتاً طويلاً في الحمَّام ، ويخضعون أظافر أيديهم وأرجلهم للتقليم ، لا يتردَّد عدد كبير منهم من التطيّب والتعطر ، حتى أنَّ بعضهم كان يذهب إلى زيادة ألق عيونهم بتوسيع خط الجفون والرموش بواسطة عجينة يدخل في تركيبها الكُحل الأصبهاني . وكان الفقراءُ شديدي الإهمال لأنفسهم وأجسادهم . على الرغم من كثرة الحمّامات العامة . وسواء كانوا فقراء أم أغنياء ، فجميعهم كانوا مُلتحين ، حليقي الوسط ، حتى يتميّزوا من اليهود ؛ وكان في الإمكان تحديد مرتبتهم استناداً إلى مدى عنايتهم بمظهرهم . عملياً ، الشرقي شديد الاعتناء بجسده دائماً ، حتى أنّ عادة الختان

ذاتها تبدو معبرّة عن اهتمام أوليّ بالنظافة والطهارة .

الحجابُ والأزياء

في كل الأزمان ، كانت نساء الأوساط الميسورة في المشرق تغطي الوجه حمايةً للبشرة اللدنة من قساوة المناخ وشدّته . ولقد عمّم محمّد هذه العادة على كل النساء العربيّات اللواتي شرّفهن الإسلامُ . لكنّ التوسع الهائل للمجتمعات الإسلاميّة حال دون تطبيق هذا الإجراء ، وصار الحجابُ مجدّداً علامةً مميّزة لطبقة اجتماعيّة . ففي الواقع كان التحجّب متناقضاً مع الأعمال الرعوية والريفيّة ، وكان نساء العامّة لا يتحجّبن . وكانت الملابسُ وزيناتُ الرأس تتبدّل بتبدّل الأزياء . ففي سياق القرن الهجري الأول ، كان الرجال المميزون يرتدون الحرير الأبيض أو الأسود (الخزّ) ويتنقّلون على الجواد ؛ وأولئك الذين كانوا أقلّ ثراءً ، كانوا يلبسون ملابس ذات ألوان أقلّ سطوعاً وبهاءً ؛ وفيما بعد ، تراجع الأسود والأبيض أمام ألوان حيّة مشرقة أو أكثر دقّة ؛ لكنّ البدو ظلّ محافظاً على عباءته الفضفاضة وكوفيته وعقاله .

بوجهٍ عام كانت عمرة الرأس مكوّنة من شاشية وعقال ملوّن ، وكان العبيد يعتمرون قلنسواتٍ لبديّة . في عصر هرون ، سادت أزياء القبّعات المُرقّطة والمنقّطة ، التي كانت في أساس برانيط القرون الوسطى الأوروبيّة . والحذاء ، وهو البابوج (البابوش) بتعبير آخر ، كان أحمر للعامّة ، أصفر أو أسود للطبقة الميسورة . وكانت واسعة جداً المعاطفُ المنسوجة من شعر الماعز ، مع أكمام وأعطاف شديدة الاتساع لدرجة أن المسلم كان يمكنه أن يضع فيها ما يشاء من الأغراض ، كزوج أحذية مثلاً . والمرأة التي كانت مقيمة مبدئياً في الحريم ، كانت تملك ثوباً داخلياً ، متزراً ، مصنوعاً من قماش ناعم رقيق ، وصِداراً مناسباً ، وأحزمة مُزيّنة بألوان فاقعة ، وتنانير ملوّنة واسعة جداً . من الخارج ، كانت ترتدي ، فضلاً عن الغز أو الدنتيل البنفسجي الخالد الذي كان يغطي الوجه إلى ما تحت العينين ، وتضع حجاباً بل حجابات واسعة من الساتان ، وكان القصد من ذلك ستر الأشكال المثيرة في الجسد الأنثوي . وكانت النساءُ ذوات الحالة الوضيعة يلبسن بالطريقة ذاتها ؛ لكن الأقمشة كانت ذات نوعية متدنّية . أمّا الأغطية والستائر فكانت قويّة النسج والحياكة لدرجة أنه كان يمكن

فتقها ومزقها عدّة مرات قبل اهتلاكها . زدْ على ذلك أنّ صناعة الصباغة كانت مزدهرة بوجهٍ خاص .

الألعابُ والرياضة

كان الشرق ، في كل مراتب المجتمع ، يتخطّى الغربَ بحسن ضيافته ورقّة لياقته ولطافته وكياسة آدابه .

في الطبقة الميسورة ، كان يتخلّل المآدب والغراميّات ، جلساتٌ ترويح فلسفية ، علمية وأدبيّة ، تدور وسط سجالاتٍ مهذّبة يسودها على الدوام حسن القيامة والسُّرور . وفي بعض الأحيان كانت تُقام جلساتُ طرب وعزف ، مع قراءات شعريّة وترتيلات قرآنيّة .

أما العامّة فكانت تتحمّس لمنازلات الديوك ، وألعاب الدجّالين والسَّحرة ، ومسرح الدُّمى . وفي بعض الأحيان كانت العامّة تستمع للمغنين في الشوارع ، أو أنّها كانت تردّد أغانيها الخاصّة بها . فالعامة طيبّة وذات طبع لطيف في حياتها اليوميّة ، فكانت تتقبّل بكل بساطة المصاعب والقيود ، وتتحمّل الفقر بحكمة وتعرف كيف تنحني بكبرياء أمام ضربات القدر . ذاك أن المسلم المتوقّد الذّهن والشديد الفهم عرف على الدوام كيف يكتفي بقليلٍ من الرّفاه وكيف يضحك بكل بساطة .

كانت اللقاءات الرياضيّة تحظى بتقديرٍ كبير . وتروي النصوصُ المعاصرة أنّ رياضة الملاكمة والمصارعة كانت تُمارس بشكلٍ منتظم ، وكذلك اللياقة البدنية والسباق ، القوس والرُّمح، الفروسيّة والپولو (Polo). كما كانت تُمارس ألعاب الشطرنج والنرّد ، غير أنّ ألعاب القمار كانت ممنوعة. ولئن كانت سباقات الخيل تحظى باهتمامٍ كبير منذ أمدٍ بعيد، فإن الصيّد كان يشكل أمتع التسليات .

في ختام هذا الفصل حول عادات المسلمين ، آدابهم وتقاليدهم ، مُن المفيد إلقاء نظرة على الشروط المادية لسكناهم ومأكلهم .

البيت

إن بيوت الفقراء في المشرق كانت بالأمس ما نراها عليه اليوم ؛ فهي تكاد

تكون أقوى من الخيمة وأفخم منها بقليل ، إذ أنَّها على غرارها مصنوعة لإقامة قصيرة الأمد . وبوجهٍ عام ، نجدها مبنية من حجارة طينية مجففة في الشمس أو من طينٍ ممزوج بالقش وسعف النخيل . وفي بعض الأحيان تكون البيوتُ البورجوازية مكوّنة من طبقتين ، تضمُّ غرفة جلوس أساسية مزينة بقبة أو بشرفة ، ويطلّ باب الدخول على باحة داخلية وحديقة فيها نافورة ماء وأزهار وأعشاب . مبدئياً ترمي عمارة المنزل أولاً إلى توفير أقصى حدٍ ممكن من العزلة والهدوء ، وترمي ثانياً إلى توفير الراحة . لهذه الغاية نجد الأبواب مزوّدة دائماً بأقفال قوية ، والنوافذ مزوّدة بستائر خشبية محفورة (مشربيَّات) تلعب في آنٍ دور النوافذ والستائر والمصاريع التي تسمح بدخول الهواء وبالنظر من خللها إلى الخارج ، دون أن يُرى المقيمون في الداخل . والسطوح عبارة عن سطيحات محمية بفتحات صغيرة وظيفتها تمرير الهواء . ولم تكن أغنى المنازل مزوّدة بتمديداتٍ مائية ولا بمجارير . ففي غياب الخزّان أو البئر ، يجري نقل الماء المخزون في الدّنان والقِرَب . إلاّ أنَّ البيت العربي مزوّد بحمّامات مع حفرة كبيرة . وبشكلٍ عام ليس للسكنى مواقد ومداقىء ، وتؤمن لها الحرارة بواسطة مناقل .

عند الفقراء ، أرض البيت مغطاة بسجاد أو بحصر ، والجدران الطينية موشّاة بألوان شتّى . وفي جهاتٍ ثلاثٍ من الغرفة ، يشكّل الجدار مصطبة منخفضة ، تغطى أحياناً بالسجّاد أو بالمساند والأرائك التي تُستعمل كمقاعد ، والتي توضع عليها الأسرَّة ليلاً . ويشكّل الديوان الأثاث الرئيس في غرفة الطعام ؛ فهو يستند إلى جهاتٍ ثلاث من الغرفة ويُغطى دائماً بالمساند . وتوضع مقاعد جلديّة أخرى هنا وهناك فوق السجادة . كما تُوضع فوقها طاولات صغيرة منخفضة تشكّل الفرش البسيط والمريح لهذه الغرفة الأساسيَّة . إلى جانب الطاولات ، هناك مناضد خفيفة ومساند ؛ ويتألف تجهيز المنزل من صحونٍ وأوانٍ نحاسية وأباريق وأحواض ومزهريات ومصابيح مُفرَّغة توضع أمام المرايا ، وزوايا ذات شكل بيضوي تُستعمل لوضع تُحف وزخارف أو لوضع الكتب . عموماً لا توجد خزانة ، بل هناك صناديق مزوّدة بأقفال جيّدة ، توضع فيها الأقمشة والملابس وكذلك الوسائد والأغطية والفرش . إلاّ أن داخل المنزل العربي ، حتى

عندما يكون متواضعاً ، يشكل منظراً جميلاً ، فخماً ووثيراً ، بفضل السجاجيد والطنافس والستائر . أما السقوف والجدران فهي مزيّنة بالجص والرسوم والفسيفساء التي تسهم أخيراً في خلق جوٍ دافىء وملوّن .

في المدن ، كانت البيوتُ مجتمعة في أحياء متمايزة ، حسب المذاهب أو القبائل . وأحياناً كانت بعض الأصناف المهنيّة تجتمع في حيٍ واحد .

اعتباراً من القرن العاشر ، وبعد تزايد السكان ، كان لا بد من اللجوء إلى المباني الجماعية المؤلفة من ست أو سبع أو ثماني طبقات . وعلى الدوام كانت تلك المباني مؤلفة من أربعة مجمّعات سكنية تحيط بساحة داخليّة تُستعمل كحديقة . وكان كل طابق مُزيّناً بمجموعة حجارة مفرّغة ينفتح عليها مدخلُ الشقّة . وكان من الصعب جداً على النساء أن يحمين أنفسهن في داخلها من الحرّ الشديد خلال الصيف الطويل ، دون المخاطرة بظهورهن بلا حجاب أو ستر . ومع ذلك كان يتم توفير رطوبة معينة بفضل طنافس تُبلّل عادة بالماء، وجهاز تهوية يتأرجح ببطء .

يبقى أن تلك المنشآت لم تكن تفتقر إلى الفخامة والأناقة . فالقاعاتُ المميزة بأعشاب جميلة مرسومة ، ومعزّزة بأزهار ، وبنوافير مياه تنطلق منها رشّات ماء مجنّحة ، كانت تشبه حدائق مصغّرة وجنّات مصطنعة .

المـــآكل

كان المطبخ يحظى باهتمام كبير في البلاد الإسلامية وهناك عدد من الكتب المتخصّصة في فن الطهي [. . .] . ففي مختلف طبقات المجتمع ، تسود الرغبة في الاجتماع حول الموائد العامرة بالمآكل الشهيّة . كان استعمال الشوكة مجهولاً ، فكانوا يتناولون الطعام بأصابعهم ، وكان يغسلون أيديهم في معظم الأحيان ، ولهذا الغرض كانت تستعمل المغاسل والأحواض والمناشف الرقيقة القماش . ولكنهم كانوا يستعملون الملاعق لتناول الحساء ، الذي كان ممتازاً بشكلٍ عام ، حتى لدى الفقراء .

وإذا كان القرآن يحرّم أكل الحيوانات الميتة أو المقتولة بطريقةٍ أخرى غير الذّبح الإسلامي ، وكذلك أكل لحم الخنزير أو الكلب أو لحم كل حيوان مقدّم لوثنٍ ، فإنّ الخضار كانت ، في المقابل متوافرة وشائعة جداً ؛ وكانت الخضار

المفضلة هي الباذنجان واللوبياء والبازلاّء والهليون والبصل ، وكانت تبهّر كلّها وتطيّب بالأفاوية .

كان شحم الضأن المُذاب والمقورم كثير الاستعمال في المطبخ ، ذاك أنّ الزبْدة كانت مخصّصة عادة لصنع الحلوى والسكاكر التي كانت تحظى بإقبال شديد من جانب الذوّاقة . وكانت البهارات والقرفة وأكباش القرنفل والحر والزنجبار ، إلخ ، وكذلك كانت الفواكه ذات نوعيّة نادرة. مبدئياً ، ظلّ النبيذ محرّماً ، غير أنّ الشعراء كانوا يتغنّون بمزايا الخمرة وخصالها ولم تكن القصائد الخمريّة (الباخوسيّة) ذات مكانة وضيعة في الأدب العربي .

كان فقراء الناس يعيشون على حساءٍ باللبن أو على حساء اللبن والطحين (العصيدة) ويخنة الباذنجان . أما الوجبات الفاخرة فكانت تتألّف من : الكافيار والمعجّنات الشهيّة وفطريّات (كمأة) الجزيرة العربية والمشاوي والدجاج ، والحلويات المحشوة بالفواكه ؛ وكانت هذه الوجبات تحضر باعتناءٍ رفيع . وكان هناك مطربون وموسيقيون يحيون حفلاتهم في تلك المآدب العامرة ، التي كانت تُضمّخها ألطف وأندر عطور الجزيرة العربيّة ، وتتصاعد في جوٍ مشبع بروائح ثمينة .

ظهرت القهوة المرة في القرن الثاني عشر ، بينما كان الشاي الصيني بالنعناع يحظى بتقديرٍ كبير منذ أمدٍ بعيد . أما استعمال التبغ ، فلم يدخل قط في تقاليد العرب قبل القرن السادس عشر .

لا يمكننا ختم هذا الفصل دون أن نذكر عادات وقواعد وأصول اللياقات التي كانت تفرض نفسها في سياق المآدب والاستقبالات . هناك كتاب في أدب الحياة وفن العيش في ذلك العصر ، يشير إلى أنّه من الضروري التصرُّف بتهذيبٍ رفيع ، والتحلّي بآدابٍ لائقة ، وعدم إظهار ما يسيء إلى كرامة أحد . فمن المستحسن الامتناع عن أي هذرٍ أو مزاح فاحش وغير مناسب ، وارتداء ملابس مناسبة ، نظيفة ومرتّبة . وفي أثناء الطعام ، يجري بكل اعتناء تجنّب تناول الكثير من حساء البصل أو الثوم والبهارات ذات الروائح الشّديدة ، كما يجري تجنّب مصّ الأصابع على الطاولة وتنظيف الأسنان أمام الآخرين .

الفصل الثامن

تطور الدولة والأمة

قيل إن إسم الإسلام يمكنه ارتداء ثلاثة معانٍ مختلفة ؛ فهو أولاً دين ، ثم دولة وأخيراً ثقافة ، وهو باختصار حضارة واحدة .

فتعليم البدو الفوضويّين والفرديّين ، الانضباطَ الاجتماعي والعسكري ، بعد الانضباط الديني ، إنما كان يعني الوعظ في الصحراء ، قلْباً وقالباً . ومع ذلك تمكّن محمَّدٌ من إلحاق أولئك الرجال الشرسين بضروراتٍ كانت غريبة جداً عن طبعهم وطبيعتهم . ولكن عند وفاته ، كما قيل ، اعتبرت بعضُ القبائل أن الخليفة لم يكن منتخباً من جانبها وأنَّ أعيان المدينة لم يكونوا مؤهلين إطلاقاً لحكمها . وبعد ما أعلنت انشقاقها وارتدادها ، سارت إلى المدينة ذاتها . وسادت فترةٌ من الفوضى العامَّة .

في عدَّة معارك قصيرة وضارية ، تمكّن الخليفة أبو بكر (المتوفى في المدينة 634) ، والد عائشة ، زوجة محمَّد ، وخليفته ، بمساعدة خالد (582 -642) . « سيف الإسلام » من فرض سلطان الشريعة القرآنية بقوَّة السلاح ، وفرض في الوقت نفسه شريعته الخاصَّة به . فالقادة المسلمون ، تلامذة محمَّد المتحمّسون ، كانوا يصلّون بقدر ما كانوا يُقاتلون ، فما كان من ذلك الإيمان الشديد ، الذي كان مستولياً على جحافل جيشهم ، إلاّ أنْ أدهش خصومهم وأثّر في أعماقهم . وبعد ما أُعيد المرتدّون إلى الصراط المستقيم ، تجدَّد تحقيق الوحدتين الدينيَّة والسياسيَّة في ظلّ سلطة شخصٍ واحد . وجرى إنشاء الدولة الإسلامية من كل لون .

شاء المؤرّخون أنْ يروا في توسّع الإسلام وتشكيل الدولة والأمة العربيّتين ،

نتاجَ مخططات موضوعة مسبقاً ، بعد تأملاتٍ ناضجة وحكيمة .

ففي حياة محمَّد ، ربما وُصف بالجنون أي شخص يجرؤ على توقّع أحداثٍ كهذه ؛ كما لم يخطر على بال أيٍّ من الخلفاء تطوّر مشروع هائل كهذا المشروع . ولئن كان هناك منطق في تعاقب تلك الوقائع الخارقة ، فهو يكمنُ فقط في الاستثمار الواسع جداً لتلك الظروف المؤاتية .

على الدوام كانت القبائل العربيّة في العمق وإلى حدٍ ما ، خارج حدود الجزيرة العربيّة . فجأةً أدرك البيزنطيّون أنّ تلك القبائل كانت تزداد توغلاً في العمق ، وأنّ غزواتها صارت مألوفةً أكثر من أي وقتٍ آخر . ومهما تكن تلك الهجمات ملبّيةً لغرائز مزمنة لدى رجالٍ اعتادوا على الاقتتال الداخلي ، فمنعوا من ذلك فوق أراضيهم ، فإنّ ضمان توسع فتوحاتهم ربما يرجع إلى تشجيع حملاتهم الكبيرة واتساع عنفها . فعندما ظهر خالد فجأة بالقرب من دمشق ، بعدما تخبَّط في بلاد الرافدين السفلى ، إنما كان ظهوره لمد يد العون إلى بعض القبائل التي كانت تحارب البيزنطيّين ، ومع ذلك قيل إنه هبط عليهم من السماء . كان خالد يثقُ بتلك القوّات الطليعيّة ، المدرَّبة تدريباً رائعاً ؛ وكان يسير أمامهم على خط مستقيم ، في صحراء خالية من المعالم والمياه .

هناك حراكٌ مدهش ، يعتمد على تناسق مرموق بين العناصر المجتمعة ، هو نتاجُ تكوينات قيادية ناشطة ؛ وكانت تلك التعبئة الحركيّة شيئاً جديداً وكان في مستطاعها التعويض عن قلّة عدد القبائل المحاربة . وعلى هذا النحو تراءى لأعين العرب ، فجأةً ، أنّ المستقبل كان يدعوهم إلى النّصر والفتح . من جهة ، كانت أرض الجزيرة العربية المجدبة عاجزةً عن إطعام سكّان يتزايد عددهم باستمرار . أخيراً ، كان ضعف بيزنطة وفارس ، اللتين انحدرتا إلى الحضيض ، يدعو العرب المسلمين إلى مهاجمة الامبراطوريتين ، مع العلم أنّ عدّة قبائل كانت تحرّض على مساعدة إخوتها المسلمين .

ولقد اقتنع العربُ ، على غرار محمَّد ، سواء بالعقل والضرورة أم بالعقيدة ، أنَّ في إمكان الإسلام ومن واجبه أنْ ينتصر بقوّة السّلاح . والخليفة عُمَر (634 -644) ، الذّكي والناشط ، المسكون بهذا الفهم الديناميكي

للإسلام ، لم يبذل جهداً كبيراً لكي يقنع المؤمنين الذين وعوا فجأة عظمةَ رسالتهم وضخامتها . غير أنَّ عمر ، الحليم والكريم ، تعينّ عليه أن يعفي خالداً من مهامه ، رغم أنَّه أشاد كثيراً بشجاعته ، وأخذ عليه قسوته وشراسته . إن هذا الجزء النموذجي أظهر للعرب أنَّ رسالتهم لا تكمن فقط في أن يكونوا جنوداً ، بل تكمن في كونهم روّاداً ورسلاً للإسلام .

منذئذٍ أفصح الفتح العربيّ عمّا كان في إمكان البسالة والإيمان أنْ يحقّقاه . جرى الاستيلاء على دمشق سنة 635 ، وعلى انطاكية سنة 636 ، وبيت المقدس سنة 638 ، وكل بلاد الشام سنة 640 ، وفارس ومصر سنة 641 ؛ كان الفتح يجرّ الآخر . وهكذا في أقل من عشر سنوات بعد وفاة النبيّ ، صارت قبضَةٌ من الجنود مهيمنة على امبراطورية مترامية الأطراف . من الآن وصاعداً ، صارت القبائل العربيَّة تعيش من البلاد الجديدة ، تستوطنها وتتكاثر فيها بسرعة ، بينما كانت تتوافد إليها قبائلُ أخرى لتوطيد نفوذ العرب والتعريب ، من خلال التخالط مع السكّان الأصليين الذين كانوا يعيشون في ظروفٍ حياتية مماثلة : كانوا يأتون من كل حدبٍ وصوب ، من الشمال إلى الجنوب ، من الشّرق إلى الغرب ، من بلاد فارس إلى طرابلس الغرب . ومع ذلك ، عبر تلك الأمصار الواسعة والأقوام الغريبة ، ظلّ العربُ أقليّة متواضعة . إن هذه الأقلية الفعّالة - هذه هي الصفة المناسبة للعرب - ، الأقليّة الذكيَّة والباسلة ، لم يطل بها الأمد لكي تكتشف أن الأمصار المفتوحة كانت منحلّة بلا شك ، لكنّها كانت حسنة التنظيم ؛ ولذا لم تبدّل شيئاً من النظام الإداري القائم فيها . كان عُمر قد حظّر على رعيته الإستيلاء على الأراضي ، وذلك للحفاظ على الطبقة العسكرية ومزاياها الحربية الرفيعة . بالطبع ، كان الغالبون يفرضون على المغلوبين الحد الأقصى من المكاسب الاقتصادية والماليَّة ، ولكنَّهم لم يحدثوا أي تغيير سياسي أو ماديّ . وفوق ذلك ، وخلافاً لكل ما يمكن اعتقاده ، عرفوا كيف يتجنّبون الوقوع في أية تبشيريّة دينيّة ، وذلك دليل على مدى لياقتهم ومرونتهم الرائعة ، وعلى مدى فهمهم الحقيقي للسياسة . ففي مقابل خراجٍ وجزيةٍ ، كان السكان المحليّون يحتفظون ، في ظل الفتح ، بدينهم التقليدي . هكذا ، كان النظام الحياتي القديم مستمراً كما في الماضي ، وتجدّدت الحضاراتُ القديمة والهلينيّة من خلال الثقافة

الإسلاميَّة التي كان لا بد من تطورها ونموها فوق أسس تلك الحضارات ؛ الأمر الذي جعل الشعوب الداخلة في الإسلام تنسى ماضيها التاريخي الخاص بها ، فتمزجه مع الحاضر كما لو كان الإسلام موجوداً ، لديها ، من قبل . ولربما لم يحدث أبداً انصهارٌ أكمل من ذلك الانصهار .

إنَّ الخليفة الفاضل ، عُمَر ، الذي كان يتأذى من رؤية شعبه ينزلق وراء الثروة ، جرى اغتياله سنة 644 . ومات خليفته عثمان ، مقتولاً ، سنة 656 . عندئذٍ ، قام الحزب الهاشمي ، الممثل للديمقراطية البدويّة ، برفع عليّ إلى سدّة الخلافة ؛ عليّ ، صهر النبيّ ، وابن عمّه لأبيه . إلّا أنَّ الطبقة الأرستقراطية الممثلة للقبائل القرشيَّة ، التي يقودها أمويٌّ شديد المهارة والذكاء ، معاوية والي الشام ، تمردّت على عليّ الذي قضى مغدوراً على أيدي غُلاة حزبه بالذات ، الخوارج المساواتيّين . عُيِّن معاوية خليفةً سنة 661 ، فأقام عاصمة الخلافة في دمشق وأحاط نفسه بجهازٍ ملكي ، منسوخ عن بيزنطة وحكومة ملك الملوك . عندها قام بقلب الخلافة مُلكاً ، وحل مبدأ الوراثة محل مبدأ الشورى والانتخاب الذي كان يمارسه كبار الصحابة وقادة الرأي والجماعة حتى ذلك الحين . منذئذٍ ، ظهر أن عشيرة مكّة الأرستقراطية قد كسبت جولتها مع محمَّد : فقد تحوَّلت جمهورية الخلفاء الثيوقراطية إلى مملكة زمنيّة ووراثيَّة . كان معاويةُ إدارياً كبيراً وسياسيّاً رفيعاً ، فأنشأ أول مجتمع إسلاميّ منظَّم . وعلى الرغم من بعض فترات الكسوف والانتكاس ، سيكون العصر الأموي ، الذي سيدوم قرناً من الزَّمن ، عصراً مجيداً من عصور الإسلام ؛ إذْ يعود لهذه السلالة الفضل في تزويد هذه الامبراطورية الهائلة ، الممتدة من النيل إلى الهند ، بحكومة ليبراليَّة وذات نهجٍ سياسيّ .

ولكنْ في أقاصي مملكة الإسلام الشرقي ، لم يكن الفرس والمصريّون يتحملّون هيمنة دمشق السياسية . وآخر الخلفاء الثلاثة ، أبناء أُمهات عبدات ، لم يكونوا من دم عربي خالص . كما أن سليلي النبيّ أُصيبوا بصدمة كبيرة من جرّاء الأخلاقية الأموية المتساهلة ، والمتسامحة حتى على الصعيد الديني ؛ زدْ على ذلك ازدياد حدَّة المنازع الإنفصاليَّة لدى القبائل يوماً بعد يوم . فالفردية العربية التي حاربها محمَّد بشدَّةٍ ، كانت تظهر مجدَّداً باستمرار ، وتبدأ كأنَّها العقبة الأولى أمام

قيام قوة موحّدة ، رغم كل محاولات القادة الفعّالين الرامية إلى احتواء الفرديّة . عندها قام قريب لعم النبيّ ، أبو العبّاس ، بجمع المنشقّين والقوى المعادية في تحالفٍ واحد ، وأمر بقتل جميع الأمراء الأمويين ، حتى يتجنّب عودة سلالتهم نهائياً إلى الحكم ، وأعلن نفسه خليفة ، باسم السفّاح ، ونقل عاصمة الخلافة إلى بغداد سنة 750 .

غير أن الخلافة العباسيّة ، المولودة في حمّام دم ، كان لا بدّ لها من المرور في حقبة مشرقة تمكّنت خلالها من زيادة الرّفاه والفخامة في آنٍ ، وشجعت ازدهار الآداب والعلوم والفنون . وسوف تسطع سطوعاً شديداً على امتداد القرنين التاسع والعاشر ، وسوف يترتّب على سطوعها الروحي والسياسي قيام العصر الذهبيّ للحضارة العربيّة . بعد موت أبي العبّاس ، سنة 754 ، خلفه المنصور الذي قام بتركيز سلطان السلالة على ركائز متينة . ومع خالد البرمكي الذي اختاره المنصور وزيراً له ، دشّن عصر الازدهار والرخاء ، الذي سيقطف هرْون كل ثماره ، والذي سيكون عهدُه العهد الأشهر في تاريخ العصر الوسيط . وأثبت وزيره ، يحيى البرمكيّ ، أنه من أفضل إداريي الامبراطوريّة .

ربما لم يحدث في التاريخ أنْ جمع بلاط ملكي مثلما اجتمع في بلاط هرْون الرشيد من كفاءات عقلية رفيعة . فلم يكن الخليفة ذوّاقاً وفناناً وحسب ، بل كان يجيد الحكم ويحمي حدوده ويقود جيوشه في الحروب ، ويقضي بالعدل . وهو على الرغم من تساهلاته ، ومن كرمه ، وحتى على الرغم من أعطياته التي لا تزال بلا نظير حتى اليوم ، كان قد ترك في صناديق الخزينة ، عندما توفي وهو في الثانية والأربعين من عمره ، ما ينوف عن 48 مليون دينار (نحو مئة مليار فرنك قديم) . ولما كان قد ترك امبراطوريته بين يدي ولده المأمون ، كان يفترض بهذا الأخير أن يسير على خطى الخلفاء الكبار . وبأفكارٍ نيرّة وحكيمة ، أحسن المأمون تقبّل ممثلي كل العقائد في الامبراطورية ومن بينهم المفكّرين الأحرار ، وأدخلهم جميعاً في مجلسه . فهو أديبٌ متنوّر ، طوّر الآدابَ ورعاها ، مثلما رعى العلوم والفنون ، ووفّر لها الانتشار عبر العالم . وبتشجيعٍ منه تم نقل الكتب اليونانية على نطاقٍ واسع إلى العربيّة .

كان الإسلام قد بلغ ذروته عندئذٍ .

الباب الثاني

ذروة الحضارة العربية

الفصل التاسع

الحياة الاجتماعية

في العصر الذي بدأ مع الخلفاء الأربعة ، كان سكان الامبراطورية موزّعين على أربع فئات . في القمّة ، الخليفة وأسرته ، وأرستقراطيّة الفاتحين العرب ؛ يليهم المسلمون الجدد الذين كانوا قد اعتنقوا الدين الإسلامي ، لمصلحةٍ أو عن قناعة ، فصاروا يتمتعون مبدئياً بمكانة المسلمين الحقوقيّة ؛ أما الطبقة الثالثة فكانت مكوّنة من الذمّيين أو ممثلي الملل المسموحة أو الأديان التوحيديّة المنزّلة : النصارى ، اليهود أو الصابئة الخاضعين لسلطة رؤسائهم الروحيّين ؛ أخيراً ، يشكّل العبيد آخر فئات المجتمع الإسلامي .

من المعروف أن العرب لم يحملوا معهم ثقافةً خاصة بهم . فهذه ظلّت بوجهٍ خاص سوريّة ، هنديّة ـ فارسيّة أو يونانية طيلة العهد الأُموي الذي لم يتمكّن ، بسبب الظروف المضطربة ، إلّا أن يكون مرحلة حضانة وتخمير . إلّا أن القادمين الجدد لم يتأخروا عن استيعاب فنون السّلم ، فاستفادوا من مهارة الأعراق المغزوّة وتقنيّتها ، وتوصلوا بسرعة إلى ابتكار فن أصيل سجّل أول تعبيرٍ له في العمارة الدينيّة . كما أنّ التقدم على الصعيد الأدبي تجلّى بشكلٍ عظيمٍ وكوّن ركيزةً للازدهارات الرائعة في العصر العبّاسي . أمّا نفوذُ الخلفاء فقد ساد حوالى القرنين ، وعندما ظهرت الدول المستقلة كان سلاطينها يقيمون سلطانهم على أساس القرآن ، حتى وإن كانوا من غير العرب أو معارضين لبغداد سياسياً

ودينيّاً . وهكذا مضى قدماً تعريبُ الشعوب وإسلامها :

من المفيد أن نلاحظ أنَّ توسع الحركة الإسلاميَّة عبر العالم لا يشكّل أي وجه للمقارنة مع تطور وانتشار المسيحية ، التي تعينَّ عليها كسب الجماهير من خلال مثال الرحمة والمحبّة واللاعنف . « أحبّوا بعضكم بعضاً » ، هكذا كان يبّشر المسيح ورسله . ولربّما كان النبيُّ مُحقّاً ، على صعيد إنسانيّ أكثر وأقل شأواً ، في أن يبينّ أنَّ المثل الأجمل لا يمكنه الاستغناء عن إظهار قوَّة سياسية وقدرة عسكرية . والحقيقة أن السرعة الخارقة لتطور الإسلام دينياً لم تكن النتيجة المباشرة لمناوراتٍ سياسيَّة وتقدّمات حربيَّة .

الإدارة

تحت رقابة الوزراء الموجلين بالسُّهر الشديد على الموظّفين وإدارة سياسة الدولة ، تكوَّنت في ظل العباسيّين إدارة مركزيَّة وإقليميَّة كان يتعينَّ عليها توفير استمرار الامبراطوريَّة رغم تبدّل السلاطين وثورات البلاط وانقلاباته . غالباً ما كان الوزراء يُختارون من بين أفراد أسرة واحدة ؛ وكانت أشهر البيوتات الوزيرية ، بيوت البرامكة والمهلبيّين والعميديّين والمُلكيين ، وكلهّم إيرانيّون . ولئن كان بعضهم ، كالبرامكة مثلاً ، قد عرفوا مصيراً مأساوياً على الرغم من قوّتهم الهائلة ، فإنَّ الكثيرين منهم عرفوا كيف يحافظون على مكانتهم بكل مهارة . ومثال ذلك أن عائلة المهلبيّين احتلت أرفع المناصب على امتداد عشرة أجيال ؛ وتوصّل أربعة من أفرادها إلى قمّة المراتب واستطاعوا البقاء فيها ، لدرجة أنَّ هذه السلالة من كبار الموظفين ، الشديدة القوَّة والثروة ، انتهت إلى إقامة دولة داخل الدولة .

من الزاوية الإدارية ، كانت إدارات الجيش والأموال تُعتبر من الأمور الأوليَّة . فقد كانت الخزينةُ مزوّدةً بجهاز كبير من الموظفين ؛ وتأتي بعدها ؛ إدارات البريد التي كانت تتعاطى الشؤون الخارجيّة والشرطة والبريد وديوان الشكاوى الذي يمكنُ تشبيهه بطريقة ما بمحكمة استئنافية قضائيّة وإدارية . أما الموظّفون ، وهم في أغلبهم من غير المسلمين ، فقد كانوا كثيرين ومنتظمين في أجهزة مهنيّة مماثلة للنقابات الحديثة . كانوا يتقاضون معاشات جيّدة ، وسرعان

ما حصلوا في القرن العاشر على يوم عطلة اسبوعي (الجمعة) ، الذي أُضيف إليه يوم آخر (الخميس) .

الـقـانون

القرآنُ هو مرجع الشرع والقانون ، وكان فقه القانون فرعاً من الفقه وعلم الكلام . لكنَّ القضاة سرعان ما وجدوا أنفسهم ، في مواجهة كثرة الحالات غير المعروفة ، مضطرين للاستعانة بالسنّة ؛ وهكذا صارت الأحاديثُ المصدر الثاني للتشريع .

كان الخليفة يختارُ القضاةَ بنفسه من بين علماء الشّرع المسلمين . فالقضاة طبقة قويَّة ، كانوا يتميّزون في آنٍ بسلطة الطبقة المقدسة وطابعها الرفيع . فهم على الدوام استنسابيّون / انتهازيون تقريباً ، يوحون الخوفَ أكثر مما يوحون الوقار ، متحفّظون بقدر ما يحترمون سلسلة المراتب ، ويؤيّدون السلطان في حكمه المطلق ، لكنَّهم كانوا يظهرون تحسّساً بالمؤثّرات والمتغيرّات . ويروى أنَّ محمَّداً لم يكن ينزعج من القول إن إثنين من كل ثلاثة قضاة هما في النّار ؛ ويُقال اليوم إنهم لا يستحقون الحَبْلَ الذي يُشنقون به ؛ ولكنّ مهما يكن القول فإن المتقاضي لم يحبّ القضاءَ أبداً . كان القضاة مؤهّلين للنظر في كل الجنح ، ما عدا الحوادث الجنائيَّة التي كانت من اختصاص الشرطة العليا . كانت محكمتهم تجتمع إلى جانب الجامع الكبير ، وكانت الجلساتُ علنيّة . كان القضاة يمثّلون القضاءَ وقوّته الكبرى ، يساعدهم في وظيفتهم ، أمين سر ومباشر وضابط وبعض الحَرَس المكلفين بفرض احترام النظام والأمن العام . ومثلما حدث لكبريات الأسر الوزارية ولكبار الوزراء ، تكوَّنت سلالاتٌ قضائيَّة حقيقيَّة توارثت القضاء صاغراً عن كابر ؛ فعلى مدى قرنين شكّلت أسرة أبي شوارد في بغداد ، وأسرة أبي بُردة في شيراز سلالتين شهيرتين من قضاة كبار فرضوا أنفسهم بسهولة كبيرة نظراً لأنَّ سمعتهم النزيهة والشريفة كانت راسخة بقوّة . وكان هناك في الأوساط العدليَّة ، فضلاً عن مختلف درجات القضاة ، مهنة تسمّى مهنة « الإنسان العادل » . وكانت تلك الوظائف قريبة جداً من وظائف وكلاء الدّعوى الحاليين ، فشاء العرف أن يجعلها قابلة للتفاوض والتوارث بالطريقة ذتها التي يجري فيها اليوم

التفاوض والمساومة حول شراء أو بيع دراسة لكاتب بالعدل ، لوكيل دعوى أو مباشر محكمة . كما كان هناك محامون ، ولكنّ مهنة المحاماة كانت مملّة جداً وسيئة السمعة ، حسبما جاء في وصف أحدهم ابن الحوّاء : « لئن كان المحامون هم وصمة عصرنا ، فذلك لأن معظمهم منافقون ، يتقاضون من الطرفين بدل أتعابهم ويستغلّون معرفتهم القانونيّة لكسب القضايا غير العادلة وخسارة القضايا العادلة ، حسبما يكون لهم مصلحة . الحقيقة أنهم غير موجودين إلاّ لبلبلة الضمائر » .

كان الإسلام السنّي يعترف بأربعة مذاهب فقهية . مذهب أبي حنيفة (767) في القياس ، كان يقول : إن « الحكم القضائي يعبّر عن عادة عامّة ويتبدّل بتبدُّل الظروف التي انتجته » . ووقف مالك (795) في وجه كل نزعة تقدميَّة ، مستنداً إلى دراسة 1700حديث حقوقي ؛ وكان يرى أنّ إجماع الرأي في المدينة ، حيث كانت الأحاديث قد ولدت ، هو معيار التأويل . ومن جهته كان الشافعي (819) راغباً في توفير قاعدة أوسع ، فكان يضع العصمة في إجماع الأمّة الإسلاميّة بأسرها . وحين وجد أحمد بن حنبل (855) هذا المعيار غامضاً جداً ، قام بتأسيس مذهب رابع ، أشدّ امتثاليّة ، يحدّد الشريعة بالقرآن والأحاديث . على الرغم من تلك الخلافات في الآراء وعلى الرغم من اختلافها المبدئي ، فإنّ تلك المذاهب الأربعة لم تكن مختلفة حول السنّة ، لكنّها كانت تكثر من التعاليم والقرارات . عمليّاً لا يزال التشريع القرآني راسخاً في أساس حياة المؤمن ، نظراً لأن الفكر والاقتصاد والأخلاق لم يتعرّض لأي تبديل أو تعديل عميق .

المكلّفُ والضريبة

في الأزمنة البطوليّة لم يكن الإسلامُ يعترف إلاّ بثلاث ضرائب : الضريبة العقارية وقيمتها 10٪ ؛ الصّدقة ، وهي ضريبة « الضمان الاجتماعي » التي يدفعها المسلمون فحسب ؛ والجزية التي يدفعها كل الذمّيين بدلاً من خدمتهم العسكرية . أما الضرائب الأخرى ، الناشئة عن تطور المؤسسات ، فقد كانت تُعَدُّ ضرائب « معيبة » ، لا سيما الغرامة المفروض على العاهرات .

لتحديد ضريبة الخراج (الضريبة العقارية) ، كان يؤخذ في الحسبان

خصبُ الأرض وسهولة الرّي . فكانت الاستمارة الكبرى تخضع لضرائب أعلى من زراعة الخضار . ولكن العقوبات كانت شديدة في حال الامتناع عن الدّفع : المصادرة ، السجن ، الجلد . وشيئاً فشيئاً ، خفّت تلك العقوبات الصارمة ، إلى حد أنّ الدولة كانت تضطر للتراجع والإذعان للضغوطات والاحتجاجات ، كلما حاولت العودة إلى تلك العقوبات .

ومن خلال فرض الضرائب غير المباشرة انكبّت عبقريّة الوزراء على اكتشاف مصادر جديدة للعائدات . ومثال ذلك ابتداع إدارة حصر الثلج وخيطان مشاقة الحرير ، وادارة حصر الحرير وماء الورد ؛ وعلى الرغم من صعوبة حصر المشروبات الروحية المحظورة مبدئياً في الأقطار الإسلاميّة ، فقد تمكّنت الضرائب والغرامات من بلوغها . كذلك ، وعلى الرغم من كون الشريعة الإسلاميّة تحرّم الضرائب الجمركيّة ، كانت تُجبى بلا شفقة عدّة ضرائب وغرامات مفروضة ليس فقط على الحدود الإسلاميّة ، بل عند الحدود الداخلية أيضاً التي كانت تفصل الدول الإسلامية عن بعضها ، وفي بعض الأحيان كانت تلك الضرائب مفرطة وفاحشة . فكانت تتراوح ما بين 10 و 20٪ من القيمة الذاتية ، وذلك وفقاً لنوع السّلع والأحداث السياسيّة الراهنة . ومهما كان الأمر ، ففي أشد الفترات صعوبةً ، كان استغلال الدولة للإنسان لا يبلغ في الأراضي الإسلامية المبلغ الذي كان يصل إليه في العالم الآسيوي القديم أو في مصر الوثنية وحتى في المسيحية . فمما لا ريب فيه أنّ الإسلام عرف البؤس والتسوّل ، إلاّ أنّ الإعانة الفردية لم تغب أبداً ، وظلّت الزكاة ركناً من أركان الدّين ، والتاريخ ممتلىء بتصرفات كريمة ؛ وتصرُّف الحسن الكريم الذي تقاسم أملاكه ثلاث مرات مع الفقراء ووزّع مرّتين كل ما كان يملك ، ليس مثلاً فريداً في هذا التاريخ .

الـذمّيون

لئن كان الوثنيّون خارج الأمّة الإسلاميّة ، فإنّ إسم « ذميين » كان يُطلق على غير المسلمين المقيمين على أراضي الإسلام ، والمنتمين إلى أديان منزّلة ، سواءٌ كانوا جماعات مسيحية أم مذاهب يهودية أو صابئة .

كان عدد المسيحيين يتجاوز الخمسمئة ألف في بلاد الرافدين ، وأربعين

ألفاً في بغداد و 12 مليوناً في مصر ؛ وبما أنهم كانوا في أغلبيتهم فلاّحين أقباطاً يوفّرون الثروة للفاطميّين ، فقد تعيّن عليهم أن يتلاشوا شيئاً فشيئاً ، لا من جرّاء اعتناقهم الإسلام ، بل من جرّاء انطفائهم وانقراضهم . وكان عدد اليهود ستمئة ألف في بلاد الرافدين السُّفلى وحوالى المليون في إيران ؛ وكانوا يقيمون بأغلبيتهم متخفّين في المدن حيث يتعاطون الأعمال التجارية ، لا سيما في المدن الإيرانية . ونظراً لتمسكهم الشديد بتوحيدهم ، تمكّنوا من الحلول محل التجار الهنادكة الذين طردوا بتهمة الوثنيّة . إلاّ أن اليهود لم يتمكّنوا ، على الرغم من قوّتهم الاختراقية ومن شراستهم ، من التغلغل بسهولة في فلسطين رهودا حيث كان السكان الأصليّون المسيحيّون، الذين لا يقلّون عنهم مهارةً وخبرةً، بنافسونهم بشدّة .

أما الصابئون اللاجئون في بلاد الرافدين السفلى فقد كانوا ملاّحين ممتازين ، صيّادي لآلىء في معظمهم ، فكانوا يكمّلون لائحة الذمّيين ، مع الفرس الزرداشتيين ، المنتشرين في بلاد الرافدين ، والمزدكيين الذين كانوا يقطنون بلاد القوقاز والأمصار الواقعة على ساحل بحر قزوين .

في عصور الإسلام الأولى ، كانت حياة الذّميّ صعبةً ، وبالتالي لم تكن حياته ذات قيمة ؛ وإليكم مثلاً حسّياً سيعطي عن حياته صورة دقيقة . في أحوال القتل غير المتعّمد ، كان على القاتل دفع ديّة يحدّدها الشّرع . والحال ، إذا كان الضحية مسلماً يتوجب دفع الديّة بكاملها ، أما إذا كان الضحية من أصل يهودي أو مجوسي فإن الديّة كانت تصل على التواصل إلى 33٪ و 6٪ . وعلى الرغم من التسامح الكبير ، فقد كان الذميّون يرغمون على ارتداء ملابس عسليّة اللون وأن يسكنوا أحياءً معيّنة وأنْ يضعوا صوراً فوق بابهم تمثّل الشيطان . فوق ذلك كانت تُفرض عليهم بعض المحرمات : مثلاً منعهم من ركوب الخيل والإدلاء بشهادة أمام المحاكم الإسلاميّة « لأنهم زوّروا في الماضي كتبهم الخاصّة بهم ، فما عادوا جديرين بأيّة ثقة » .

بيد أنّ الخلافة الأُمويّة أظهرت تجاههم تسامحاً كبيراً جداً . فتركت لهم حرية إقامة الشعائر الدينية والاحتفاظ بكنائسهم . وبعد ذلك بقليل ، في عهد العبّاسيين ، كان يُنظر إلى طبقة الذميّين تارة بحلم وتسامح ، وتارة بشدّةٍ . وفي كل حال كانت تعامل دائماً بتساهل كبير على صعيد الحريّات الدينيّة . ولم يكن

اليهود وحدَهم يفضّلون شريعة الإسلام على القانون المسيحي ، بل كانت الهرطقات المسيحية ، التي اضطهدها البطاركة في الماضي ، تنظر إلى السلطة الإسلاميّة بوصفها شرّاً أقلّ من شرّ بيزنطة . ولقد ازدهرت الأديرة والمناسك والكنائس اليهودية والمعابد لدرجة أنّ الإسلام في عهد المأمون ، في مطلع القرن التاسع ، كان يملك فوق أرضه أكثر من 11000 كنيسة مسيحية ، وبضع مئات من الكنائس اليهودية ومعابد النّار .

في القرن العاشر ، صارت الحياة العامّة أفضل بكثير ، فبدأ الذميّون يتكوّنون في مُتّحدات ودوائر . ومنذ ذلك الحين ، تُركت لهم حريّة إدارة ذاتهم بذاتهم بإشراف رؤسائهم المختارين من قبلهم ؛ ووضع في تصرّفهم قضاتهم وقوانينهم ، وسُمح لهم بدخول الوظائف العامّة ، باستثناء وظيفة القضاء . وسرعان ما صار الذميّون أطباء وممرّضين عامّين ومصرفيّين وصرّافين وتجّار جملة ، وشكلّوا نوعاً من أنواع الاختصاص في أوساط المتحدّرين من شتّى الملل أو الأديان ؛ فكان رجالُ المال من اليهود بوجهٍ عام ، والأطباءُ من المجوس ، والكتبة من النّصارى ، وغدا عدد منهم في عداد القضاة والوزراء . ولقد تكرّرت هذه الظاهرة لدرجة أنّها أصبحت غالبة ومألوفة . زدْ على ذلك أنّ المراكز الرفيعة التي تبوّأها المسيحيون واليهود في مصر ، في عهد العزيز الفاطميّ ، أواخر القرن العاشر ، راحت تثير حفيظة الفقهاء والشعراء .

في منتصف القرن الحادي عشر ، وعلى الرغم من بعض الآيات القرآنية غير المؤاتية ، غزا اليهود أرفع المناصب ، وتمكّنوا من إزالة الذميّين الآخرين . فقد شغل يهوديٌّ وظيفة الوزارة في القاهرة العتيقة ، وتولّى آخران ، أبو سعد والتُستري ، إدارة الامبراطوريّة . ومنذ الآن فصاعداً ، صار الهجاءُ والتهكُم يطاردانهم بشدّة ولم يقفا عند حدّ :

ها هم يضمّون حكمَ الإسلام إلى المصرف
فهم مستشارو دولةٍ وسلاطين
فيا أيّها المسلمون ، تهوّدوا
لأنّ السماءَ ذاتها صارت يهوديّة

الجيـــش

إذا كانت الخدمة العسكريّة لدى المسلمين ، لم ترتدِ طابعاً إلزاميّاً في المعنى الذي يُعمل به اليوم ، فقد ظلت مع ذلك واحداً من الواجبات الرئيسة المفروضة على كل مؤمن ، فتحت لواءِ الإسلام ، كان المحاربُ العربيُّ يتقاضى معاشاً جيّداً ويتمتع بنفوذٍ كبير .

كانت الخيّالة تكوّنُ السّلاحَ الطليعي ، الأداة الحاسمة للمعركة في الصدامات الأولى . إذْ كانت سرعتها مذهلة ، وكان القادةُ العرب يُحسنون الإختيار والتعرُّف إلى الميادين المناسبة لإظهار مزاياهم التكتيكيّة . وكانت الخيّالة الخفيفة مزوّدة بالحربة والوَهْق ؛ أما الخيّالة الثقيلة ، المُدرَّعة بالحديد، فكانت تحاربُ بالدبّوس والحربة .

في القرن الحادي عشر ، كان الرّاجلُ العربي مزوّداً بالقوس والقذّافة ، بالخنجر والزّرد ، قبل الغربيّين بمئتي عام . وكانت القذّافة تُستعمل لغرضين ، فهي لم تكن تسمح فقط بإطلاق عدّة أسهم في وقتٍ واحد ، بل كانت قادرة على قذف عدّة قذائف رصاص لمسافةٍ بعيدة . كانت توضع فوق منصة إطلاق ثقيلة ، وكانت في بعض الأحيان معدّلة لإطلاق حرباتٍ ذات قوة كبيرة لدرجة أنها كانت قادرة على اختراق الصفائح المعدنيّة . وهناك نموذج رابع من المعدّات قائم على المبدإ ذاته ، كان لا بد له ، بعد ذلك بقليل ، من السّماح بإطلاق عدّة رماح ثقيلة معاً . وفضلاً عن الأسلحة التي أشرنا إليها ، كانت مدفعيّة المسلمين ثقيلةً ومعقّدة ، لكنّ تصويبها كان دقيقاً . فهي لم تكن تُستخدم فقط لقذف مقذوفات متنوّعة ، بل كانت تسمح أيضاً بالرّمي البعيد المدى للزّاج ، للنار الحرّاقة ومواد حارقة أخرى .

« كان يبدو ذلك كأنّه صاعقة تسقط من السماء ، كأنما تنّين يتطاير في الهواء ؛ وكان يقذف نوراً باهراً لدرجة أنّه كان يضيء داخل عظمنا كالنّهار ، لشدّة ما كان هناك من لهبٍ شديد » .

هكذا ، كان جوانفيل يرسم آثار تلك النيران اللاهبة .

وبعد ذلك بنصف قرن ، صار العربُ أول من صنع بارود المدفع واستعمله .

الفصل العاشر

الحياة الثقافية والفنية

التعليم

يُنسب إلى النبيّ هذا الحديث : « مَنْ ترك بيته بحثاً عن العلم ، إنّما يسير في طريق الله » .

في السّنة السادسة أو السابعة كان الولد يذهبُ إلى المدرسة التي كانت على العموم بالقرب من الجامع ؛ وكان التعليم فيها مجانياً أو بكلفةٍ في متناول الجميع ؛ وكانت مدّة التعليم خمس سنوات ، وكان لا بد للمعلّمين من حيازة ثقافة كافية ، وأن يكونوا متزوجين وناضجين . أما الدروس فكانت بسيطة وكانت تشمل القراءة والصلاة وتلاوة القرآن الذي كان الأولاد يتهجّون آياته . ثم ينسخونها بعد ترتيلها الجماعي . وكان لا بد للتلاميذ من الاجتهاد في تعلّم الكتاب بكامله ، وكان يطلق إسم « حافظ » على كل مَنْ كان يتمكّن من بلوغ هذه الغاية .

حدثَ تطوّر في القرن العاشر ، تحت ضغط الأحزاب المعارضة ، إذ كان كل منها يبذل جهده ليعلّم الشعبَ ، بلا شك ، وفقاً لأفكاره ومبادئه ، وكذلك ليرفع المستوى الفكري . وعندها وُضعت عدّة درجات تعليمية ؛ التعليم الإبتدائي أو الدرجة الأولى ، كان يرمي إلى تكوين الطبع . والثانوي كان مُناطاً بالدراسات الحقّة ، أما المعارف التقنيّة المتخصّصة ، فقد ظلّ اكتسابها محصوراً في نطاق الأصناف المهنيّة ، ويقوم بتقديمها المحترفون والحرفيّون وفنيّو المختبرات (المراصد) .

وسرعان ما جرى تنظيم المدارس الثانوية وتحوّلت إلى مدارس أو معاهد . فعلى غرار مدرسة المسجد ، كان التعليم فيها يُقدّم مجاناً . وكان التدريس يشمل النحو والصّرف ، فقه اللغة ، البلاغة ، الأدب ، المنطق والرياضيّات . وكان التلاميذ ، الجالسون حول المعلّم ، يتلقون تعليماً شفهياً أكثر منه كتابياً . وفي معظم الأحيان كانوا يذهبون بعيداً لاستماع العلماء الكبار في مكّة وبغداد ودمشق والقاهرة . وفي طريقهم كانوا يجدون المأوى والمأكل والتعليم مجانياً في كل مكان . وفي مواجهة التأثير الفكري للأحزاب اليسارية المتعاظم باستمرار ، أسس وزيرٌ سلجوقي المدرسة النظاميّة في بغداد سنة 1065 ، وصارت هي المؤسسة النموذجية ، فراحت المدن الرئيسة تنسج على منوالها . وكانت هذه المؤسسة الرسمية مدعومة من الحكومة ، وكانت تكلّفها تكاليف باهظة جداً إذْ كانت تُخصّص لها مبالغ طائلة . كان التدريس فيها يشمل القرآن والأحاديث ، الفقه والمذهب الشافعي ، فقه اللغة والأدب والجغرافيا والتاريخ والأثنوغرافيا وعلم الآثار وعلم الفلك والرياضيّات والكيمياء والموسيقى والرسم الهندسي .

في وقتٍ لاحق ، وفي بغداد أيضاً ، جرى إنشاءُ مركز إسلامي مشترك للحقوق والعلم والآداب والفنون : المستنصريّة . كان يُدرَّسُ فيها الفقهُ على المذاهب الفقهية الأربعة . وبما أنَّ تطبيق الأحكام كان يواجه صعوبات عمليّة ، لا يمكنُ حلُّها إلاّ بتأويل النصوص الشريفة ، فإن الفقهاء والعلماء اضطروا للإعتراف الرسمي بهذه المذاهب التأويليّة التي كانت غايتها الرّد على متطلّبات المسالك العباديّة الأربعة التي كانت تشمل الإسلام عامّةً ، والتي كان إسم كل منها يشير إلى إسم مؤسسها : الحنفيون في شرق إيران وأفغانستان وتركستان ، المالكيّون في افريقيا وإسبانيا وصقلّية ، الشافعيّون في الشام والعراق وإيران ، والحنابلة الذين كانوا يشملون بورجوازيي المدن . وكان ذلك بمثابة تنظيم ثقافي عام ، ذي طابع دولي ، ما لبث الغربُ أنْ قلّده حين جمع أمم الأقطار المسيحية الأربع في جامعة باريس ، واسترجعته الأونيسكو في العصر الحديث .

التبحُّر

في غضون خمسمئة سنة ، ما بين 700 و1200 ، ساد الإسلام على العالم بقوّة

حضارته وعلمها وأولويّتها .

فالإسلامُ ، وريثُ الكنز اليوناني العلمي والفلسفي ، نقله إلى أوروبا الغربية ، بعد إغنائه . وعلى هذا النحو تمكّن من توسيع الأفق الفكري أمام العصر الوسيط واخترق أعماق الفكر والحياة الأوروبيّين .

وكان الخلفاء والأمراء قد وضعوا في المقام الأول تطوير الآداب والفنون والعلوم ، فكانوا حماةً متنورين للفلاسفة والفنّانين ، يجيدون على الدوام تقريباً التصرُّف كرُعاة يسخون على أهل العلم والفن . ويستقبلون الشعراءَ وأهل العلم بكل ترحاب .

كانت الثّقافةُ قد وصلت إلى درجات العرش . في مراكش ، كان الخليفة النّاصر يتحاور مع ابن رشد حول أرسطو وأفلاطون . في وقتٍ كانت طبقة النبلاء الغربيّة تتباهى بجهلها القراءة . وفي قرطبة كان العلاّمة الأموي ، الحكَم ، يملك مكتبةً تضمُّ أكثر من 400000 كتاب ، بينما لم يكن ملك فرنسا ، شارل الخامس الحكيم ، أي العالِم ، قادراً بعد ذلك بأربعة قرون على جمع أكثر من ألف كتاب .

الواقع أن إنشاء الخليفة العبّاسي ، المأمون ، بيت الحكمة في بغداد ، كان حاسماً بالنسبة إلى تقدّم العلوم ؛ ورأى العلاّمة الموضوعي إبن خلدون ، في ذلك منطلقاً للإزدهار الإسلامي الساطع .

الفكر المستقّل

في المقابل ، مما يُعَّد مستغرباً هو أنَّ الكتّاب العرب لم يعيروا أي اهتمام للأدب اليوناني الواسع ، الذي كان لا بد لعصر النهضة الأوروبية من استنهاله بحماسٍ شديد .

الحقيقة أنَّ أعمال النّاثرين والمؤرخين ، وكذلك الانتاج المسرحي اليوناني الهائل ، الذي كان في مستطاع العرب تناوله بكل سهولة ، لم تكن مؤثّرة في النّفسِ الشرقيّة . ومما لا شك فيه هو ضرورة البحث عن مانع ديني مُعينٍ يقف وراء هذا الموقف المنهجي الكامن في محو صفحة ماضٍ مجيد . فلم يكن الأدبُ اليوناني قويماً ، وكان العلماء المسلمون يسعون ، طيلة فترةٍ كبيرة ، للتوفيق بين

الفلسفة اليونانية والقرآن .

لم يتخلّ المفكّرون والمؤرّخون ، إلاّ في وقتٍ متأخر جداً ، حوالى القرن الحادي عشر ، عمّا كان يشكّل حتى ذلك الحين المصدر الكبير ، المصدر الوحيد لإلهامهم ؛ ومثال ذلك أن إبن قُتيبة ، خلافاً لمعظم كتّاب كل البلدان آنذاك ، كان أول كاتب لم يتردد في وضع دينه في الأفق العالمي الذي يُفترض به أن يكون أفق المؤرّخ الشامل لكل الأزمان . والحقيقة من المناسب العمل على هذا النحو إذا كان المرء يرغب في التوصّل إلى فهمٍ متبادل للشعوب وحتى للبشر ؛ ذاك أن بسيكولوجيا المؤرّخ تفترضُ في آنٍ عقلَ الفيلسوف وعقل السياسيّ .

كما أنَّ هناك علماء مسلمين آخرين يشهدون لاستقلالهم الفكري في زمنٍ كان فيه التعبير عن أفكار مختلفة دليلاً على انفلاتٍ خطير ، على الرغم من تراث الإسلام المتحرِّر . يحلّل الشهرستاني في موسوعته « كتاب الملل والنحل » الذي ظهر سنة 1128 ، العقائد الأساسيّة بطول أناةٍ قلّما نصادفها لدى أي كاتبٍ مسيحي من العصر نفسه .

النّثــر

لا يزال الأدبُ العربي حتى اليوم ، لا يوحي للغربيّ بغير حكايات ألف ليلة وليلة . ولا يزال نجاحِ هذا الكتاب ، بما يثير من اهتمام ، دليلاً على مدى الجهل المُطبق حول نتاج الشرق الأدبي . وبالتالي ، لا مناص من الاعتراف بأن كتاب ألف ليلة وليلة هو أبعد ما يكون عن تمثيل كل أدبه الخيالي .

للمرَّة الأولى يذكر كتاب ألف ليلة ، في منتصف القرن العاشر ، بوصفه ترجمة عربيَّة لكتاب « هزار أفسنه » القديم ، الذي يعني ألف حكاية . كان النَّص الأصلي لهذا الكتاب الذي يُنسب إلى الجاشياري ، مستوحىً من قصيدة فارسيَّة عريقة ، أُضيفت إليها مع مرور الزّمن ، رويداً رويداً ، حكايات شعبية مختلفة المشارب ؛ وبوجهٍ خاص ، كان بلاط هرٰون الرشيد يقدّم موضوعة الحكايات الغراميَّة والنّوادر الكوميدية أو التراجيدية التي لا ينضب معينها . ولقد انسحر الصغارُ والكبار في كل البلدان بمغامرات السندباد البحري وعلي بابا والأربعين لصاً ، وعلاء الدين والمصباح السّحري ، بين حكايات ومغامرات كثيرة .

إن هذه الحكايات ، المرتدية رداء الخرافة الحكميَّة ، والمزدانة بكثير من الفكر والشّعر ، تصوّر أسرار الحياة الشرقية وخصائصها ، وكرم السلطان وعدالته ، وجرأة المرأة وتصنّعها ، ونفاق الخبثاء وجلافتهم . وعلى امتداد عشرات الأجيال ، أضاف إليها الرواةُ العربُ عدداً معيَّناً من حكايات متشابهة إلى هذا الحد أو ذاك ، كانت تتطابقُ مع انحطاط أذواقهم في عصر البذخ والازدهار . فهذا الكتابُ ، المبتدىء في القرن السابع والمنتهي في القرن الخامس عشر ، هو خلاصة الأدب المشرقي في العصر الوسيط . ظهرت أول ترجمة له في باريس سنة 1704 ، وحظيت بنجاحٍ كبير ، لدرجة أنها نشرت في جميع اللغات . وفي الشرق ذاته ، هناك نتاج أدبي لخرافات بيدبا ، شهد شهرةً أوسع من شهرة ألف ليلة وليلة . فهذه الخرافاتُ القادمة من الهند ، كانت قد وُضعت بالسنسكريتيّة قبل نقلها إلى البهلويّة في القرن السادس ، ثم إلى العربيَّة ، على يد إبن المقفَّع ، في منتصف القرن الثامن . إن هذا الكتاب النثري هو الرائعة الأولى في اللغة العربيَّة ، التي ظهرت بعنوان « كتاب كليلة ودمنة » . أول ما نجد في هذا الكتاب ، حب الخرافات الحكميَّة ، التي يربطها خيطٌ معقود ، والتي تجري متسلسلة كحكاية لا تتناهى ، إذْ أن كلَّ حكاية توحي حكايةً أخرى وتجد صداها باستمرار في فصلٍ جديد . أما مهارة استنطاق الحيوانات فقد سمحت للكاتب الخرافيّ بأن يصوّر الحياة البشريّة ، وأنْ يلقّن دروساً للجميع ، ويهذّب الطبع ، ويتصرّف كمهذِّب أخلاقيّ .

منذ القرن الثالث عشر ، نُقلت خرافاتُ بيدبا إلى الإسبانية على يد ألفونس الحكيم ، ملك قشتالة وليون (Léon) . ثم نُقلت لاحقاً إلى أربعين لغة ، ودخلت في نطاق الأدب العالمي . وفي القرن السابع عشر ، استلهم لافونتين الترجمة الفرنسية للنص الفارسيّ . ولا تزال خرافات بيدبا ، مع ألف ليلة وليلة ، من أوسع كتاب الخيال انتشاراً عبر العالم .

بعد ذلك بقليل ، كان هناك كتابٌ آخر يسلّي أهلَ بغداد كثيراً ؛ إنّه مجموعة حكايات أو جلسات ، ومن هنا عنوان الكتاب : « المقامات » ، لأبي محمّد الحريري (1054-1122) ، رئيس جهاز الاستخبارات في تلك المملكة التي كانت تشكّلها بغداد آنذاك . إنه يروي مغامرات صعلوك متشرّد ، أبي زيد ،

المتحدّث اللبق ، و« أب الكذب والرذيلة وكل الحيل والمقالب المختارة » ، كما يصفه أحد أشخاص الكتاب . إن هذا « الفيغارو »(*) المسلم يمثّل أحسن تمثيل جانباً معيّناً من العقليّة العربيّة : إنّه سفيه ، متشدّق ، وقح ، يلعب على ألف حبل ، يخترع كل المكائد والحيل والأكاذيب ، مكّار ومنحرف . ومع ذلك ، تُغفر كل ذنوبه وعيوبه ، طالما أنّ خياله وهذره الطائشين يمنحانه الحق في صنع المخدوعين والضحايا ؛ ألا يملكُ فن استعمال كل دقائق ولطائف اللغة العربية بمرونة وحس شعري مرموقين ؟ إنّ كل شيء سهل عليه ، من التسجيع إلى الأشكال البلاغيّة : إنه مخادع ، إيهاميّ ، لكنّه شاعر ، وفي الصميم ، أليست هذه الوصفات كلها واحدة ؟

لم تعرف الشعوبُ العربيّة الرواية ، فلم يسلك أحد جادتها المعقّدة . فقد كان الشرقيّون يحبذون الحكايات القصيرة ، وكانوا يستمعون إليها أكثر مما كانوا يقرأونها ، وذلك بأمل طفولي تقريباً وهو التوصل إلى نهاية سعيدة وسريعة . إلاّ أن ميزة الرواية هي تأخير حل العقدة وتطوير الحبكة . زدْ على ذلك أنّ الأدب الشرقي لم يتضمن حكايات دراميّة ، فهو منسوج من قصائد ومن حكايات تُروى .

الشِّعر

في المقابل ، يحتلُّ الشِّعر مكانة مرموقةً في الأدب العربيّ ؛ فلم يُرَ أبداً مثل هذا العدد من الشعراء البطوليينّ والغنائيّين ومن مباريات إلقاء الشعر ، لدرجة أنّ التجويد الغنائي كان لوناً من ألوان المجتمع . لقد قيل في النثر « إنّه يرقص حتى عندما يتهادى في مسيرته » ، ولكنّ الشِّعْرَ تمرينٌ روحيّ . فهو بنظر الصوفيّين ، القادر وحده على إثارة الأفكار الأزليّة ، وتمويج أصدائها بقوّة شديدة لدرجة أن المستمع الشرقي يظلُّ واجداً ، وجداً قاتلاً في بعض الأحيان . ولئن كان من المسلَّم به أنّ هناك رابطاً بين الميتافيزيقا والشِّعر ، فإن هذه الملاحظة قد لا تصحُّ بحقّ إلاّ في الشِّعر الإسلاميّ .

(*) Figaro : حلاّق ، مزين . (ملاحظة المعرب)

سيرتدي الشِّعرُ ، تحت تأثير الأساتذة الفرس ، حلَّة اللطافة الفارسيَّة ويحكي لغة البلاطات . كما أنَّه سيغدو أكثر رقَّةً ودقَّةً وحيويَّة . فهو يقدِّم من خلال الشكل الشِّعري شتىً أشكال البلاد الفارسيَّة ووجوهها ، حكمتها وورودها ، وطنيَّتها وفلسفتها ، مثالبها وتقواها . وأخيراً يشكِّل الحبُّ ، الحبَّ الأزليّ ، الموضوعة الرئيسة للشِّعر . فكلمة « أدب » نفسها ، التي تعني الآداب والفنون الجميلة ، كان يستعملها الشُّعراء والفلاسفة للدلالة على أخلاقيَّة الحبّ وأصوله في آنٍ . « لقد غنّى شعراءُ الإسلام ، بِتَمَلٍ ، مفاتنَ المرأة ، عطر شَعْرِها ، جواهر عينيها ، ثمار شفتيها وأطرافها الفضيَّة » .

هكذ تشكَّلت في الصحارى العربية ، في المشرق ، وتجسَّدت بعد ذلك بقليلٍ في مدن الإسلام المغربي ، موضوعات البلاطات الغراميَّة للعصر الوسيط الأوروبي .

ومثل كل البشر الذين عاشوا قبل اختراع المطبعة ، كان العربُ يملكون ذاكرةً سمعيَّة مرموقة ويستمتعون جميعهم بتلك القصائد الموزونة ، التي كانت تُنشد أو تُرتَّل بصوتٍ مرتفع . فقد كان النثر العربي ، نثرُ الوعَّاظ والخطباء والرواة على حدٍ سواء ، يرتدي بسهولةٍ رداءَ القوافي الرائعة ، متأثراً باللغةِ وبإيقاعها السَّاحر . فقد ظلَّ الشعراءُ يبالغون بتلك الموهبة الطبيعيَّة ويتنافسون في المهارة وفي الروحيَّة من خلال إبداع مقاطع وقوافٍ معقَّدة : حتى أن الكثيرين منهم كانوا يقفُون صدر البيت وعجزه . وقد أُصيب الغربيّون ، في أغلب الأحيان ، بالدهشة وانسحروا بإيقاع الشِّعر العربي .

الخلاصة ، بالاستناد إلى ولادة التجلّيات الشعريَّة الأولى ووفقاً لكل الترجيحات ، هي أنَّ الحركة الإيقاعيَّة لسير الجَمل والنَّاقة ، رفيقي البدوي الدائمين في مسيره ، هي التي دوزنت إيقاع الأغاني الشعريَّة الأولى .

كان البدوي المتوّحد يخفِّف من كآبة أيام مسيره الطويل عبر الصحراء بجعل غنائه موقَّعاً على إيقاع خطوة الحيوان . والحداء أو غناء الجمَّال هو أقدم الغناء الذي جرى اكتشافه في الأغاني العربيَّة الرتيبة (Mélopées) . فهذا الحداءُ ليس بشيءٍ آخر سوى غناءٍ رتيبٍ كان البدويُّ يسرِّع وتيرته أو يخفِّفها

حسب خطوات المهري (نوع من سلالة الإبل) السريعة أو البطيئة . ويرى عبّاس محمود العقّاد أنّ من ذلك الواقع « نشأ أول بحر للشعر العربي « الرجز » ، أبسط البحور وأسهلها » .

« مثال ذلك ما يُنسب من شعر إلى النبيّ كان يردّده في أثناء ترحاله ؛ ومضمونه أن محمّداً هو رسول الله بلا ريب ، وأنّه إبنُ الشريف عبد المطّلب . وقد ساد الاقتناع بأن هذا القول كان موضوعاً على إيقاع حركة الراحلة السريعة التي كان يمتطيها الرسول » .

في المقابل هناك أشعار كثيرة موضوعة على إيقاع بطيء « كأن النيّاق تسير بخطى ثقيلة ، فيبدو أنّها محمّلة بحمل حجارة أو حديد » . فهذا اللحن المدوزن ، ولنكاد نقول هذا النّغم المحاكي للإيقاع ، يصوّر الراحلة متباطئة ، تسير ببطء شديد عبر الرّمال .

رويداً رويداً ، يتحسّن إيقاع البحور . وكان ذلك إيذاناً بمولد القصيدة . فقد كانت تلك القصيدة المغنّاة ألطف على أذن السامع ؛ إذ كانت عمليّاً تتطابق مع غناء الطرّابين (Troubadours) وسرعان ما حلّت محل الرجز « سواء لدى بدو البادية أم لدى الشعراء الذين كانوا يتباهون باقتفاء أثر الأقدمين » .

في نهاية القرن الميلادي الثامن ، قام الخليل بن أحمد ، العالم الرياضيّ والموسيقيّ ، بتحديد بحور الشّعر العربي . فمنذ أن توقّف غناءُ الشعر ، بات من الضروريّ تزويده بقياس أدّق .

لا شك أنّ هذه هي أصول تطور النّظم الشعري العربي . واليوم ، لم يعد الشّعر خاضعاً لمقياس موسيقي ، فصار الشعر متحرّراً من الأوزان القديمة ، وصار في إمكانه التمتّع بأشكال أكثر طرافةً وتجديداً . ومن الممكن تصنيف هذا النتاج الشّعري الكبير ، الذي كان لأمدٍ طويل فنَّ العرب الوحيد ، تصنيفاً زمانياً حسب مصادره الإلهاميّة . قبل الإسلام ، يتغنّى الشعر العربي بمآثرالقبائل الأسطوريّة . وفي غضون القرن الهجري الأول وصولاً إلى نهاية العهد الأموي ، كان موضوعه المُفضّل هو الحرب ، ولكن كان يضاف إليها الشعور الديني (منتصف القرن الثامن) . في آخر حقبة الفتوحات ، تغلّب الوجد والهوى على

أشكال التطور الشّعري ومضمونه . وفي عصر العباسيّين الكبار الممتد حتى القرن الحادي عشر ، تميّز الأدب العربي بنتاجٍ وفير ، أبدعَ في كل الأنواع .

عصر الجاهلية وعصر الأمويين
(من القرن السادس إلى القرن الثامن)

يمكن إرجاع بداية تلك الحقبة إلى عنترة بن شدّاد ، عنترة الشاعر والفارس ، الذي أوحى الرواية الشهيرة . رواية الفروسيّة التي تحمل إسمه (سيرة عنترة) . إن نهاية تلك القصيدة العنترية تراجيديّة ومثاليّة ، ذاك أن البطل ينشد بنفسه النشيد المأتمي الحزين ، الذي يسبق وفاته : « هل نحن سوى مخلوقات ضعيفة بين يديّ رب العالمين . . . وحين تأزف ساعة منيّتي فسوف أتقبّل قدري بلا أنين » .

إن صورة النهاية مفعمة بكبرياء الوجد . فالبطل حين أُصيب بسهمٍ مسموم قاتل ، وكان عدوّه لا يني يطارده ، توقّف عند أول القافلة مجابهاً ، بينما كان يتراجع محاربوه وصحبُه . استند عنترة إلى رأس رمحه المركوز في الأرض ، وراح ينتظر فوق صهوة جواده شروقَ الشمس والموت . ثم مات ، لكنَّ العدو فرَّ أمام تلك الجثّة التي ظلّت واقفة .

أما الخنساء ، أشهر شاعرة عربيّة ، فقد عاشت في نهاية القرن السادس ؛ وهي مشهورة جداً بقصائدها التي قالتها في أخويها صخر ومعاوية اللذين قضيا في الحرب . فالخنساء ، الشاعرة السابقة للإسلام ، هي لسان حال الشّعر العربي في عصر الجاهليّة .

الشاعر والإمام علي بن أبي طالب ، ابن عم النبي وصهره ، صار الخليفة الرابع . تغذّى عليٌّ من تعاليم محمّد ووضع عدّة حِكم أخلاقية جليلة ، قام بجمعها الشريف الرضي ما بين 359 -369 هـ في « نهج البلاغة » . « يموت بعض الناس بينما أعمالهم الحسنة لا تموت ؛ ويعيش آخرون كما لو كانوا أمواتاً في الحياة » . ويُنسب هذا « الحديث القدسي »إلى الإمام عليّ :

« مَنْ بحث عني وجدني ،

ومن وجدني عرفني .
مَنْ أحبَّني ، أحببته
ومَن أحببته ، قتلته
ومن قتلته ، أحييته
ومن أحييته ، كنتُ فديته » .

كان عبد الحميد (المتوفّى سنة 750) ، كاتب آخر خليفة أُموي ، مشهوراً بسلاسة أسلوبه ، السهل الممتنع ، وجلال طابعه . وكان ، بخلاف زملائه الذين كانوا يمتدحون السلاطين ، يمتدح مناقب الكتّاب والشعراء والأدباء وأهميّتهم الشخصيّة في الهيكليّة الاجتماعيّة . « أنتم الأدباءُ أهلُ الشّرف المُشبعين علماً وأدباً ؛ فأنتم تزيّنون الخلافة بزينتكم ؛ وبكم وبفطنتكم يكون ازدهار المُلك ويستمرّ » .

عصرُ العبّاسيّين

(القرن الثامن ـ القرن العاشر)

من بين الشعراء العديدين الذين برزوا في غضون هذه الحقبة ، نستنسبُ أولاً ذكرَ أبي نواس ، الذي وُلد سنة 747 في فارس ، وتوفي نحو 815 . صار مُقرَّباً من هرون الرشيد ، إلاّ أنه كان يصدمه بإباحيَّة مفرطة . إنَّ هذا الشاعر الطريف ، الذي أجاد وصفه السيد قدّور بن غبريت ، كان يعرف كيف يعتذر بـ« موهبة ذكائه الإلهيّة » عن تصرّفاته المزاجية ومثالبه المحبَّبة نسبيّاً .

كان أبو نواس يحبّ الحياة والخمرة والنساء وقصائده الشخصيَّة . كان يُقرَّب من الخليفة تارةً ويُبعد عنه تارة ، وفي معظم الأحيان كان يُسجن . فهو كإبليس الذي يتنسّك في آخر العمر ، وقد ختم حياته بين الورع والتقوى ، كما يُقال . كان يحمل القرآنَ تحت إبطه ، وعمامته في يده ، ويتنقّل في الشوارع والحزنُ يطارده ، بينما كانت عامَّةُ بغداد تغنّي عند كل المفارق والمنعطفات ، قصائده في مدح الخمرة والرذيلة [. . .] .

كان أبو نواس كئيباً ومنفعلاً ، لكنّه كان ذا مواقف حكميّة انتقادية تجاه أولئك الذين كانوا يتباهون بعلمهم ومعرفتهم :

« قلْ لمن يدَّعي في العلم فلسفةً   علمت شيئاً وغابت عنكَ أشياء » !

وكان سعيد بن جودي ، وهو ابن موظف كبير في قرطبة ، النموذج الأول للعاشق المشرقيّ ، المتعطش دائماً وأبداً . كان مقاتلاً وطرّاباً ، ومع ذلك لم يجد أبداً ما كان ينشده من الحب أو من الحرب . كان حسّاساً بأقل إشارة أنثويّة ، فمرّ في سلسلة مغامرات غراميّة كانت كل مغامرة منها تعده بأن تدوم إلى الأبد . وكانت أجمل قصائده تلك التي وضعها لأجل جيهان التي لم يرَ منها سوى يدها الزنبقيّة .

إنه يعترف صراحةً بهذا البحث الأزلي وهذا الجري الهائم وراء المجهول : « عبرتُ دائرة الملذّات مثل فرس جامحة تعضّ على أسنانها . فلم أترك لذّةً إلاَّ وأشبعتها » .

وكان لا بد لهذا البرنامج الملحمي من أن ينقلب شؤماً عليه . ففي بعض الأحيان كان رفاقه في القتال يغضبون منه ومن قدرته على غواية نسائهم . وذات يوم ، فاجأه ضابط وقتله .

كان البحتري معروفاً كواحد من أكبر شعراء العصر العبّاسي ؛ وُلد في بلاد الشام بالقرب من حلب ، وعاش في بغداد ، في بلاط الخلفاء الذين كان يمتدح جودهم وكرمهم . توفي سنة 897 . اشتهر بشعره الوصفي / المدحي ، لا سيما قصيدته في وصف بركة المتوكّل ، التي شبّه حركة أمواجها وتوافد مياهها بيد الخليفة الكريمة التي تجود بسخاء .

أما إبن الرومي الذي غنى الحب الظامىء وأحزان العشّاق وآلامهم ، فقد توفي سنة 895 تقريباً . كيف كان يرى المرأة الحبيبة ؟ يراها كلها غواية ، موسيقى وجمالاً نادر المثال . ويرى أنّه كلما واصلها ازداد شوقاً إليها وولعاً بها ؛ وأنّه كلما قبّلها في فمها ليروي ظمأه ، كان ظمأه يزداد ، وناره تتوهج .

إلى جانب كبار شعراء العباسيين ، يمكننا ذكر أبي الفرج الذي خطر له أن يجمع الأعمال الشعرية المشهورة في عصره (897-965) ، ويدونها في 20 كتاباً عرفت بـ« كتاب الأغاني » .

والحقيقة أنَّ من يريد تقويم الشعر العربي من حيث غناه وتنوّعه ، فلا بدّ له من التوقّف عند إسمين طاولت شهرتُهما العالم : المتنبّي والمعرّي .

كان المتنبّي (915-965) واحداً من أعظم الشعراء الغنائيّين العرب . يُقال إنَّه من أصل متواضع ، ولكنّه مع ذلك تردّد على البلاطات ، لا سيما بلاط سيف الدولة . ولم ينقطع عن معاشرة العظماء ومدحهم ، وتمجيد الأمراء ؛ غير أنَّه كان يقوِّم نفسه أحسن تقويم ، فكأنه يقول : « فخري بذاتي هو فخر إنسان كريم ، لا يرى أحداً فوقه . فأنا شقيق المجد وربّ القصائد ؛ وأنا السُّم لأعدائي والرعب القاتل لخصومي » .

ويبقى المعرّي الأغربَ بين الشعراء المسلمين كافّةً ؛ فقد وُلد في سوريّة سنة 973 ؛ وعلى الرغم من العمى الملازم له منذ طفولته ، سافر كثيراً ، وأصغى للمشاهير من الأساتذة ، وحفظ عن ظهر قلبه كل ما كان يحلو له ، وعاد إلى بلدته ، معرّة النعمان ، بالقربِ من حلب . وهناك عاش بائساً ، لأنه كان بخلاف شعراء عصره يرفض التكسّب بشعره ، إذْ كان يعدُّ المدح من أبواب المذلّة . كتب عدّة قصائد هجائيّة ، لكن « رسالة الغفران » أو الرسالة الفردوسيّة ، تظل عمله الأساسي ، التي يصفُ فيها حوار الشعراء في الجنّة .

كان المعرّي ، بطبعه الشريف المحتد ، معادياً لكلِ أنواع التزلف والنّفاق . وكانت شهرته تتعاظم مع مرور الأيام ، فكان التلاميذُ يتوافدون إليه من كل حدبٍ وصوب ، ومعهم كانت تأتي أيضاً الثروة التي لم تبدّل شيئاً من بساطة طبعه . فقد كان يعيش على خبز الشعير ويرتدي ملابس خشنة . وهو في قصائد اللزوميّات ، المئة والستين ، يتناول القضايا الكبرى ، من وجود الله وطبيعته ، إلى الدين والعقل . كان المعرّي ريبيّاً ومتشائماً في الموضوع الديني ، ديمقراطياً متقدّماً في السياسة ؛ وكان يعرف كيف ينتقد العادات والتقاليد بريشة ثاقبة وجارحة . ولم ينجُ بعض العلماء المنافقين من نقده اللاذع . ألم يخاطب أحدهم بقوله : « يا لك من غبيّ يغرّر بك رجلٌ مخادع ، يعظ النساء ؛ رجلٌ يعلّمك أولاً أنَّ الخمر حرام ، ولكنّه يحتسيه في المساء » ؟ وهو يتّهم علماء الكلام وأرباب الفقه باستخدام الدين لمصالحهم ؛ وهذا واحد منهم « يصعد إلى المنبر لأغراض دنيئة ،

ويجعل المستمعين يرتعبون خوفاً من يوم القيامة ، ولكنّه لا يؤمنُ بهذا اليوم . . . » . ولا ينسى الحجّاج « الذين يذهبون لرجم الشيطان بالحجارة » ، ويتهم القيّمين على الأماكن المقدّسة بأنهم دجّالون ، لكنه يندهش من طبيب ينكر وجود الخالق بعدما درس علم التشريح » .

وفوق ذلك المعرّي ساخر ، متهكّم ، لا تعوزه روح النقد اللاذع . « أدركت أنَّ البشر ظالمون بطبعهم لبعضهم البعض ، ومع ذلك لا يمكن الشك بعدل ذاك الذي خلق الظّلم » . وهو مقتنع بأن شرور المجتمع ناجمة عن طبيعة الإنسان ، ويرى أنَّ من الأفضل للإنسان ألاّ يولد ، وأن يحفر على قبره هذا القول المرّ : « هذا ما جناه أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد » . كان ريبيّاً ساخراً ، لدرجة أنّه غالباً ما يُقارن بفولتير أو مونتسكيو . لكنّه كان طيباً وكريماً أيضاً ، لا يتوانى عن مساعدة الإنسان « الغارق في الدّمع » الذي يمزّقه العذاب .

لم يكوّنْ المعريّ مدرسةً ، على الرغم من كون « مئة وثمانين شاعراً ساروا في جنازته ، ومن كون أربعة وثمانين عالماً قد أبنّوه » . وهذا من شأنه التدليل على أنّ التشاؤميّة لا تؤثّر في النفوس الشرقيّة . بل يُلاحظ ، على العكس ، بعد وفاته بقليل ، قيام نهضة تفاؤليّة وقويمة (أرثوذكسية) ربما أثّرت في أدب الأجيال التالية .

لقد بلغ المتنبّي والمعريّ ذروةَ الشعر العربي الذي صار ، بعدهما ، بالغَ التصنّع ، شديد التفاهة ، قليل الصّدقيّة . إنها مرحلة تفتّح الشعر الملحمي ، مع الفردوسي ، في بلاد فارس . ففي عشرة آلاف بيت مثنوي (distique) تؤلف « الشاهنامة » أو كتاب الملوك ، تغنّى الفردوسي بالوقائع الحربيّة والأبطال المشاهير والأساطير الشهيرة في إيران الشرقيّة .

يروى أنّه تمكّن ذات يوم من تقديم قصيدته للسلطان . ولم يكن ذلك بالأمر السّهل ، إذْ كان هناك أربعمئة شاعر في بلاط السلطان محمود . اهتم السلطان بذلك وانفتن ، فوضع في تصرّفه عدّة صناديق ملأى بوثائق تاريخيّة لكي يتمكّن من إنجاز ملحمته الكبيرة ، ووعده بدينار ذهب مقابل كل بيت مثنوي ، مهذّب ومنقّح . تشجّع الشاعر من جرّاء تلك اللفتة ، إتيكّن سنة 1010 ، من

إرسال ستين ألف بيت مثنوي من المخطوطة الجديدة إلى السلطان . وهنا تدور مؤامرة دنيئة ، إذْ تآمر روّاد البلاط على الفردوسي بكل دناءة ، ولم يقبض الشاعر المسكين سوى دراهم فضيَّة بدلاً من الدنانير الذهبيَّة التي كان السلطان قد وعده بها . وبعد عشر سنوات ، عاد السلطان إلى ضميره ، وأرسل له قافلة محمَّلة بستين ألف دينار ذهب مع رسالة اعتذار . ولكن الأوان كان قد فات ، إذْ أنَّ القافلة التقت بجنازة الشاعر على الطريق .

كان الفردوسي قد كرَّس خمساً وثلاثين سنة من حياته لكي يروي تاريخ بلاده في مئة وعشرين ألف بيت من الشِّعر ، أي أكثر من الإلياذة والأوديسّة مجتمعتين . إن الشاهنامة من الأعمال الأدبية الكبرى ، فهي حكاية يمكن للمرأ أنْ يستمتع ، من خلالها ، بصور نسائيَّة فاتنة ، وبمآسي الحب لدى الآباء والأبناء ، وصور الجياد الجميلة ، والشجاعة ، والانتصارات على الجنّ والتنانين والسَّحرة والأتراك . كما أنَّ هذا العمل الفريد يستمدّ وحدته وحقيقته من الحضور الخفيّ والدائم للبلد الحبيب . فهو لا يزال حتى اليوم في جميع الذّاكرات . ولقد أطلق الفرسُ إسم رستم ، بطل الملحمة ، على أكثر من ثلاثمئة قرية ، ولا يزال إسم الشّاعر كبيراً جداً ، لدرجة أن العالم بأسره احتفى ، سنة 1934 ، بذكراه الألفيَّة ، ولقد ردّ الأتراك ، خصوم الفرس ، على « كتاب الملوك » ، في القرن الحادي عشر ، بكتاب قوتادغو - بيليغ للشاعر أرسلان حسيب الذي تغنّى بأمجاد الترك وأسلافهم الهونز ما قبل الإسلام ، الذين خاضوا معارك طاحنة مع أمراء إيران السكيتيَّة على مدى أجيال . إنها قصيدة ملحميَّة طويلة النَّفَس ، تذكّرنا من حيث طولها ، بقصائد الهند واليونان وأوروبا الحديثة .

الكتّابُ والكتب

كان الأدبُ ، في الإسلام ، موضوعاً لإرضاء ذوق الأرستقراطيَّة بالدرجة الأولى ، ارستقراطية المال وارستقراطيّة الحسب . ولم يكن هناك حقوقٌ للمؤلف ، آنئذٍ ، فكان الكتّابُ والشعراء يعيشون في كنف الوجهاء والأمراء . وكان معظمهم يكسبون لقمة عيشهم بمشقّة ، إذْ كانوا ينسخون المخطوطات لحساب الورّاقين وباعة الكتب . وكان آخرون منهم يمارسون مهنة نظم الشعر ويرتبطون

بمؤسسة . فحين كان الكتّاب أو الشعراء يستمدّون من بحور الشعر وقوافيه مؤثّراتٍ إعلانيَّة قويَّة ، ويسرفون في المدح أو الهجاء حسب الطلب ، إنما كانوا يلعبون بشكلٍ ما دور رجال آداب العصر ، وكان نتاجهم أسرع انتشاراً وأبعد مدى من نتاج الكتّاب المعاصرين . وكان أمهرهم يحظون بمكانةٍ لدى الأمراء الذين كانوا يرعون عدداً كبيراً منهم . ولقد كان هؤلاء ماهرين في فن التهجم أو الدفاع ، فن التشهير أو التهكم ، فن إخفاء هزيمة أو تمجيد انتصار . صحيح أنهم كانوا ممن يُخشى جانبهم بوصفهم هجّائين مقذعين ، ولكنَّ مهنتهم كانت محفوفة بالمخاطر ، وكانت تحتاج إلى كثيرٍ من علم النفس ومن المهارة حتى لا يقع صاحبها في الأخطار . ومع ذلك فقد جنى بعضهم ثروةً وبلغ بعضهم الآخر مبالغ الشهرة . وكان القرنان العاشر والحادي عشر عصرهم الذهبي ، إلاّ أنَّ هذه المهنة انحطت مع السلاطين التركمان ، غير الآبهين بالرأي العام .

التاريخ

منذ القرن الثامن ، شغف العلماءُ بالدراسات التاريخيَّة ، سواء بدافع الدّقة أم بدافع البحث عن الحقيقة . سنة 763 ، كان محمَّد بن اسحق يضع « سيرة محمَّد » التي تشكّل أقدم كتاب نثري وصل إلينا (بعد القرآن) . ووضع البعض معاجم مشاهير الأعلام .

في مطلع القرن التاسع ، حاول إبن قُتيبة (828 -890) وضع تاريخ للعالم ؛ وبعد ذلك بقليل ، سنة 987 ، قام محمَّد إبن النّديم بوضع « فهرست العلوم » ، مع ملاحظة بيوغرافية ونقدية كاملة حول كل عالم وكاتب .

كان الطبري (839 -923) ، المولود في طبرستان والمتوفى في بغداد ، من أكبر مؤرخي الإسلام . فهو فارسي الأصل ، كرّس أربعين عاماً من حياته لوضع تأريخ مهمّ لأخبار الرسل والملوك منذ خلق العالم حتى العام 913 . وما بقي من هذا العمل يملأ 15 مجلّداً ؛ ويُقال إن الأصل كان أطول بعشر مرات . ففي هذا العمل الموضوع بمهارة وحصافة ، يفتتح الطبري المنهجية التأريخية أولاً ، ثم يتأكد من الوقائع التاريخية المرويَّة بتأسيس صحتّها على أقوال أو كتابات شهود معاصرين للحدث . ولكنَّ الطبري ، مثل بعض مؤرخي المرحلة المعاصرة ، يرفض

التنسيق بين الوقائع ويكتفي بسردها . إنّ هذا العمل ، على الرغم من جفافه ، يُشكّل مصدراً توثيقياً هائلاً .

بعد الطبري ، كان المسعودي أكبر مؤرّخ ، وهو عربي من بغداد ؛ وكان رحّالةً كبيراً ، نشر ملخصاً لثلاثين جزءاً واختصرها أخيراً في كتاب واحد ، وصل إلينا تحت عنوان « مروج الذهب » . لقد درس المسعودي جغرافيا وبيولوجيا وتاريخ وعادات وديانات وعلوم كل الأمصار ، من الصين إلى فرنسا . وقبل نهاية حياته ، رغب المسعودي بجمع بعض الأفكار الفلسفيّة ، فنشر كتاب « التنبيه » ؛ لكن هذا المختصر لأفكاره وآرائه في العلم والتاريخ والفلسفة لم يعجب المحافظين . توفي سنة 956 في القاهرة ، بعد عشر سنوات من النّفي .

مما لا ريب فيه أن هؤلاء المؤرخين كانوا متفوّقين على معاصريهم المسيحيين ، ومع ذلك يظهر في أعمالهم الكبيرة نقص في الترتيب والتوليف ، وهذه ثغرة مؤسفة بالنسبة إلى القارىء الذي لا يمكنه استخلاص فلسفة التاريخ ولا العبر التي يرتقبها .

المكتبات وحوانيت بيع الكتب

قبل الفتح العربي بعدّة قرون ، كانت مدن بلخ وسمرقند تُعدّ من مراكز الثقافة العقلية المشهورة في إيران الشرقية . ففي تلك المدن المقدّسة ، كان الرهبان البوذيّون ينقلون إلى اللغة الإيرنيَّة فكر الصين والهند . وفي جامعة جنديسابور ، المؤسسة في القرن السادس ، كان يجري نقل بعض الفلاسفة الصينيّين من القرن الثامن ق . م . إلى الإيرانية الغربيّة . ولم تكن سمرقند تملك فقط مكتبة رائعة ، بل كانت تملك أيضاً معامل ورق ، عندما احتلها العربُ سنة 712 .

ومما يُذكر أنَّ الخليفة العبّاسي الأول كان قد اختار للوزارة برمكيّاً ، متحدّراً من أسرة عريقة ، كان أجدادها منذ قرون هم دالاي لاما الديانة البوذيَّة . ولقد عرف أولئك البرامكة كيف يوحون للخلفاء وبلاطهم حبّ الدراسات والكتب ، فجعلوا من بغداد مركزاً علميّاً تفوّق على سمرقند ، إذْ استقبل في آنٍ الروائع

الصينيّة والسنسكريتية والإيرانية الشرقية والكتب السوريّة والبيزنطيّة الغربيّة . وكان لأول مكتبة إسلامية أُقيمت إلى جانب « دار الحكمة » نجاح كبير ، لدرجة أن اليعقوبي قد أحصى سنة 891 ، أكثر من مئة مكتبة لبيع الكتب في بغداد ؛ وكانت حوانيت بيع الكتب في آنٍ مراكز اجتماعات أدبيّة وأماكن استنساخ وخطاطة ، ذات رواجٍ كبير .

ولم تغتنِ معظم الجوامع بمكتبات في وقتٍ سريع جداً وحسب ، بل ذهبت بعض المدن إلى حد إنشاء مكتبات كبرى . فقد كانت الموصل تملك ، نحو العام 950 ، مكتبةً بلديّة حيث كان في مستطاع الطلّاب التزوّد بالورق وبالكتب ؛ وفي وقتٍ لاحق ، كانت النظاميّة المقامة في بغداد سنة 1064 ، تملك بدورها موازنة تعادل مليون ونصف مليون فرنك ذهب مخصصة لشراء كتب ومخطوطات . ففي ذلك العصر ، لا يجرؤ أحد أن يكون غنيّاً دون أنْ يدعم الآداب والفنون . وعلى هامش الأجهزة الرسميّة ، كانت المكتبات الخاصّة مشابهة كثيراً للأندية الإنكليزية الحاليّة . بمعنى أنها تشكّل ، مع حوانيت الكتب ، أماكن اجتماعات وترفيهات . واعتباراً من القرن العاشر ، بلغت غنىً لا يوصف : فمكتبة النَّجف ، وهي مدينة صغيرة في العراق ، كانت تملك 40 ألف جزء ؛ وكان في مكتبة أبي الفدا ، وهو أمير كردي في حماه ، ستون ألف كتاب ، ومكتبة المؤيّد في جنوب الجزيرة العربية كانت تضم مئة ألف ، واحتوت مكتبة مرغة على 400 ألف كتاب ؛ وكان لا بد من عشر قوائم كبرى لتسجيل الكتب في مكتبة الرّي . لكن أكملها كانت مكتبة العزيز في القاهرة القديمة . فهناك كانت موضّبة ومصنفة بعناية مكتبة تضمّ مليون وستمئة ألف كتاب ، منها 6500 كتاب في الرياضيّات و 8000 كتاب فلسفة ، إلخ . أما مكتبة بخارى ، فقد أعلن ابن سينا أنّه رأى فيها كتباً غير موجودة في أي مكانٍ آخر .

ربما يكون من المملّ تعداد المكتبات الخاصّة . فقد كان عدد المثقفين يعادل تقريباً ثلث السكان وكان رائجاً عند الأغنياء أن يمتلكوا مجموعة رائعة من الكتب النّادرة . ونذكر على سبيل المثال حالة ذلك الطبيب الذي رفض دعوة سلطان بخارى لإقامته في بلاطه ؛ إذ كان يلزمه أربعمئة جمل لنقل مكتبته التي كانت تمثّل نحو مئة ألف كيلوغرام من الكتب والمخطوطات . وكان الواقدي قد ترك عند

وفاته ستمئة صندوق من شتى أصناف الكتب ، كان يلزم رجلان لنقل كل صندوق منها . وهناك جامع كتب آخر ، هو الصاحب بن عبّاس الذي كان يملك منذ القرن العاشر ، كتباً أكثر مما كان يمكن إحصاؤه في كل مكتبات أوروبا مجتمعة .

بكلمة ، عاش الناس ورأوا ما بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر ، ما لم يكونوا قد صادفوه أبداً : ففي كل مكان شغف شديد بالكتب ، وألف جامع تسطع ببيان العلماء وبلاغتهم ، ومئة بلاط أميري تصدح فيها ألسنة الشعراء أو الفلاسفة ، ودروب مكتظّة بالجغرافيّين والمؤرّخين والفقهاء الباحثين عن العلم والمعرفة . إنها أعظم يقظة فكرية في التاريخ الإسلامي .

مكتبة الإسكندريّة

قبل ختم هذه الدراسة المتعلّقة بالمكتبات ، من المفيد البتُّ المنصف في خرافةٍ شرسة بوجه خاص . فقد اتّهم عمرو بن العاص أنّه نفّذ أمرَ الخليفة عُمَر بتحطيم مكتبة الإسكندريّة . إن هذه المكتبة التي أنشأها بطليموس سوتير قد تكون احتوت على كتبٍ لأخيل وسوفوقلس وتيت ـ ليف وتاسيت وسواهم ، فوصلت إلى حالة يُرثى لها . كما كانت تحتوي نصوصاً كثيرة للفلاسفة ، لم يبقَ منها إلّا النّثار والأجزاء ، وآلاف من كتب التاريخ والعلوم والأدب والفلسفة اليونانيّة ، المصريّة والرومانية . وكان زوالُ كنزٍ كهذا من أعظم المآسي في تاريخ البشرية .

العالم المسلم ، عبد اللطيف (1162 -1231) هو أول من أتى على رواية هذا التدمير الذي لا سبيل إلى علاجه . وأكدّها أبوالفرج ، وهو يهودي متنصر من بلاد الشام ، معروف بلقب بار حبريوس (1226 -1286) أو إبن العبري . وهذا يرى أن نحويّاً من الاسكندرية طلب من عمرو مخطوطات المكتبة ، فراجع عُمَر في ذلك . يُقال إن عُمَر قد ردّ على طلبه بما معناه : « لئن كانت كتابات اليونانيين هذه متطابقة مع كتاب الله ، فلا فائدة منها ، ولا حاجة إلى حفظها ؛ وإنْ كانت مخالفةً له ، فإنها ضارّة ، ولا بدَّ من تقويضها » . ويُقال إن عمرو لمّا أُعفي من كل مسؤولية ، أمر بتوزيع هذه المجموعة الثمينة على حمّامات المدينة ، التي راحت

الآلافُ من مواقدها تلتهم أوراقها على امتداد ستة أشهر .

والحال ، خلافاً لهذه التهمة ، يُستحسن أنَ نلاحظ أنّ مكتبةً أولى كانت قد أُحرقت ، بأمر من يوليوس قيصر ، سنة 48 ق . م . ، وأنَّ النّصارى دمّروا مكتبة أخرى من النّوع ذاته في عهد البطريرك تيوفيل سنة 392 ؛ وأنَّ عدَّة معارك وقعت ما بين 392 و642 ، وهو عصر التحطيم المزعوم . زد على ذلك أنَّ عدداً من الكتب كان عرضةً للزوال ، في خلال مئتين وخمسين سنة ، وذلك بسبب الإهمال وعدم الاعتناء ، وأخيراً كانت خمسة قرون ونصف القرن قد مرّت وانصرمت ما بين وقوع الحادثة المزعومة وأول إعلانٍ عنها ، في حين أنَّ أي معاصر لا يأتي على ذكرها ، ولو حتى ايطيخيوس ، مطران الإسكندرية الذي وصف فتح الإسكندريَّة سنة 933 . وفوق ذلك ، لم يكن مثل هذا الموقف مألوفاً في سلوك عمرو الذي كان قد حال ، بنفسه ، دون نهب عدَّة مدن وحتى أنَّه انقلب على عادةٍ قديمة جداً ، حين أعلن حرية العبادات بكل جرأة .

العمـــارة

عندما انطلق العربُ في فتوحاتهم ، ما كانوا يعرفون سوى فنٍ واحد : الشّعر . فقد كانت التقاليد الساميَّة قد حرفتْهم عن فنون الرّسم والنْحت ، حين حرّمت تمثيل الأشكال البشريَّة أو الحيوانيَّة بوصفها ظاهرةً من ظواهر الوثنيَّة ، وحظرت الموسيقى بوصفها من علامات الانحلال . وكانت تلك المحظورات قد تراخت جزئياً مع مرور الزّمن ، إلاّ أنَّ الفنّ الإسلاميّ في أزمنة الإسلام الأولى كان محصوراً في العمارة والتزيين.

فلم يبقَ في الحقيقة شيء من بغداد ، لأنَّ الحروب والزّمان قضيا على كل شيء . ولم يبق في الشرق الأوسط سوى بناءين من الإسلام الأول : جامع الأمويّين في دمشق وقبّة الصخرة في القدس . وهذان الأثران بيزنطيّان وسوريّان حتى في تزيينهما .

بيد أنْ جامع الأُمويين خيرُ ممثل للطريقة التي ستنمو بها العمارة الإسلاميَّة . فقد شُيّد سنة 705 فوق آثار قديمة لبازيليك مسيحي مُهدى إلى القديس يوحنا ، كان هو نفسه قد حلَّ محل معبد جوبيتر . وليس في الإمكان اليوم أنْ نحدّد مدى

استيعاب المباني الأخيرة للعناصر الأقدم منها . فالمئذنتان الجنوبيّتان مقامتان فوق أُسس الكنيسة ، وفي المقابل تبدو المئذنة الشمالية إسلاميّة الأسلوب بكل وضوح ، وجرى اتخاذها نموذجاً لآثارٍ أخرى جرى تشييدها بنفس الإلهام في افريقيا والأندلس . وفي شرق الامبراطورية ، تبنّى العرب التزيين الآشوري والبابلي القديم . فبعدما حلّلوا فن العمارة الفارسيّة واستخلصوا روح العِقد والقبّة من الفن البيضويّ ، وروح التزيين الزّهري والهندسيّ ، قام مهندسوهُم المعماريّون انطلاقاً من كل تلك العناصر المعاد صهرها ودمجها ، بوضع توليف أصلي ومتنوع ، ذي غنىً تزييني كبير ودقّة لامتناهية .

في كل الأحوال ، لا يُرقى الشك إلى أنّ الفنّان المسلم كان قد انقاد إلى ذلك الغنى التزييني الكبير ، تعويضاً عن غياب الصّور البشرية والحيوانيّة . فراح أولاً يبحث عن ذلك الغنى في كل الأشكال الهندسيّة المكرّرة والمركّبة في « خطوط متماوجة ، في نقوش متناسقة ، في شبكات ، في تشبيكات زهرية وكتابيّة وفي نجوم » ؛ ثم انتقل إلى الأشكال الزّهرية ، فرسم في أكاليل الزّهر والجدائل الزخرفيّة أو الورود الملتوية أو أوراق اللوتس ، وصوّر أوراق نبات الأقنثة أو النخيل ، وسكب ذلك كله في الزخرف العربي (Arabesque) . أخيراً ، أضاف إلى ذلك الكتابة العربيّة المنقبضة أو المنبسطة ، الملبّسة بالأحرف الصغيرة والنقاط . لقد شمل هذا الذّوق التنميقي كل أشكال الفن الحرَفيّ ، كما شمل الأقمشة والسجاجيد . وكذلك الحال بالنسبة إلى المئذنة ، المنتصبة « كإصبع تشير إلى السماء » ، وتشهد على التوحيد الإلهي ، فقد جرى البحث في فن التزيين العربي عن دلالة روحيّة وعن تجلٍ صوفيّ للفنّان أو للحرفيّ في آنٍ . والحقيقة أنّ المسلمين الذين لا ينقصهم الخيال ، لم يكونوا قد اكتشفوا لأنفسهم رمزاً دينيّاً ، بعد . وكان يكفي أن يكون فنّهم الواثق من نفسه أكثر فأكثر ، قد تمكّن من توليف الحجر والرخام ، وتعشيق الخشب والمعدن ، والفسيفساء والصيني ، الخزف والزجاج ، حتى يعطي لمبانيهم وأثاثهم ومخطوطاتهم شعراً تجريدياً لم يكن قد أفصح عنه أيّ فنٍ آخر .

تكاد تكون العمارة الإسلاميّة محض دينيّة ، فقد انبثقت روائعها في الحمراء ، في اسبانيا ، وفي تاج محل في الهند ، مع بعض التغلغلات في فرنسا

وصقلية . من الصعوبة بمكان ذكرها كلّها ؛ ولذلك يُستحسن أنْ نذكر بعضاً منها حسب الترتيب الزمّني : قبّة الصخرة في القدس ، جامع الأمويين في دمشق ، جامع القيروان في القرنين السابع والثامن ؛ جامع قرطبة الكبير وأزهر إشبيليا في القرن الثاني عشر ، وقصر الحمراء في غرناطة ومدارس فاس في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وجامعي أحمد وسليمان في القسطنطينية ، وجامع أصبهان الكبير وتاج محل في آغرا ، وهما من القرنين السادس عشر والسابع عشر . وعلى الرّغم من بعض الفوارق الناجمة عن تصوّرات محليّة أو عامّة ، فإن كل هذه الآثار ذات طابع عائلي تدين به لتراثِ الإسلام .

النّحت

بما أن تشخيص جسم الإنسان والحيوان كان محرّماً ، فإن النحّت كان لا بد له من أن ينحصر هو أيضاً في حدود التزيين . ولكنّ مهما كانت المادة المستعملة ، حجراً ، خشباً أو معدناً ، فقد وصل الفنّانون المسلمون إلى دقّة في التنفيذ بحيث أنّ المرء لا يبالغ في الكلام عن مُنمنمات حقيقية ، على صعيد نقوشاتها (إفريزات) وحلقاتها ، وعلى صعيد هذا اللون أو ذاك من أغراضهم أو مجوهراتهم . فقد كان الحجر مصقولاً ، منقوشاً وكان الجصُّ المصنوع على شكل مجموعات يتميّز بتلاوين غنيّة . وكانت المنابرُ والمحاريبُ في الجوامع ، وحتى نوافذ وأبواب بعض المنازل ، مزدانة بنحت دقيق على الخشب . وكانت النقوش العاجيّة والعظميّة تزيّن المصاحف والأثاث والحلى ؛ وكان الفنانون في صناعة الحديد والمعادن يصنعون المصابيح والقناديل والأواني والكؤوس والمواقد والمشبّكات من البرونز والفولاذ والنحاس . كانت « الصناعة الدمشقيّة » تقوم على تذهيب وتفضيض بعض الأشكال المحفورة في المعدن ، وكانت تُمارس بشكلٍ منتظم على الحلى والمجوهرات . كما كانت الأسلحة الدمشقيّة مزيّنة بترصيعاتٍ وتنزيلاتٍ على صورة رسوم أو كتابات .

الرّسم

كان القرآن قد حرّم النّحت ؛ وهناك حديث قديم كان قد حظر اللوحات والرّسم . فهل من المحتمل أن يكون متأثراً في ذلك بالوصيّة الثانية وبالتعاليم

اليهودية ؟ ولربما كان يظنّ أيضاً أنّ الفنّان كان يغتصب امتيازات الخالق حين يصوّر الأشياء الحيَّة ؟ لقد حافظت الشريعة الإسلاميَّة ، السنّية والشيعيَّة ، على هذا التحريم المزدوج ، وكانت العامّة تساندها في ذلك إلى حد تشويه أو تهشيم بعض الأعمال الفنيَّة أحياناً . غير أن بعض الفقهاء كانوا يسمحون للرسم بتصوير بعض الأشياء الجامدة ، وكان نفرٌ آخر من الفقهاء لا يعترض على وجود أشكالٍ حيَّةٍ تزيّن أغراضاً وتحفاً دنيوية ، وحتى أن بعض الخلفاء الأتقياء كانوا يسمحون برسم آثار على جدران قصورهم تمثّل كنيسة ورهبانها . وقد ذهب مسعود ، آخر خليفة خلعه الأتراك السلجوقيّون ، إلى أبعد من ذلك فلم يتردّد في تزيين شققه برسوم مأخوذة عن كتب فارسية وذات طابع إباحي . ومع ذلك بَقي الرّسم الإسلامي متأخراً في نموّه ، مقيّداً في تعبيره ووقفاً على تسامح مع أولي الأمر ، فلم يتطوّر إلاّ في وقتٍ متأخر جداً ، عندما كان زمنُ الفنّ الكبير قد ولّى .

الزُّخــرفة

لحسن الحظّ أن المنمنمات الإسلاميّة ، وهي من أجمل الزّخرفات في العالم ، ...وّض هذا النقص . هنا أيضاً كان التّراثُ غنياً .

قبل الإسلام ، كانت الكتبُ السماويّة ، وهي موضوع إعجاب وعبادة ، تكتب بحروفٍ مضيئة لكي تذكّر بالسماء على نحو أفضل . لقد كانت حروفاً ذهبيّة وفضيّة مكتوبة على أوراق جرى تلوينها مسبقاً بلون الأثير والأرجوان والزعفران . وكان غلافُ الكتب ، المزدان بحجارة كريمة والمُطعَّم ببعض المجوهرات ، يمثّل السماء والجحيم ، البعث ويوم القيامة ، إلخ . . . فقد كان المزخرفون فنّانين في إبراز اللطائف والدقائق التي تذكّر بأكرم المعادن وأثمنها ، فأحسنوا تصوير قبّة السماء الساطعة بالنجوم الماسيَّة ، وحمرة الغروب الياقوتيَّة ، وتعاشق الشّفق والغسق ، أي أحسنوا تصوير أسرار الشرق وسحره .

في الإسلام الوسيط ، واصلت الأيدي المتحمّسة القيام بهذا العمل الدؤوب . فجرى تقليد أسلوب القدماء وطريقتهم . وحلّ شكل الأبجدية العربيَّة محلّ مختلف الأبجديات والكتابات القديمة ؛ فقد كانت الحروف ، ذات الشكل النّسخي (Naski) ، زخرفيَّة بذاتها . فليس هناك كتابة تضاهيها في

اللطافة الشكليّة . ولقد لوحظ بحق : « أمام فن بالغ الجمال ، يكاد المرء يأسف لاختراع غوتنبرغ حروف المطبعة » .

في المصاحف المكتوبة بالخط النسخي والتي وصلتنا من العصر الإسلامي الوسيط ، تعبّر الزخرفة ولعبة الخطوط الدقيقة وتناغم الألوان « عن الكمال الهادىء للجمال المجرَّد ، بقدر ما تعبّر عن علاماتٍ وسماتٍ تخاطب نفْساً آمنة » . إن مجرّد نسخ الكتاب كان من أعمال الورع والتقّوى .

كانت مواضيع الزخرفة والخطاطة تشوى في أفران الخزف وتزّين بها الأبواب الصغيرة والمحاريب . كما كانت تنسجُ في الأقمشة التنميقيَّة . وهكذا ، كان حرفيّون متواضعون ، حائك بسيط ، وحتى مجرَّد خزّاف ، يتوّصلون بصبرهم ومهارتهم إلى المنافسة في أعمالٍ فنيَّة . عمليّاً ، ألم يكن هدف كل صناعة أنْ تغدو فنّاً ؟ إن الفنّانين وهم يتابعون حلمهم والبحث عن الجمال ، إنمّا كانوا يحظون باحترامٍ كبير ، فكان الحرفيّون يعدّون من الأشراف (ذوي المهن الشريفة) . هذه سمة مميزّة لتلك الحضارة التي لم تكن تفصل النّاس عن بعضهم البعض ، بل كان الكل يتبارى ويتنافس لتجميل الحياة وتزيينها .

الموســـيقى

في البداية كانت الموسيقى هي أيضاً خطيئة ، ولكن أمم آسيا ما قبل الإسلام كانت في هذا المجال قد تمثّلت من قبلُ واستوعبت النظريّات الصينيّة والتقنيّات الهندوكيَّة عندما فتحها العرب . وكانت موسيقى القوزاقيّين السكيتيّين العريقة جداً قد انتقلت من الحالة الفولكلورية إلى الحالة العلميَّة . وفي بلاط الساسانيّين كان أساتذة مشاهير يسطعون في كل المشرق الوسيط .

تواصل عصرُ الموسيقى المأثور من دون العرب في البداية . فقد كان النبيّ يخشى الفوضى التي يمكن حصولها من رقصات النساء وكان يقول : إن الموسيقى هي آذانُ مؤذّن الشيطان . وكانت المذاهب الفقهيَّة الأربعة ترى أن الموسيقى كانت تثير الأهواء والشهوات بينها كان بعض الفقهاء يرون أنها غير مؤذية بذاتها . وكان عامّة الناس يردّدون ما معناه : « إذا كانت الخمرة كالجسد ، فإنّ الموسيقى كالرّوح » .

وبالتالي بلغوا مرادهم وبشكلٍ مكتمل جداً ، لدرجة أن مؤرّخاً مختصاً ذهب إلى القول : « إن تثقّف العرب بالموسيقى في كل ميادينها ، جعل الإعتراف بالفن أمراً لا معنى له في تاريخ أي بلدٍ آخر » . ليس من المناسب أن نناقش هذا الحكم القيمي . إذْ من الصعب جداً على الأذن الغربيَّة تقويم مزايا الموسيقى العربيَّة . فالجملة الموسيقية بقيت على بساطتها الفطريّة ، ورتابتها الحزينة والمؤلمة . ويرى الشرقي أنَّ الموسيقى الغربية تفتقر إلى الإحساس وتذهب أحياناً إلى حد الضجيج المعقّد والملتبس .

انطلاقاً من سلَّم الأنغام الصيني ـ الإيراني درسوا ووضعوا السلَّم الطبيعي وحققوا تقدّماتٍ كبرى على صعيد التقنيّة الأداتيَّة / والآلات التي كانت كثيرةً جداً : الربابة ، القيثارة ، العود ، القيثار ، البندور (آلة تشبه القيثارة) ، السَّنطور ، النَّاي ، الطبل ، التي تضاف إليها عند الحاجة الأبواق والمزامير والطبيّلات والصنّاجات والدفوف . والعرب هم أخيراً الذين صنعوا القانون ، النموذج القديم للبيانو والأرغن الحديث . لكنَّهم كانوا يفضّلون العود إذْ أثبت عوّادوهم أنهم لا يُضاهون في هذا المجال . وجرى إدخال كل تلك الآلات في آيبريا وأوروبا الغربيّة على أيدي المسلمين . وهناك آلات أخرى ، كالصنّاجات والأبواق والقيثار وسواها ، موجودة منذ أمدٍ بعيد في اسبانيا ، وكانت من أصلٍ عربي .

إننا ندين للفارابي (القرن العاشر) برسالة شهيرة في الموسيقى ، قضت على تصورات المدرسة الفيثاغورية الفاسدة حول موسيقى الكواكب وتناغم الأفلاك السماوية . فكان أول من قدّم تفسيراً فيزيائياً لظاهرة الصّوت الذي يصدر عن تموّجات الهواء والذي يزداد توتّره أو ينخفض وفقاً لطول الموجة . فهذه الملاحظة التجريبيّة سمحت له بتحديد القواعد اللازمة لصنع الآلات الموسيقيَّة . كما أنَّ العرب هم الذين أدخلوا مفهوم القياس في الموسيقى . وكانت حصيلة كل تلك التقدّمات التقنيّة مشجعة لازدهار الموسيقى الشعبية في اسبانيا والبرتغال . وفي النهاية جرى تكريس ذلك الازدهار من خلال إنشاء تعليم الغناء ، الذي مورس للمرّة الأولى في قرطبة على يدي المغني العربي الشهير ، زرياب ، الذي ندين له بابتكار الوتد الخامس في العود .

بوجهٍ عام ، لم يكن مقام الموسيقيّين مميّزاً ؛ فهناك مدرسة فقهيّة كانت تمنعهم من الإدلاء بشهادة أمام المحاكم . صحيح أنَّ الموسيقى ، كالرقص ، كانت من مهن العبيد المهذّبين والمأجورين . وظلّت غراميّة بقدر ما كانت فنيّة ، وفي كل حال بقيت مدنسة ، إذْ كانت العبادة الإسلاميّة تأباها وتدينها . غير أنَّ العباسيين حسنّوا حالة موسيقيّيهم وأسبغوا النّعم على كبار العازفين في عصرهم . وصار بلاط هرٰون الرشيد ملتقى لكوكبة كاملة من الفنّانين الموسيقيّين .

وخلافاً لكل مبادىء عرقه ومقامه ، كان الخليفة يشجّع مواهب شقيقه بالرضاعة إبراهيم المهدي ، المميّز بصوتٍ ذي قوّة خارقة ، كان يمتدّ على مدى ثلاثة أيام . وهناك مغنٍ آخر ، من أصل عبديّ ، كان يجلس على كرسيّ بالقرب من العرش . لكنّ إسحق كان أعظم موسيقي في الإسلام . كان الخليفة المأمون قد قال فيه : « ما غنّى أبداً إلّا وشعرت بتزايد ممتلكاتي » .

الحقيقة أنَّ النفس المسلمة تنفعل انفعالاً عميقاً بالحنان والرّقة التأملية في الموسيقى العربية . وكان سعدي قد تحدّث عن غلام « يغني نغماً رقيقاً إلى حد أنّه كان قد أوقف عصفوراً وجمّده في طيرانه » .

الفصل الحادي عشر

الزراعة / الصناعة / التجارة

الزراعة

لم تتحسّن الحياة الفلاّحية إلاّ في القرن التاسع تقريباً عندما وطّد الخلفاءُ العباسيّون الأمنَ والنّظام في الامبراطوريّة .

إلاّ أن الأمصار البعيدة ، لا سيما الأمصار الموجودة على أطراف بحر قزوين وأفغانستان الحالية ، لم تتأثر إلاّ قليلاً من جرّاء الفتح العربي فحافظت على بناها الإقطاعيّة دون تعديلاتٍ ملموسة ؛ وكما هي اليوم ، كانت البلدانُ الواقعة على الضفّة اليُسرى لدجلة ، ومصرُ ، مأهولةً بفلاّحين فقراء وتعساء .

وعلى الرغم من كون وضع معظم الفلاّحين المسلمين لا يدعو إلى الحسد ، فقد كان مع ذلك أفضل بكثيرٍ من وضع « الأقنان » في العالم المسيحي ، سواءٌ في العصر الوسيط أم في عصر حديث وقريب . ألم يكتب لابروبير (La Bruyère) في القرن السابع عشر : « نرى عبر الأرياف حيواناتٍ داكنةً ، تحرقها الشّمس ، تلك الحيوانات كانت بشراً » ! قبل ذلك بثمانمئة عام ، كان الخلفاءُ يوّفرون حماية معقولة لحياة إنسان الأرض وعمله .

بوجهٍ عام ، ازداد الوضعُ تحسُّناً في القرن العاشر ؛ فباستثناء مصر ، كان في إمكان الفلاّح ، من أقصى الامبراطوريّة إلى أقصاها ، أن ينعم ببعض اليُسر والرّفاه ، فقد انعتق من وصاية الأقوياء ، وصار يملك شخصيّاً خيراته وبيوتاته ، حتى أنّه كان يغتني في بعض الأحيان ، بينما القنانةُ لم تُلغ في روسيا المجاورة إلاّ بعد ألف سنة ، في القرن التاسع عشر .

إنّ دراسة وضع الزراعة ، في عصرِ ذروة الإسلام ، لا تخلو من فائدة . فمن المؤكد أنَّ مناخ المعيشة ونمطها كانا يتغيّران قليلاً من أقصى هذه الامبراطورية الواسعة إلى أقصاها ، من تركستان إلى المغرب . لقد بيّن علمُ المُناخ أنَّ أجناس الرواحل (الدّواب المركوبة) كانت تتكيّف في بعض المناطق تكيُّفاً أفضل من تكيّفها في مناطق أخرى ؛ كما كان جنس الخيل يُستعملُ ، بشكلٍ مفضّل ، في أعمال الحراثة والجرّ ، لا سيما في شمال إيران ، وكان الجمل يُستعمل في البلاد العربيّة والجواميس في العراق وكوزخستان المجاورة ، والثيران والأبقار في آسيا الوسطى . وكانت الآلات الزراعيَّة شديدة الانتشار . ففي كل مكان تقريباً كان هناك المحراثُ الموروث عن الأجداد ، المزوّد بسكّة حديد ومِقلب ، والذي كان الحرَّاث يشدّ نفسه إليه في بعض الأحايين ، إلى جانب حماره ، عندما لا يتوّفر له ما هو أفضل . كان جميع الفلاّحين يعرفون فنّ تحضير الأرض وحرثها ، مثلما كانوا يجيدون استعمال الأسمدة التي كانوا يعرفون خصائصها ، ويجيدون مكافحة الطفيليّات والحشرات الضارّة بالمحاصيل . في تلك المكافحة ، كانت الزراعة العربيَّة تستخدم وسائل مناسبة ومدروسة ، وفي بعض الأحيان كانت تلجأ إلى طرق وطلاسم لم تكن أكثر من آثار التعاويذ والشعوذات القديمة . يروي المزرعي أنَّ تطهير أرض مُصابة بكثرة الزؤان ، كان يستلزم مثلاً قيام عذراء شابّة ، عارية ، شعرُها في مهبّ الريح ، وبين ذراعيها ديك أبيض ، بالتجوّل في كل أنحاء تلك الأرض ، - دون ذكر عدد المرّات ؛ ولكنّه يزعم أن العشب الضّار سيذبل ويموت في اليوم ذاته . وأنَّ بذرَ البطيخ حين يُبذر في جمجمة بشريَّة مدفونة في التراب ، إنما يُعطي محاصيل تنمّي ذكاء أولئك الذين يأكلون منها ؛ ولكن إذا استعملت جمجمة حمار ، في المقابل ، فإن الدياجي ستنتشر في « قلوبهم » . ويُحكى أيضاً أن عادةً محمودةً جداً كانت تحظر إعطاء أوراق مأخوذة من خوخة الجار ، لديدان القز ، لأنَّ اللعنة كانت أكيدة . فيا لها من نصيحة عاقلة ونبيلة .

البداوة

البدو الرّحل ، هؤلاء المعادون بولادتهم للزراعة ، موجودون في كل الأقطار العربيَّة ؛ فقد شهدت المناطق الصحراوية ، بحكم جفافها ، البداوةَ التي تحتاج إلى الرحيل دائماً وأبداً ، والتي تبحث باستمرار عن المراعي التي يمكن

للقطعان أن تجد فيها ما تأكله من عشب نادر . إنهم تارةً رعاةٌ ومحاربون تارة ؛ بدوٌ هنا ، أمازيغ (بربر) في إفريقيا ، أعرابٌ في شبه الجزيرة ، يدفعون أمامهم ، بلا كلل ، قطعاناً من الغنم الصغير الحجم ، وجمالاً من النّوع المهري ، الأشد مقاومةً للحرارة من جمال التخوم الآسيويَّة .

في الشّرق الأدنى والأوسط ، تعجّ السهوب القاحلة بالمستنقعات المالحة (Kavirs) في هضبة إيران الوسطى ، وبمستنقعات الصحراء الرمليّة في الكرَكـوم ، أسفل عموريَّة ، أوكسوس القديمة . كما أن القطعان تغادر الأراضي الحارّة صيفاً لتنتجع في المراعي الجبلية التي يصل ارتفاعها غالباً إلى ثلاثة آلاف متر . وتختلف الحيواناتُ باختلاف المناطق . الماعز والغنم بألوف الرؤوس في إيران ، قطعان البقر والثيران في أسفل وادي عمورية وبحر قزوين ، والجيادُ في تركستان . ويسكن جميع الرّعاة الرُّحّل في خيام سوداء ، مصنوعة من شَعْر الماعز ، ويعيشون من ألبان قطعانهم ولحومها . وأكثرهم حظاً وحظوةً هم أصحاب الخرفان السّوداء الجعداء في مناطق پاميرا وقزوين ، الخرفان التي تعطي جلوداً ثمينة (جلود أسطركان) ، المميّزة منذ قرونٍ .

الــرّي

كان الرّي رئيساً في الشرق كلّه ، وظلَّ الحال هكذا على الدوام . ففي الواقع اكتشفت الآثار الباقية من شبكات ري تعود إلى أكثر من ألف سنة . وقد كانت الأقنية المتفرّعة من أحواض الأنهار الكبيرة تنقل الماء إلى مسافاتٍ بعيدة جداً ؛ وكانت بلاد الرافدين وكِلدة وسجستان تعج بتلك الأقنية . وفي بعض الأحيان كانت تُستعمل أقنية لجر المياه تحت الأرض ، من الجبال إلى مسافة مئات عديدة من الكيلومترات . وما زال في المستطاع مشاهدة آبار التهوية والتنظيف التي ما زالت باديةً اليوم في سهوب يزد وكرمان . ولكن لا يكفي وجود الماء ؛ فهو يجري منحدراً دون أن يروي التربة عندما يكون الانحدارُ شديداً جداً ، وليس من السـهل دائماً استصلاح المنخفضات . عندئذٍ يحفر الفلاّحون عدّة حفر ، ذات منحدر مدروس جيّداً ، ويدعّمونها بسدود صغيرة . فلا يبقى في الوقت المناسب وحسب الزراعات ، سوى الاستعمال الحصيف للسائل الثّمين الذي يجري الحصول عليه بمجهوداتٍ كبيرة . ولم تغبْ عن العرب أبداً الأهميَّة الأوليّة

لمسألة الرّي هذه ، فعيّنوا مديراً للرّي في كل دسكرة أو ولاية . ولمواصلة الهدف نفسه في توزيع المياه ، كان لا بد في بعض المناطق من التخلّص من المياه الآسنة ، المتبقيّة من فيضاناتٍ رهيبة أحياناً . وبالتالي تجري عمليّات تجفيف المستنقعات ومكافحتها ، وساند الخلفاء العباسيّون الأوائل تلك المجهودات ، فشجّعوا أعمال جرّ المياه وتمكّنوا من إعادة إعمار القرى المهدّمة والمزارع الغارقة في المياه .

السّنة الريفية

عند طرفي الشرق ، كانت فيضانات مياه النيل والهندوس تحدّد السنوات المصريَّة والهندوكيَّة ؛ فكانت تتطابق مع مدار الشمس الصيفي الذي كان أيضاً بداية السّنة في فارس . وكان ذلك مناسبة لعيدٍ مميَّز بنيرانٍ كبيرة كانت تُضاء عند غروب الشمس .

كانت السّنة تبدأ في أيلول / سبتمبر عند الفلاّحين المسلمين ، عندما يبدأ الزيتون بالميل إلى السّواد وينضج الرُّمان والسفرجل والغُبيراء (Sorbier) . عندها يبدأ قطف الأرز واللوبياء الجافّة ، ثم يُباشر بجمع الحنّاء وتطعيم الكرمة . وفي تشرين الأول / أكتوبر يبدأ حرث الأرض في الوقت الذي تُغطى فيه أشجار الكبّاد والموز والليمون لحفظها من البرد القارس . وكان تشرين الثاني / نوفمبر شهرَ بذار الشعير والقمح والقنّب . وكان الخشخاش الأبيض يُبذر طيلة فصل الشتاء في أماكن محمية تماماً من الريح والبرد ، ومنذ أنْ تخف شدّة البرد ، يبدأ تحضير الأراضي المخصّصة لزراعة القطن والكتّان ، ثم يبدأ العمل بتطعيم أشجار اللوز والخرّوب ، وقطع قصب السكّر . في الربيع يبذر الحنّاء والباذنجان والقنّب في الوقت الذي يجري فيه التحضير لزرع الخضار ، ثم تبدأ عمليات تقطير العطور وماء الورد . وفي خلال أيام الصيف الطويلة ، في نهاية شهر حزيران / يونيو ، يجري قطف الخوخ والتين والبطيخ ، وكانت تعقب أعمالَ قطف الخضار ، مواسمُ الحصاد وتخزين الحبوب والبقوليّات . وفي الخريف ، بينما تواصل التمورُ وأثمارُ العنّاب نضجها ، كان يجري جمع الأرزّ والنّيلة ، وكانت كروم العنب المذهّبة تعلن بدايات القطاف .

زراعة البقول

باستثناء البطاطا والبندورة اللتين كانتا غير معروفتين بعد ، كانت حدائقُ الشّرق تعطي بوفرة كل أنواع البقول أو الخضار : البازلاء ، الكرفس ، البصل المختلف الألوان ، الأحمر / الأبيض / الأصفر أو الأخضر ، الخيار الذي كانت بذوره توضع في ماءِ الورد أو تُنقع في الخل ، الخيار المخلّل ، الكوسى والباذنجان ؛ ولم يكن يُهمل أي نوع من الخضار اللازم لفنّ الطبخ . وإذا كنا نعتقد بتوفّر كل شيء من أنواع النبات العطري ، فذلك لكي نذّكر بأنَّ الشُّمرة ، المردقوش ، الصعتر البرّي ، اليانسون ، النعناع ، الحَبَق ، الكمّون ، كانت تقترن مع عنبر وفلفل السودان لإرضاء الأذواق المرهفة جداً والرغبات العشقية الشّديدة .

لم تكنْ زراعة الأشجار سراً بالنسبة إلى الشرقيّين . فقد كانت أشجار النّخيل على اختلاف أنواعها وأشجار الخوخ والتين موضع عناية زراعية ، إلاّ في مصر وإفريقيا . وكان المزارعون الأكثر تطوراً قد حاولوا تكييف أنواع جديدة من المزروعات المستوردة من بلدانٍ بعيدة . ففي إيران ، كانت حديقة تبريز النباتيّة مشهورة بما يجتمع فيها من أندر الأشجار المثمرة في آسيا والصين والهند . ومن المغرب والبرتغال حتى القوقاز ، كانت زراعة الكرمة قد غزت العالم الإسلامي . بوجهٍ خاص ، كانت بعض مصانع النبيذ مشهورة ، ومنها مصنع همدان مثلاً . غير أنَّ تنوّع العنب كان يوفّر نبيذاً بالغ التنوع ، منه الخفيف أو الكثيف ، الحلو أو الحادّ ، المتلألىء أو المُشرَّب بالسكر ؛ كان هناك ما يرضي كل الأذواق ، والحقيقة ، أنَّ الكرّامين الشرقيّين كانوا منذ أقدم عصور الحضارة الفارسيّة ، يجيدون زراعة الكرمة وفن الاعتناء بها من تفريد وتطعيم ، كما هو العُرف في كل مزارع الكروم الأكثر شهرة في تلك الحقبة من التاريخ .

كان سهلاً زرعُ برتقال الهند وليمونها ، فجرى زرعها في بلاد الرافدين وفارس وفي الكردستان وبساتين البصرة وخوزستان ، وفي القاهرة وبغداد . وكان التطعيم قد سمح بالحصول على أنواع مختلفة ذات خصائص مهّمة ؛ ويعود إلى ذلك العصر تحضيرُ عصير الليمون . في المقابل ، كان الزيتون شائعاً على سواحل

المتوسط ، في الأندلس وصقلية والشام ، والكريفوت وقصب السكر في مصر وعلى ضفاف بحر قزوين . وكان النخيل المثمر يزرع بطريقة طريفة . فقد كان يُزرع في مشاتل يجري ريُّها يومياً ؛ وكان يلقى عناية خاصة ، قوامها إضافة الملح إلى الأسمدة والتربة . وكان التخصيبُ يتمُّ بشكلٍ اصطناعي ، وذلك بهز الأزهار الذكريّة فوق الأزهار الأنثوية، وذلك بدلاً من الاستسلام الكسول للأم الطبيعة التي :

« . . . لم يكُنْ عليها سوى قذف بذرها في الريح
لكي تخصبَ الهواء مثلما تخصب نخيل آسيا . . . » .

وكانت زراعةُ الموز تستلزم كثيراً من الحرارة والرطوبة . فكانت تدهن أصول الشجرة بالعسل لكي يغدو ثمر الموز أحلى وأطيب . عمليّاً كان الشرقيّون ، الأغنياء بالخبرة والمعرفة والملاحظة ، يعرفون ما تعاني الأشجارُ من مشاكل حساسة ؛ ومثال ذلك أنهم كانوا يجيدون إنماء ثمرات مختلفة الألوان في شجرة واحدة .

في القرن السابع ظهر كتابٌ في أشبيلية يشرح بالتفصيل زراعة أكثر من 50 شجرة مثمرة ويعرض لمختلف الأمراض وطرق معالجتها .

الحـــبوب

يروي هيرودوتس أن بلاد الرافدين كانت موطن القمح ، ولكن هذه المنطقة كانت غنيّةً أيضاً بزراعة حبوب أخرى ، لا سيما الشعير . وكانت زراعة الأرزّ تمارس في مناطق بحر قزوين الساحليّة وبلاد الرافدين والعراق والضفة الشمالية لدجلة . وفضلاً عن أهميّته الغذائيّة ، كان الأرزّ يستعمل قشّه في صناعة الحُصُر والقبّعات والسلال والصندوقات والمكانس .

الزرّاعة وتربية دود القز

لم يكن الشرقُ يحترم سوى أعمال الحقول . إلّا أنَّ المزارعين الشرقيين صاروا يعرفون أسرار تربية الماشية ودراسة النَّحل وعاداته وتربية دودة القز (الحرير) . وكان العسل شديد الانتشار في بلاد فارس لدرجة أنه كان يُستعمل غالباً كعُملة تبادل (مقايضة) ، وكانت الدولة تقبله في دفع الضرائب. أما تربية

دودة القزّ ، فقد رُفعت في إيران إلى مستوى علم حقيقي . فقد كانوا يجيدون آنذاك نخبَ البيوض والشرانق ذاتها ، ويقومون بصيانة القزازات (أماكن تربية دود القز) . وصار انتاج الحرير شديد الوفرة في ايران لدرجة أنّه كان يسدُّ كل استهلاك أوروبا في القرون الوسطى .

النباتات الصناعيَّة

أصل القطن من الهند ، وكان قد جرى إدخاله إلى إيران والعراق في مطلع العصر الميلادي . وقد زرعه المسلمون في الشام ومصر وإسبانيا . وكان الكتّان يزرع في دلتا النّيل منذ أقدم العصور . لكنَّ الإسلام وسَّع زراعته ، في القرن العاشر ، لتشمل خوزستان وجنوب فارس ؛ وبعد ذلك امتدّ استعماله إلى الشمال ومنطقة قزوين . وكانت هذه النبتة تستلزم أرضاً رطبة وذات نوعيّة جيّدة. فبعد تجفيفها وغمسها في الماء ، كان يجري استخراج الأجزاء الكتانيّة منها عن طريق الصَّفق .

في شهر نيسان /إبريل ، كانت تُزرع نبتة النّيلة ، في معزلَ عن الرّياح الباردة ، وكانت تُحمى منذ خروجها من الأرض . وكلما كانت تأخذ في النمو ، كانت تلتف حول قصبة مزروعة بالقرب من كل نبتة . وكانت الفُوَّة (Garance) تبذر بذاراً مثل القمح ، في أرضٍ محروثة ومسمَّدة . وكانت تروى كل ثمانية أيام . وهكذا ، كان يُحصل على جذرٍ مُحمَّر ، يجري انتزاعه عندما كان يصل إلى درجة نمو معينة . والحنَّاء شجرة صغيرة تعيش طوال 15 سنة في الصعيد (مصر العليا) والحبشة ، وتمّ بصعوبة زرعها في بلاد الشام وفي جنوب فارس ، ولكنها هناك لم تعد سوى نبتة تُقتلع سنوياً وتُستعمل فقط أوراقها المجفَّفة في الظلّ . ويُزرع الزعفران بالطريقة ذاته التي يزرع بها البصل . وفي أيار /مايو تُزرع البُصيلات ، وفي الخريف تُقطف زهرة زرقاء ذات خيوط سمراء ، صفراء . والخشخاش ذو الأزهار الحمراء ، الذي يُستخرجُ منه الأفيون ، كان يُبذر طيلة أشهر الشتاء ويروى مرتين في الأسبوع حتى فصل الصيف . ومنذ أن تجف رؤوسه ، كان يجري فصلها عن الجذع لكي يستخرج الأفيون منها . وكانت هذه المادة القلوية تُصنع في أسيوط ، في الصعيد ، وتُستعمل كمخدّر في الطب .

العطور والأزهار

لطالما اشتهر البخورُ والمرُّ في الجزيرة العربيّة منذ القدم . فلم ينقطع القدامى عن استعمال البخور الذي يرد ذكره في أقدم تقاليد الشرق . وفي معبد العطور كان العبرانيّون يقدّمون البخور ليهوه . وقدّم الملوكُ السّحرة البخور والمرّ والذهب للطفل يسوع في مذود بيت لحم . ولا يزال البخور يُقدَّم في احتفالات العبادة الكاثوليكيّة .

وكانت فارس مشهورة ببخور ورودها وبنفسجها وياسمينها وبالـجودة الانتقائية التي بلغتها في زراعة الأزهار المطعّمة . كان أحد الملوك المعاصرين لمحمّد قد سأل عمّا يمكن أن يكون عطرُ السماء ، فكان الرّد الفوري عليه من طرف أحد نُداماه « إنّه مزيج من ورود ملكيّة ، وورود فارس ، ومردقوش سمرقند وأزهار كبُّاد طاجاريستان ، ونيلوفر ألبانيا ، ومن العطر المثلّث ، عطر الصَّبْر الهندي ، مسك التيبت ، وعنبر سيكبير » .

كانت الأزهارُ مطلوبةً ومحبوبة في الشّرق ، حتى لدى أفقر الطبقات وأكثرها خضوعاً لضرورات الحياة . وكانت الطبقاتُ الموسرة تملك حدائق أزهار حتى في المدن الكثيفة السكان مثل بغداد . وتحت شمس الأرياف المحرقة ، كانت تمتدّ الداراتُ (الفيلّات) المدهشة ، وسط حدائق غنّاء كبيرة . وفي فارس مثلاً حيث كان يُركَّب الورد واللوز للحصول على أنواع نادرة ، لم تكن الورود جميلةً جداً على الدوام . ولقد قيل إن الشرقييّن كانوا في الأزمنة القديمة يحبّون الأزهار مثلما يحبّون جوهر الحياة أو عطرها .

الصنـاعة

لم يكن انعدام مناجم الفحم الحجري يسمح بتطور مهمّ لصناعة التعدين في الشرق الأدنى . كان هناك بالكاد بعض عروق المعدن في منطقة يزد ، وسط الهضبة الإيرانيّة ، وفي لوريستان ، وهما منطقتان يصعب الوصول إليهما . وبالتالي كان استعمال الخشب يفرض نفسه ؛ فأدّت هذه الضرورة إلى تجريد الغابات في عددٍ من أمصار أفغانستان الحاليّة وجبال أرمينيا ، مركز إمداد بلاد الرافدين بالخشب .

المعـادن

في المقابل كان يوجد ذهب وفضة وزئبق في منطقة غانزاك ، الحاضرة الشهيرة بأهل الصنعة (الخيميائيّين) ، والواقعة بين دجلة الأعلى وبحر قزوين ، وكذلك في مناجم زاغروس . وكان يؤتى بالبُوَرق (Borax) والأثمد من أرمينيا . في أفغانستان ، كانت منطقة پانجهـير غنيةً بمناجم الفضّة والنحاس ، وكان هناك منجم رصاص صغير في منطقة كابول . إلاّ أن أهم مناجم الذهب كانت تلك الواقعة بين بلاد النّوبة والبحر الأحمر ، في مصر .

كانت تنقل المعادن إلى المدينة ، حيث كان يجري صهرُ وتطريقُ النحاس والبرونز والفولاذ والفضة والذهب . وهناك كانت تُصنع الأباريق والمزهريات والكؤوس والطاسات والأحواض والأثافي والمفاتيح والمقصّات والأطباق والمرايا والمصابيح والقناديل والمناقل والمحارق والآلات الفلكيّة وعلب المصاحف ، وفقاً لأغراض ونماذج فنيّة غالباً .

على هذا النحو نشأت في بلاد الرافدين مع النحاس الأكثر وفرة من بين المعادن كلها ، صناعة أوانٍ مطعمة بالفضة ، بالغة الدقة والروعة . وبوجهٍ خاص كانت دمشق والموصل متخصّصتين في صنع الأسلحة واللأمات من المعدن العادي ؛ وكانت تلك الأسلحة ، بفضل التقنية العربية ، تُعشّق بأسلاك ذهبيّة أو فضيّة . في دمشق ، كان يثبّت السلك الثمين في أخاديد أو أثلام تُحضّر لهذه الغاية ؛ وفي الموصل يجري طرق الأسلاك الثمينة في المعدن ، وفقاً لرسم موضوع ؛ وهذا كان يُسمّى « المُدمشق » . وكان الفولاذ والحديد يُحضّران في سمرقند وأذربيجان ، وكان يُحضّر البرونز في بُخارى ونيشابور ، والنحاس في الموصل وديار بكر . لقد كان القصدير نادراً في الشرق . وكان يوجد منه القليل في البلاد الصغدية ، في عاموريّة العليا ، وكان يدخل في سبك البرونز . في المقابل ، كان الرصاص متوفّراً . وكان يُستعمل في صنع سقوف المساجد وفي بناء الأقنية وفي تثبيت الحجارة .

مع ذلك لم يكن من الممكن ، في الشرق ، أنْ تُرى مصانع كبيرة ولا أن تتحقق تقدّمات تقنيّة جديّة في مجال التعدين . فقد بقيت الصناعة في الطور

الحِرفي وظلّت الأغراض تُصنع في المشاغل والحوانيت ، كما كان حالها في الماضي .

كان العامل يُظهر فيها مهارةً ومرونة وجَلداً كان بلا شك يجعل وتيرة الإنتاج بطيئةً لكنّه كان ينيطه دائماً بالجودة الدقيقة وبطابع الأناقة والفخامة . فعلى غرار الخطّاط والخزّاف والفخّاري ، كان الحدّاد يبلغ هو أيضاً ذروة فنّه . ولا ريب أنّ هناك خصلةً لكل عمل متقن ، مهما كان نصيب العمل الشخصي فيه ، ومهما كانت ملكة الإقتدار على تعبير الإنسان عن نفسه .

أما الأغراض الفخمة المصنوعة لكبار القوم ، فلم تكن الشاغل الوحيد لمعلّمي التعدين . إذْ كانت تُصنع أيضاً السلاسل الضخمة التي كانت تسدُّ مدخل المرافىء والتي كان طول وحجم كل حلقة منها يعادل ذراعاً . وكانت تلك السلاسل قد حالت مرّتين دون دخول الأسطول العربي إلى البوسفور . لم يذهب هذا الدّرس القاسي هباءً . فقد كان على المرفأ الذي أنشأه المهدي قريباً من تونس ، أبوابٌ كان وزن كل مصراع منها خمسة أطنان . كانت معظم المدن المحصّنة ، تُغلق بواسطة عدّة شبكات حديدية قويّة ، وكان النحّاسون يصنعون في سمرقند قدوراً سعتها أكثر من ألف ليتر . كما كان العرب قد أتقنوا صناعة عدّة الخيل ، وتعلّم الصليبيّون ، من كيسهم ، أن السيوف الدمشقيّة كانت ذا حدٍ رهيفٍ وقويّ . وإنّ قائمة مختصرة في بيت مال الفاطميّين ستدلُّ بنحوٍ أفضل على مزايا المنتوجات الصناعيّة الشرقيّة : فهي تذكر وجود « أربعمئة قفص ذهبي ، ستة آلاف إناء ذهبي ، وأدنان فضيّة وزنها 150 كيلوغرام ، وديوك وطواويس وغزلان بحجم طبيعي من ذهب مُطعّم بحجارة كريمة ، ونخلات ذهبية في صناديق ذهب ، أسلحة ، دروع ، ومجموعها كلها أكثر من مئة ألف قطعة ثمينة ، منها ثلاثون ألفاً من مختلف المعادن »[1] .

الخشب

كانت صناعة الخشب مزدهرة دائماً عند العرب . ومما يدهش الأوروبي الذي يزور المدن الشرقيّة ، المشربيّات المصنوعة من الخشب المُفرَّغ ، والملصقة

(1) Ali Mazaheri: «La Vie quotidienne des Musulmans au Moyen Age».

على النوافذ . كما تدهشه أيضاً المعرّشات الكثيرة والمشبّكات المصنوعة دائماً من الخشب المنحوت ، والموضوعة حول الشُرفات والمقصورات . وفي الجوامع ، تُصنع المحاريب والمنابر والمقارىء (Lutrins) من خشب محفور بصورة رائعة ومتينة . وغالباً ما تزين أبهاء المنزل والسلالم والسواتر والنوافذ والأبواب بملصقات خشبيّة مشغولة (إطباقات) . أخيراً ، كانت المقاعد والأرائك والمكاتب والطاولات والمناضد (الإسكملات) والعلب ، مزّينة بعلاماتٍ زخرفية مميّزة أو بنحت ونقش بالسكّين ، ومصنوعة أيضاً من الخشب المصقول . وكان يلزم الخشب كذلك للصناعة والبناء والوقود .

والحال ، لم يبالغ غوتييه (Gautier) كثيراً حين قال « لم يكن يوجد في الجزيرة العربية ما يكفي من الخشب لصنع عود ثقاب » . ولم يكن الشرق الأدنى كله بأحسن حالاً ، باستثناء لبنان الذي كان أرزه قد استُعمل أولاً لبناء الأسطول الفينيقي ، ثم لبناء الأسطول العربي ، وباستثناء أرمينيا التي كانت تمدُّ بلاد الرافدين بخشب الوقود . وكان باقي الشرق قد فقد ثرواته الحِرجيّة ، تلبيةً لحاجات الصناعة . وبالتالي كان الخشب المستعمل مستورداً . فكانت كل بيوتات الخليج وبلاد الرّافدين والجزيرة العربية تستعمل الأخشاب المستوردة من الهند وماليزيا وأفريقيا ، في الأثاث والتزيين الداخلي . وكانت تلك المواد تُنقل في المراكب أو بقوافل جذوع أشجار مربوطة ببعضها البعض بسلاسل .

لهذا السبب كان فنّ شغل الخشب دائم التطور في الأقطار العربيّة . فقد كان الحرفيّون ماهرين جداً . ، وكانت القطع الخشبيّة المقطّعة كمخرّمات حقيقيّة أو كمنمنمات مستديرة ، تشهد على مدى كفاءتهم وجدارتهم . كان قوام التزيين والتنميق النحت والنقش والتعشيق في الأخشاب العاديّة ، وتشبيك الخشب الثمين وتعشيقه بالعاج والمعدن . وكانت حجارة لعبة الشطرنج تشكل قطعاً فنيّة حقيقيّة .

الــورق

عندما فتح العربُ سمرقند سنة 712 تعلموا فيها طريقة ضرب الكتّان وصنع عجينة منه تتحوّل إلى أوراق رقيقة جداً . وكان في مقدور تلك العجينة أنْ تحل محل الورق القضيم (Velin) والرّق ، النّادرين والثمينين على الدوام ؛

فكانت صناعة الورق ، « الرّق البرديّ » الذي يذكّرنا بالبَرْديّ . وسرعان ما حلّ القطنُ محل الكتّان ، لكنّه كان أقل كلفةً وأكثر انتشاراً في الشرق . سنة 794 أنشأ الفضل ، الوزير البرمكي ، أول معمل ورق في بغداد . فهذه الصناعة ، الصينيّة الأصل ، تطوّرت بسرعة متناسبة مع ضرورات وحاجات الاستهلاك الورقي المتزايد خصوصاً مع الترجمات وتزايد الطلب الشديد على الكتب بوجه عام . وسرعان ما انتشر الورق في كل الأمصار الإسلامية وصولاً إلى اسبانيا . ومع ذلك كان لا بد من انقضاء ثلاثة قرون حتى ينتقل إلى أوروبا . وبقيت سمرقند عاصمة الورق الجميل لأمدٍ بعيد . فقد كانت القوافل تنقل الورق الحرير من الصين إلى سمرقند ، ومن الصين أيضاً جاءت غلافات الدفاتر والقياسات الرائجة اليوم : المنصوري (In- Folio) ، البغدادي (In- quarts) ، الصولي (In- Octavo) . أما الأزمنة القديمة فلم تعرف سوى مواعين الرّق .

في المكتبة الوطنية في باريس هناك نصوص طبعها المانيّون ، في تركستان ، قبل غوتنبرغ بستمئة سنة . ومن خلال تركستان ، أدخل المغولُ إلى بلاد فارس في القرن الثالث عشر ، الأوراق الخاصة القابلة للطباعة عليها بواسطة حروف برونزيّة متحرّكة . تلك الأوراق كانت أولى الأوراق المصرفيّة . وكان لا بد للإفراط في استعمال تلك الأوراق أن يؤدي في آنٍ إلى زوالها وزوال طريقة طبعها . لكنَّ أهل جنوى كانوا قد حصلوا على سِرَّيْ هذه الصناعة ونقلوهما إلى أوروبا .

الــزجاج

كانت صناعة الزجاج ، الفينيقيّة الأصل ، متطوّرة جداً في مصر وسورية لدرجة أنَّ عدّة سلع كانت تُباع وتوزّع في قوارير مفقودة . لقد اكتشفت آثارٌ منها لا تزال تحمل علاماتٍ تعود إلى القرن العاشر . بادىء الأمر كان الزجاج يُصنع في فينيقيا ، التي كانت مصانعها الزجاجية موضع احترام شديد لأمدٍ طويل . وفي وقتٍ مبكّر صدّرت مصر وسورية الزجاج إلى كل بلدان البحر المتوسط . وسرعان ما ورث الزّجاجون المسلمون كل مهارة الفينيقيّين والمصريّين والسوريّين . فمنذ القرن التاسع ، كانت الزجاجيّات الحلبيّة مطلوبة جداً . كانت تلك المدينة تصنع الكؤوس والقوارير والقناني ذات الإستعمال الرائج ، والمواعين أو الأدوات

الزجاجية اللازمة في الكيمياء : مُقطّرات ، أنابيب ، بالونات ، إلخ . وكانت دمشق تصنع الزجاج المذهّب ، كما كانت القاهرة العتيقة تصنع الزجاج الشفّاف الذي يشبه الزمرّد . ولأول مرة جرى صنع البلّور الصّخري في العراق وفارس . وهناك في مُتحف اللوفر والمتحف البريطاني قطع زجاجيّة رائعة من سامرّاء والفسطاط : كؤوس ، مزهريّات ، طاسات ومصابيح ، ملوّنة بألوان ساطعة وموشاة بميناء سوسنيّ أو بلاتين معدنيّ كقوس قزح المتغيّر الألوان . وكانت صور وصيدا قد توصّلتا إلى زجاج شديد الشفافيّة والرّقة . واعتباراً من القرن التاسع ، بدأت صناعةُ الأوراق الزجاجية التي استعملت واجهات للنوافذ ، وبعد ذلك بقليل ظهرت صناعة مصابيح الجوامع من عجينة زجاجية مزيّنة ومختلفة الألوان . وصنعوا التفاريج الزجاجية المزيّنة بالرّصائع والكتابات أو رسوم الأزهار . وزيّنوا الجوامع والقصور بزجاجيّات شفافة جداً ، حمراء ، خضراء أو صفراء ، ودخلت هذه الصناعة إلى صقلية في القرن الثاني عشر . وفي تلك المرحلة ، كانت حلب ودمشق تصنعان روائع زجاجيّة مزدانة برسوم الطلاء الخزفي . وأخيراً كانت البندقية تحصل في آنٍ من سورية ومصر على المواد الأوليّة واليد العاملة العربية الماهرة وأسرار الصناعة التي احتفظت بها من القرن الثالث عشر حتى القرن السابع عشر .

الخــزف

إن صناعة الخزف ، وكذلك صناعة الفخّار والخزف الصيني المزخرف ، هي من أصل صيني ، إيراني وساسانيّ . فقد كان الحجرُ نادراً وباهظاً في بلاد الرافدين وفارس ، ولكن الصلصال والحرّ كانا متوفرين . ومن خلال عملية الضوء والظلّ وتنوّع الاستعدادات والأشكال ، تحوّل الحجر الطيني العادي ، وصنع منه صفائح خزفية وقرميد مزخرف وفسيفساء متعدّد الألوان لتلبيس الجدران والنواتىء . ومع بعض الخزفيّات الصينيّة المزخرفة والمطليّة كانت تُصنع مساحات مضيئة . وكانت تشعشع الجوامع بتلك الزخارف الخزفية من أقصى بلاد الإسلام إلى أقصاها . أما اللطافة الأنثوية لهذا التزيين الداخلي فقد كانت تلعب دورها في توازن وانسجام الأشكال الخارجية التي كانت تتميز بجلال هيبتها .

في القرن التاسع ، بفضل التأثير الصيني لكن دون الاستسلام له ، كانت

تُصنع الأواني الخزفية الصينية المختلفة ، الفخمة شكلاً وحجماً ، والتي تذكّر ألوانها الغنيّة جداً بالخزف الصيني ، وكانت صناعتها منتشرة في خراسان وأفغانستان ، في سامرّاء على دجلة ، في سوسة والريّ وفي الرّقة على الفرات . لكن انعدام مادة الصلصال الصيني (Kaolin) في الشرق الأدنى كان يحول دون تطور صناعة الخزفيّات الشفّافة . في المقابل ، كانت بعض الخزفيّات تحاكي الطلاء الخزفي الصيني ، وكان بعضها الآخر يشعشع بانعكاسات ذهبية وفضيّة ، تم الحصول عليها من خلال مزج الأوكسيد المعدني . ففي الرّي والرّقة ، كان عدد من الأنواع الخزفية التنميقية المرسومة فوق صميم ملوّن ، يُذكّر بأروع المنمنمات ، وكان هناك قطع مطلية بالخزف تمثّل صوراً ومشاهد وأشخاصاً أو زخارف عربية ذهبيّة مُزيَّنة بالأزرق . أخيراً ، في منطقة الموصل كانوا يصنعون مزهريّاتٍ عليها أشكال بارزة ، وظهر الخزف الفارسي كأنّه بهجة ملازمة لهذا البلد ، فهو الانعكاس الساطع لعبقريته ونبوغه ؛ فهذا الخزف المصنوع بدقّة ، المنفَّذ بشفافية ، الرائع الألوان ، لم يعرف منافساً له في الغرب طوال سبعمئة أو ثمانمئة سنة . حتى أنّ هناك في الغرب ذِكْراً لمائدة أُقيمت في القرن التاسع وتبارى فيها الحاضرون بقصائد تمتدح الكؤوس والأكواب التي كانت تزيّن الطاولة .

الصناعة الكيميائية

كان العلماء المسلمون يفترضون أن كل المعادن من نوعٍ واحد وكانوا يعتقدون في إمكان تحويلها إلى بعضها البعض . وبالتالي سعى أهل الصنعة إلى تحويل المعادن « الأساسية » ، كالحديد والنحاس والرصاص أو القصدير ، إلى ذهب أو فضّة . فقد كان يُفترض بحجر الفلاسفة أنْ يكون جوهراً يمكنه ، إذا ما عولج بشكلٍ مناسب ، أن يسمح بإجراء هذه العمليّة . وكان البحث متواصلاً عن ذلك الحجر الفلسفي ، ولم يجدوه أبداً . وقد عولج الشَّعْر والدم والبول والغائط بواسطة عدد من الكواشف المختلفة ، المعرَّضة للشمس والنّار ، للتكلّس والتبخّر ، بأمل التوصل إلى اكتشاف « الإكسير » الذي يمكنه أن يطيل الحياة .

في مقابل أهل الصنعة ، كان ثمة فنّانون صناعيّون ذوو اهتمامات عمليّة ، ينكبّون على إجراء تجارب مبرمجة ، في مختبرات حقيقيّة ، لمعالجة الأجسام البسيطة

أو المركبّة . وكانت تلك الأبحاثُ تتناول أيضاً المعادن والأملاح والحمائض والمواد الملوّنة والدسمة ، إلخ . وكانت أجهزة الاختبار مكوّنة من آلات التقطير والأفران والمقطّرات والموازين ، ومن كل الأجهزة اللازمة ، المصنوعة من الصلصال الرّملي والزجاج أو المعدن . وإذْ كان خيميائيّو العصر يملكون جداول تدلّ على الأوزان النوعيّة ، فإنما كان في مستطاعهم منذ ذلك الحين أن يميّزوا الأجسام وهم يزنونها ، وأن يتعرّفوا إليها من خلال تحاليل موجزة ، وأنْ يعاودوا تركيبها وتوليفها أحياناً .

ولقد كانت مهارةُ أهلِ الصنعة ومعارفهم متطورة لدرجة أنّهم وجدوا الصباغات المناسبة لتلوين الأقمشة والفسيفساء والخزف . وكانت تلك الصباغات قد بلغت درجة من الكمال جعلتها تحتفظ بحيويتها نحو ألف عام .

لم تكن الأزمنة القديمة قد عرفت سوى عطور المشرق : المرّ والمسك والبخور ؛ فما كان من العرب إلاّ أنْ عرّفوا العالم على استعمال العطور . فسرعان ما تعلّم الكيميائيون استخراج عطور الأزهار . فكان يجري في خابور تقطير كل العطورات وفقاً للتقنّيات الزرداشتيّة : النرجس ، الليلك ، البنفسج ، الياسمين ، إلخ . وكانت بلاد الجُوْر مشهورةً بمائها العطريّ وكانت تصنع ماء زهر الليمون والورد ، المؤسس على ورد أصبهان . وكانت سمرقند معروفةً بعطرها الحَبَقيّ ، وسِكرُ كانت مشهورة بعنبرها . ولا يزال مِسكُ التيبت ونيلوفر ألبانيا وورد فارس من العطور المميزة والأسطورية على حدٍ سواء .

فالعرب إذْ مزجوا القالي (Soude) مع الزيت إنما صنعوا أول صابون وانشأوا إحدى الصناعات الرائعة في بغداد ، التي انتشرت بسرعة في مصر وسورية وتونس واسبانيا المسلمة .

ولقد أحسن الإسلامُ كثيراً للحضارات حين جعل حبّ الرّفاه يعمّ كل طبقات المجتمع ، فلم يعد الانتاج يكفي للإستهلاك . فكان لا بد عندئذٍ من ابتكار صناعة المواد البديلة .

صناعة المنسوجات

حين فتحَ الإسلامُ بلاد الشرق الأدنى كلها ، كان قد ورث المنسوجات

المصرية والقطنيّات الشاميّة والعراقيّة والإيرانيّة ، وصناعة الحرير الصينية . وكانت ذائعة الصيت الأقمشة البيزنطية والقبطيّة والساسانيّة ؛ وقد عرف المسلمون كيف يحافظون على صيتها . أما الحرير الذي كان النبيّ قد حظره ، فقد صارت مشاغله في الشرق الأدنى مصدراً لتموين العالم الوسيط . ففي مصر والشام كان يُنسج الحرير على أنوال يدوية ، وكانت هذه المنسوجات الحريرية ذات قيمة تزيينية في أوروبا . وقد استخدمه الصليبيّون لتغليف أقدس ذخائرهم .

كانت أفخر الأقمشة الكتّانية تصنع في مصر ، في منطقة دمياط . كما كانت تُنسج فيها أرقّ المناديل والستائر والأقمشة . كان البلاط المصري قد احتكر كل الصناعة الكتّانية ، فكان الكتّان يُزرع في إيران في القرن العاشر ، وقامت عدّة آلاف من الأنوال على ساحل الخليج وفي أذربيجان . ونظراً لجودة منتوجاتها وانتظام تصديرها ودقّتها ، حظيت تلك الأنوال بسمعة حسنة جداً لدرجة أنْ الأيدي كانت تتناقل السلع دون أي شعور بالحاجة إلى التحقّق منها .

بوجه خاص كانت الصناعةُ القطنيّة ناشطة في إيران . فكانت القطنيّات تُصنع في معظم مدن خراسان وسجستان وكرمان ، في وسط بلاد فارس . كانت تُصنع المنسوجات القطنية المطبوعة في بخارى ، والحرامات المنسوجة في جاهروم ؛ وكانت سيميز تصنع البياضات ومرقا تصنع الملابس الداخلية . وكانت نيشابور وبلخ متخصصتين في صناعة الأقمشة الكتّانية الكبرى ؛ وكانت تلك الأقمشة تُصدَّر إلى بغداد ومصر ، وتصل حتى إلى الصين .

حتى أنّ زراعة القطن انتشرت ، في القرن العاشر ، في سورية وافريقيا الشمالية واسبانيا . ولقد صنعت الموصل « الأقمشة الموصليّة » ، ودمشق الأقمشة « الدمشقيّة » .

إن صناعة الحرير ، المعروفة قبل الفتح العربي والقائمة على مواد أوليّة مستوردة من الصين ، قد انتشرت على سواحل بحر قزوين ، وفي طبرستان ، إلى جانب تربية دود القزّ في الآن ذاته . ولقد تطوّرت ، بعد الفتح ، في كل أنحاء الأراضي الإيرانيّة تقريباً . نُسجت مناديلُ النساء والطّرحات والوشاحات الموشاة بالذّهب ، والساتانات والتفتات والستائر البغداديّة . وكانت الحيرة مشهور

بصناعة الديباج المُذهب . وكانت كل تلك المصنوعات ذات جودة رفيعة ، كانت تُصدَّر حتى إلى الشرق الأقصى . هناك عيّناتٌ محفوظة في متحف اللوفر وفي الخزنة الأمبراطورية اليابانية . كانت أجمل الأقمشة الموشّاة بالذُّهب تُصنع في صقلية . وكانت موشحة بتطريزات حريريّة فوق أساس ذهبي ، أو بالعكس ، تطريزات ذهبية فوق أساس حريريّ . هذه الصناعة التي أنشأها الفاطميّون في پالرمة ، واصلت ازدهارها في ظلّ النورمانديّين . وجرى في صقلية ، القرن الثاني عشر . صنعُ رداءِ تتويج الأباطرة الألمان ، المحفوظ في مُتحف ڤيينا . في اسبانيا ، كان الحائكون السوريّون قد حملوا معهم ، منذ القرن العاشر ، تقنيّات صناعة المنسوجات الحريرية الموشّاة بالذُّهب .

إلّا أن الشّرق كان وما زال مشهوراً بصناعة السجّاد ، سواء من شعر الماعز أو الجمل ، أم من الصوف والقطن أو الحرير . وكانت المُحترفات ، المُقَامة في القرى ، تستخدم النساء والأولاد الذين كانوا يعملون وهم جالسون أمام أنوالهم ، على أنغام لحنٍ خاص يشيرُ إلى النقاط واللّوينات . وكانت الرسوم مستوحاةً من المشاهد الحيَّة ، لا سيما مشاهد القنص والطراد ومعارك الحيوانات أو ، تحت تأثير الإسلام ، من كتابة أسلوبية ومن حروف الفن العربي . ولم تظهر السجادة المخملية (اليعلي) في بلاد فارس إلّا في القرن الحادي عشر . فالسجاجيد الشرقية ، سواءً كانت من ميديا أو أذربيجان ، من غرجستان أو طبرستان ، كانت مطلوبةً كلها ، لكنَّ أشهرها كان سجّاد أصبهان . وكانت بخارى متخصِّصة في صناعة سجاجيد الصلاة .

الصناعة الميكانيكيَّة

عندما دخل العربُ إلى القصر الملكي في المدائن ، لاحظوا على الفور « وجود مفروشاتٍ كثيرة من الأبنوس والعاج والذهب ، ترتفع فوقها قبّة ذهبيَّة وهمدان في فارس ، ثم ببغداد حيث كانت تتشعَّب في اتجاهين ، من جهة القسنطينية والغرب عبر الفرات والمتوسط ، ومن جهة ثانية الجزيرة العربية وافريقيا عبر الكوفة والمدينة ومكّة وعدن .

كانت القوافل تنقل منتوجات الصين والتيبت والهند القاريّة . فكانت تحمل من الصّين الحريريّات والخزفيّات الصينيّة بوجهٍ خاص ، مقابل المنتوجات

ولازورديّة ، تمثّل العقد السماوي المزدان بالنجوم الثابتة التي تدور حول نفسها . . . فضلاً عن القمر والشمس في مجراهما الشهري والسنوي »[1] . فلم يفهموا شيئاً من تلك الآليّة الدقيقة . كانت تلك ساعة جدارية هائلة . قبل ذلك بعشرة أعوام كان هرقل ، الذي استولى على مدينة ملكيّة أخرى ، غزنة ، والذي توّغل داخل قاعة معبد الملوك الكبرى ، قد لاحظ ، حسب رواية تيوفان ، « الوثن الهائل (أورموز) وصورة الملك الجالس على العرش في سقف القصر الذي كان على شكل كرة (قبّة) ، وحولها الشمس والقمر والنجوم التي كان الوثنيّون يعبدونها كآلهة ، وكانوا قد وضعوا حولها الرسل الذين يحملون هالات حول رؤوسهم . وهناك كان عدو الله قد وضع آلاتٍ تتساقط منها القطرات مثلما يتساقط المطر ، وترسل أصواتاً مشابهة لأصوات الرّعد » . لم يفهم الرُّومي (البيزنطي) شيئاً من ذلك ، إذْ كان الأمر يتعلّق برقّاص عملاق يمثّل السماء . وقد كان هناك في الشرق نماذج أخرى للساعات الجدرانيّة ، أقل إثارة للاهتمام ، لكنّها لا تخلو من أجهزة معقّدة . وفي جامع دمشق الكبير ، يُلاحظ وجود قصر فيه 12 نافذة كانت تنغلق كلّما كان صَقْرٌ يُعلن الساعة . في آخر النهار ، كانت تصطفق كلّها وتنغلق . وكانت العملية تتكرّر ليلاً ، لكنَّ النوافذ كانت تُضاء ، الواحدة تلو الأخرى ، بالضوء الأحمر .

كان هرون الرشيد قد أهدى شارلمان ساعة مائيّة ، مصنوعة من الجلد والنحاس الدمشقي ؛ في كل ساعة ، كان فرسان من معدن يفتحون الباب ، ويتركون العدد المناسب من الطابات يتساقط فوق صَنج ، ثم ينسحبون . وبدوره قدّم سلطانُ مصر لفريدريك هوهنشتوفتن الثاني « قصر الساعات » ، وهو رائعة ميكانيكية حقيقية ، وحافظ السلاطين المسلمون على التراث ، وهم في أيامنا يقدّمون الساعات هدايا لضيوفهم . اعتباراً من القرن العاشر صارت تُصنع نماذجُ أقلّ تعقيداً لكن سعرها لم يجعلها في متناول ذوي الدخل المتوسط .

بالنسبة إلى مجمل « المؤمنين » كان هناك آلات ميكانية أخرى ، أكثر أهمية

---

(1) D'après ALI MAZAHERI dans «La vie quotidienne des Musulmans au Moyen-Age»

وقيمة ، وتعمل بواسطة الماء : الطواحين الموزّعة على ضفاف الأنهار . فقد كان هناك طواحين ثابتة قريبة من التجمعات البشرية الكبرى . وكان هناك طواحين متحرّكة ، يجري نقلها لطحن الحبوب محلّياً في القرى والأماكن المجاورة .

في الموصل كان هناك طاحونة واحدة مركّبة فوق مفصلة خشبية وسط نهر دجلة ، وكان التيّار المائي يحرّك حجارزها ، فتستطيع طحن 50 طناً من الحبوب يومياً . وكان هناك في بغداد مطحنة أخرى مزوّدة بمئة حجر طحن . عند ملتقى النهرين ، في البصرة ، كان ثمّة آلة تتحرّك وفقاً للمدّ والجزر وتُستخدم في تشغيل عدة طواحين ، موزّعة بنظام .

وحتى اليوم لا تزال تعمل في العراق وسورية نواعير كبيرة ، مثبّتة على ضفاف مجاري المياه ، ترفع الماء من مجرى النهر وتسكبه في أقنية الرّي المنطلقة من الحفافي . تلك الآلات الميكانيكيّة كانت تسمّى « نواعير » ، وتعمل أيضاً على نهر العاصي . أخيراً ، في وسط الهضبة الإيرانية ، كان هناك طواحين هوائية أقامها الفرسُ قبل الفتح العربي ، وكانت تستعمل الريح الذي ينفخ فيها بانتظام . ولا يزال يعمل حتى اليوم عدد معيّن من هذه الطواحين . ولقد خطر على بال المسلمين أن يقيموا مثيلاتٍ لها في صقلية وافريقيا الشمالية حيث لا يزال بعضها يُستعمل اليوم في عصر الزيتون واستخراج قصب السكر[1] .

التجــارة

عبر بلاد الإسلام كانت تمرُّ كبرياتُ التيّارات البرية والبحريّة التي كانت تجمع الأجزاءَ المعروفة من عالم العصر الوسيط : وفيها كانت تتلاقى أوروبا وآسيا وأفريقيا عند ملتقى طرقاتها .

وكان من شأن هذا الوضع الجغرافيّ المميَّز أن يعطي للتجارة الإسلاميّة أهميّةً كبرى . فكانت عمليّاً تمرُّ في طريقين رئيسين : الطريق البري المسمى طريق الحرير ، والطريق البحري الذي كان يُسمّى طريق الهند . وكانت طريقُ الحرير تصلُ الصينَ بالغرب ؛ فكانت تمرُّ بسمرقند وبُخارى في تركستان ، وبالرّي

(1) ALI MAZAHERI.

المصنوعة في بيزنطة وبلاد الإسلام . وكانت تُجلب من التيبت اللآلىء المستوردة من سيبيريا والجلود الاستراكانيّة التي كانت تطلبها بشكلٍ خاص الطبقة الميسورة في فارس وبيزنطة . وكانت تُجلبُ من الهند المنسوجات والقطنيّات ، المجوهرات والحجارة الكريمة ، العطورات والنباتات الطبيّة . ومن خلال طريقٍ آخر ، يمرُّ بالفولغا وبحر قزوين ، كان يجري جلبُ الرقيق الأبيض من روسيا واسكنديناڤيا ، وجلبُ العنبر من البلطيق ، والعسل من الشمال ، المستعمل محل السكّر ، وشمع المصابيح التي كان الإسلام يستهلك منها كميّاتٍ كبيرةً في جوامعه ومساجده . وكانت طريق الهند ، طريق السندباد البحري ، هي الطريق البحريّة . فكانت تصل بلاد فارس وموزمبيق ومدغشقر بسواحل الهند الشرقية والغربيّة ، وبماليزيا وسومطرة وبلاد الخمير (كمبوديا حالياً) والمرفأ الكبير في جنوب الصين : مرفأ كانتون حيث كانت الجالية العربية كبيرة العدد .

كان الشرق يتلّقى من تلك البلدان المختلفة المنتوجاتِ البالغة التنوّع . فمن افريقيا كان يستورد العبيد السُّود ، والعاج والإبريز والعنبر الرّماديِ . وكان في الجزر نباتات طبيّة وبهارات ومنبّهات . وكان الشرق يجلب من الهند الحديد والفولاذ والقصدير ، ومن ماليزيا أخشاب البناء والصباغات والمواد المعدنيّة . وكانت بلاد الخيمير تصدّر الخشب الثمين .

كان المسلمون ينقلون إلى الصين العاجيّات ، وإلى أفريقيا والهند الحرشفيّات القشرية ، والنحاس والكافور التي كان الصينيّون يدفعون ثمنها باهظاً . وفي كل مكان تقريباً ، كان التجّار العرب يبيعون منتوجاتٍ مصنّعة وزجاجيّات ومجوهرات وكبريتاً وأقمشة كتانيّة وعطوراً وفواكه وخضاراً . وبشكلٍ خاص كانت مزدهرة تجارةُ الخيل . ففي كل عام ، كانت تُنقل عشرات الألوف من الجياد ، من سيراف إلى ساحل كوروماندِيل حيث كانت تُباع للهنادكة . عملياً كان البحر المتوسط ، حتى عصر الصليبيّين ، خاضعاً بكل وضوح للتجارة الإسلاميّة التي كانت تجري بين سورية ومصر من جهة ، وبين افريقيا الشمالية وإسبانيا وصقلية من جهة ثانية . وفوق ذلك ، كانت تصل إلى اليونان وايطاليا وفرنسا .

لم يكن النبيّ ذاته يزدري منافع التجارة الشريفة والأمينة . فعندما كان

سائداً على المدينة ، يقول الحديث إنه كان يشتري بالجملة ويعاود البيع بالمفرَّق ، وإنَّه كان يقتطع ربحه دون أي انزعاج . وكانت لغته غنيَّة بالتوريات التجارية ؛ فكان يهدّد بنار الجحيم التّجارَ المنافقين ، ويندّد بأولئك الذين كانوا يحتكرون الحبوب ويضاربون بها ، لكي يبيعوها بأغلى الأثمان ، لدرجة أنّه ذهب إلى حدّ تحريم القرض بفائدة (الرِّبا) . وعلى مثاله الرفيع ، لم يكن لدى العرب أحكام مسبقة تجاه التجارة كتلك الابتسارات التي كانت سائدة لدى الأرستقراطية الأوروبيَّة في العصر الوسيط . فالعرب حين جمعوا الدُّول وأزالوا الحواجز الحدوديّة ، كانوا قد أدركوا أن أفضل وسيلة لتسهيل المبادلات التجارية كانت تكمن في تسويق لغة واحدة غدت اللغة التجارية الممتازة . ومنذئذٍ ، شهد العالمُ تطوراً سريعاً وعفوياً للمدن والقرى بفضل التجارة وأثر الحركة ؛ فشهدت المعارضُ والأسواقُ نشاطاً كبيراً وعجَّت بحياةٍ جديدة وسط لغط المحادثات والمساومات . وكان ثمَّة احتكاك حميم وإنساني ينتظم تقليدياً في سياق ازدهارٍ فريدٍ من نوعه ، لم يشهد الغربُ مثله إلاّ بعد ستمئة أو سبعمئة سنة .

الـقوافـل

كان هناك عدّة طُرق تربط بين المدن الكبرى . إذْ كانت قوافل الجمال تعبرها بشكلٍ منتظم ، فتمرّ في البلاد المنبسطة والسهوب المقفرة ، وكانت البغالُ القويَّة والصَّبورة تجتاز البلاد الجبليَّة ، الوعرة . وعلى هذا النحو ، كانت السّلع المختلفة تُنقل في البالات والسّلال والأقفاص القصبيّة والبراميل والصناديق والعلب من كل نوعٍ ولون .

كان حوالى خمسة آلاف جمل وناقة تجتاز طرقات العالم الإسلامي ودروبه في كل الاتجاهات . وكان ثمَّة إدارة ساهرة قد انشأت على امتداد كل تلك الطرق ، منازل ومضافات وينابيع ، وأقامت في المناطق الصحراوية خانات كبيرة وكثيرة حيث يمكن للبهائم ومرشديها أن يستريحوا ويتزوّدوا بالتموين . كما كانت تلك المنشآت تُستعمل كملاجىء وملاذات في أثناء هبوب العواصف الرّمليَّة ، الشديدة العنف لدرجة أن قوافل بكاملها كانت تُفقد وتُطمر في الرمال . ففي قفر بلاد فارس الشرقية ، كانت قد أُقيمت عدَّة محطّات على حافة الدروب وجنبات

الطرق . وفي كل مكان كانت المعالم ترشد إلى الدروب وتدلّ على الطريق . أما في البلاد الجبليّة ، فكانت الجسورُ المُصانة بكل اعتناء ، تحاذي المجاري المائية ؛ وكان جسر قارون ، في منطقة سوسة ، يبلغ طولُه كيلومتراً وتبلغ قناطرُه 72 قنطرة ؛ ولا يزال معظم هذه المنشآت قائماً ، رغم أنَّ طريق الحرير قد فقدت الكثير من أهميّتها .

المــرافىء

كانت سواحلُ الخليج الكئيبة والمُعادية قد جعلت الجغرافيّين يتنكّرون لكل نشاط بحري في تلك المناطق . إلّا أن مرفأ طاقاغ كان مشهوراً في عصر البارثيين وحتى القرن السادس ، حين حلّت سيرافُ محلّه . فقد شهد مرفأ سيراف نشاطاً كبيراً على مدى خمسمئة سنة ونيّف ، وكانت جزيرة كيش الواقعة في مواجهة سيراف تنافسه في خلال القرن الحادي عشر ، على الزعامة التجارية البحريَّة ، ففي مرحلة الفتح العربي ، كان لسيراف أسطول تجاري مهمّ ، وكان فيها ملّاحون وتجّار ذوو خبرة قوية ، وكان هناك متاجر في جزيرة پمبا في أفريقيا ، وفي قيلون على ساحل مالابار ، وفي قرا في جزيرة مالاقة ، وفي كانتون الصينية . أما الازدهار الموسوم بسمة الإسلام ، وما نجم عنه من ثراء ، فقد طوّرا تجارة هذا المرفأ الكبير تطويراً شديداً . إذ كانت تُعقد فيه الصفقاتُ الكبرى ، كما كان سكّانه من الموسرين . ولم يعد في الإمكان عدّ الثروات التي تزيد عن 50 مليون فرنك ذهب . كانت تسليفاتُ تجّار سيراف واعتماداتهم كبيرة ، وكانت سنداتهم تصرف في كل مكان . إلّا أن زلازل أرضيَّة دمرّت المدينة في نهاية القرن العاشر (978) ، فأقام سكانها في جزيرة كيش ، على الصخور الواقعة مقابل المدينة القديمة . وسرعان ما صارت كيش مرفأً من الطراز الأول ، ونوعاً من جمهورية تجارية لها مالكوها ، كالبندقيّة وجنوى . لكنَّ مرفأ كيش كان له منافسه الجدّي ، الشديد التنظيم ، والذي كان له مالكوه أيضاً : جمهورية عدن . وكان الأسطولان البحريّان يتنافسان على الأسواق حتى الصين وظلّا في حالة تنازع شديد ودائم ، بقدر ما كان البحر الإسلامي منقسماً منذ مطلع القرن الحادي عشر ، إلى قسمين متخاصمين ومتنافسين : فريق الخليج وفريق البحر الأحمر ، مثلما كانت الأراضي الإسلامية ذاتها منقسمة بين مملكتين متخاصمين ومتنافستين :

مملكة بغداد ومملكة القاهرة .

الملاحة البحريّة

كان يلزم للملاّحين المسلمين نحو شهر للذهاب من الجزيرة العربيَّة إلى الهند ، ويلزمهم شهر آخر للوصول إلى شبه جزيرة مالاقة ، وشهرين لعبور السواحل الصينية . وكانت رحلةُ العودة تستلزم الوقت نفسه تقريباً ، ولكنْ كان لا بد من انتظار الرياح الموسميَّة .

كانت السفن ، المصنوعة عادةً في الصين ، ذات نوعين : سفن سريعة وخفيفة ، مخصَّصة فقط لنقل المسافرين ، أو سفن كبيرة مخصصة لنقل البضائع وكانت قادرة على نقل عددٍ كبيرة من المسافرين . كانت (اعتباراً من القرن الثاني عشر) مجهَّزة بالبوصلات والاسطرلابات والسَّابرات والفنارات ، وبموظف يدلّهم على التيارات والمد والجزر ، وبخيط مزوَّد برصاصة لكي يحدّد الأعماق ، ولم يكن ثمة ما يمنعهم من مجابهة أعالي البحر . فكانت أشرعتهم المنشورة والمدروسة بعمق توّفر لهم سرعة معيّنة وتجعل السفن قادرة على الدفاع عن ذاتها في مواجهة القراصنة الذين كانوا يعيثون فساداً في السواحل والذين كان مركزهم الرئيس في جزيرة سوقطرة ، عند مخرج خليج عدن. هكذا كان الأسطول التجاري الذي كان ينبغي أن تُضاف إليه المراكب التي تعوم في المياه القليلة العمق ، والتي كانت تُستعمل في الساحل الأفريقي الشرقي بشكلٍ أساسي .

وكانت الملاحة منظّمة تماماً . فجدول التقلبات الطقسية كان يقدّم في كل سنة ولكل مرفأ اتجاه الرياح والرياح الموسمية . أما المنارات ، المصنوعة من مصباح نفطي يحميه الزجاج ويغطيه سقف واسع ، فكانت قد شُيّدت بعددٍ كبير . وثمَّة معلومات لا بد من التنبّه لها : وهي أنَّ ملاّحي المحيط الهندي ما كانوا يعتمدون حساب الدرجات والدقائق ، كالكلدانيّين ، إذْ كانت عادتهم أن يقيسوا المسافات بالقصبة والأصابع والعِقد .

ملاحة الأنهار

لم يكن في تلك البلاد الواسعة مجارٍ مائية ، وكان القليل منها صالحاً للملاحة . ففي الشرق هناك نهرا الهندوس والأوكسوس اللذان ينبعان من الپامير

ويجريان في اتجاهين متعاكسين . فنهر الأوكسوس الذي كان في الماضي يصب في بحر قزوين ، يصل اليوم إلى بحر آرال ويسمّى آمو داريا . ولئن صعدنا نحو الغرب ، على مسافة 4 آلاف كيلومتر ، فإننا لا نجد سوى دجلة والفرات الآتيين من الشمال واللذين يصبّان في الخليج ، وأبعد منهما نجد نهر النيل الذي يأتي من الجنوب ويصبّ في البحر المتوسط . وهذه الأنهار الثلاثة الأخيرة هي الأهمّ .

إن الفرات ، الموازي فترةً للبحر المتوسط الذي لا يفصله عنه سوى 200 كيلومتر ، يجري في أماكن غير بعيدة عن المدن السورية الكبرى : حلب ، حماه ، حمص ، دمشق . وبإمكان القوافل المنطلقة من هذه المدن أن تلتقيه عند مسكنه حيث يكون صالحاً للملاحة . وبعد ذلك يغدو ممكناً الذهاب إلى بغداد من طريق نهر دجلة ، وذلك بسلوك قناة عيسى التي كانت تصل بين النهرين . ونظراً لإنعدام الصيانة ، صار مجرى الفرات ينتشر اليوم عبر مستنقعات ، ولم تعد المدن المزدهرة جداً بالأمس ـ مثل الرّقة التي كانت مدينة ملكيّة ـ سوى تجمّعات صغيرة فوق أخاديد رمليّة . فعبر الفرات ، وفوق مراكب طولها عشرة أمتار كانت تنقل أخشاب البناء والوقود من أرمينيا إلى العراق وبلاد الرافدين .

كان لشبكة الملاحة أهمية كبرى في حياة الخلافة الاقتصاديّة . وكان هناك مراكب عديدة تمخر عباب المجاري المائيّة . وكانت سفن النّقل القادمة من الصين تفرغ فيها جلود الخرفان المنفوخة بالهواء ، في حين كانت هذه المراكب تنقل الخضار والفواكه من أرمينيا . وكانت زوارق الإدارة الخليفية السريعة تنزلق بين السفن الثقيلة المحملة بالبضائع وبين مراكب المسافرين . وفي بغداد كان ثمة ثلاثة جسور عابرة لعرض النهر الذي يبلغ 250 متراً . وكانت التجارةُ فيها كثيفة لدرجة أنّ المراكب والمواعين كانت تتلامس تقريباً ، وكان النهّر مُغطّى بها . غير أنّ الكثافة القصوى كانت في إقليم البصرة ، لأن أكثر من مئة ألف ترعة وقناة ماء كانت تجري عبر غابات النخيل والقصب . ويُقدّر عدد الزوارق التي كانت تعبر المياه في عصر العباسيين بثلاثين ألفاً .

البـــريد

في البداية كان البريد محصوراً بحكومة الخلافة ، ثم وضع بتصرّف

الجمهور في أثناء العصور التالية . كان البريد ينقل بواسطة مراكب بريدية ، وعلى ظهر الجمال أو البغال حسب البلدان ، وكانت الرسائل والبرقيات تُنقل بواسطة الحمام الزاجل أو الإشارات الضوئية . وقد أُقيمت محطّات على حدود الأمبراطوريتين الصينيّة والبيزنطيّة . وبالتالي كان البريد مؤمّناً على نحو أسرع مما يُظَن ، بين أوروبا والصين .

يُقال إن ذهاب البريد وعودته كانا يتمّان خلال 24 ساعة بين بغداد والمدن الكبرى المحيطة بها : الموصل ، الرقّة ، البصرة أوالكوفة . مع ذلك كانت هذه المدن المختلفة تبعد عن العاصمة ما بين 300 و500 كيلومتر . وفوق الأنهر الكبرى ، كانت المراكب البريدية ، والتي كانت تحمل مسافرين أيضاً ، تغطي 180 كيلومتر يومياً . وكان يُمارس إرسال البرقيات بواسطة الإشارات الضوئية في غرب الامبراطورية بوجهٍ خاص ؛ ففي ليلة واحدة كانت تُنقل برقية من المغرب إلى مصر ، الواقعتين على مسافة 3500 كيلومتر. وكان نقل البريد بواسطة الحمام الزَّاجل منتظماً جداً ؛ ففي كل ساعة كانت الحمائم الورقاء تصل من شتى أرجاء الامبراطورية . وكانت الأجور تُدفع عند الاستلام . لم يكن ثمة شيء محظور ، وكان نقل الرسائل والبرقيات يشكّل دخلاً منتظماً للدولة . وكانت الإدارة والخاصّة يستخدمون أختاماً شمعيَّة ، وكان صانعو الأختام يسجلون كل الأختام التي كانوا يصنعونها . وكان الولاة يراسلون العاصمة بواسطة الرموز .

تجارة المال

في الأزمنة القديمة كانت تجارة المال بين أيدي الغرباء في الشرق ، الهنادكة شرقاً والهليّنيين في الوسط ، وكان ينافسهم الفريسيّون والمشرقيّون إلى حدٍ ما . وفي زمن الإسلام ، انتقلت إلى أيدي اليهود .

فمنذ زمنٍ بعيد كان هناك جالية من المصرفيّين والتجار اليهود في أصبهان . وكان المصرفيون اليهود في بغداد يقرضون حتى الوزير . وكان اليهود في الشمال وفي الغرب قد اغتنوا كثيراً من تجارة الجملة ، وكانوا رأسماليين أو مزارعين عاميّين . وفي الغرب كانوا يسيطرون على صيّادي اللآلىء في البحر الأحمر ويتقاسمون احتكار التجارة مع المسيحيّين . وفي أواخر القرن العاشر ، كانت

يدهم الموضوعة على المال قد سمحت لهم بالوصول إلى الوزارة ، وذلك في اسبانيا ومصر في آنٍ واحد . إلّا أنّ الفرس الذين فقدوا إقطاعاتهم عند الفتح ، دخلوا اللعبة بخجلٍ شديد في البداية . ومنذ أولى سنوات القرن الحادي عشر ، كان في البصرة ، وهي أكبر مركز مصرفيّ في الخلافة العباسيّة ، عدد معيّن من المجوس الذين سرعان ما تغلغلوا في سورية ومصر .

في منتصف القرن الثالث عشر ، لجأ صيارفة الشرق الأوسط مع رساميلهم إلى دلهي ، هرباً من الغزو المغوليّ ، وكانت دلهي منذ أمدٍ بعيد مستوطنة إسلامية ، فصارت وول ستريت العصر . وكانت الثروة تُحسب بالقطع الفضية (الدرهم) حتى أواخر القرن التاسع ؛ وبعد ذلك صارت تُحسب بالقطع الذهبيّة (الدينار) . وفي وادي النيل ، في بلاد الفلّاحين والأيدي العاملة المثالية ، كانت متداولة كثيراً القطع الذهبية ، وكانت الثروة هناك كبيرة جداً . أما في الشمال الشرقي ، في تركستان ، فلم تكن متداولة سوى العملات النحاسية ، فمن هناك ، كان الغزاة ينطلقون دائماً ، كأن الفقر يطردهم نحو البلاد الغنيّة . هذا وقد فرض نفسه الدينار المصري ، المسمّى بالمغربي ، أو دولار العصر ، على كل البلاد الإسلامية ، نظراً لمثقاله الذهبيّ . نظرياً كانت قيمته 13 درهماً ، لكن العملة الفضّية كانت قد تلاشت ، فارتفع سعرها ، وشهد العام 1000 إضراباً للحرس الخليفي ، احتجاجاً على غلاء المعيشة . فقد كان سعر العملة خاضعاً لتقلّبات شديدة . ففي كل سنة ، وقت الحج إلى مكة ، كان سعر الدينار يرتفع . أخيراً ، عندما كانت الحكومة تتخبّط وسط الاختناقات والأزمات المالية ، كانت الخزينة توازنُ الموازنة من خلال التلاعب بأسعار العملة وسنداتها . لا شيء جديد تحت الشمس .

وكان توافد الرساميل إلى دلهي يرفع سعر الذهب الهندوستاني ، أي سعر التنكا (Tanka) التي كانت تضارع المُغربي ؛ وكانت حركة الإرتفاع تلك تزداد في السر ، بينما كانت الدول الإسلامية تتهاوى بعد الغزو المغوليّ . ولكن عندما انتصر السلطان المملوكي ، الأشرف ، على الفرنجة والمغوليّين ، في نهاية القرن الثالث عشر ، كان الدينار المصري قد راج في كل الشرق تحت إسم الإشرفيّ .

الفصل الثاني عشر

بغداد وبلاط الخلفاء

المدينة المدوّرة

إذن سنة 750 ساد أبو العبّاس ، الخليفة العبّاسي الأول ، على أمبراطورية كانت ممتدة من نهر الهندوس إلى الأطلسي . وكان مساعدوه على التمكّن من السيادة عليها ، من أصل فارسيّ . ومعهم أخذت الألقاب الفارسيّة والخمور الفارسية والنساء والأغاني والأفكار والعادات العقلية الفارسية تشقّ طريقها إلى قلب البلاط . كما أن نفوذهم سيخفّف من حدّة الصلابة العربيّة ويمهّد الطريق أمام عصر ثقافي جديد. زدْ على ذلك أن وضع العاصمة الجغرافيّ كان يؤهلها لاستقبال التيّارات القادمة من الشرق . فراحت فارس تغزو فكرياً أولئك الذين كانوا قد أخضعوها بالقوّة قبل ذلك بمئة عام . لكنّ العرب ظلّوا متماسكين حول نقطتين جوهريتين : الدين واللغة .

مات أبو العبّاس سنة 754 . فخلفه المنصور وله من العمر أربعون عاماً . كان المنصور طويلاً ، رفيعاً ومتقشّفاً ، شديد الفطنة ، قليل التحفّظ ، مثقّف ، يحبُّ الفنون والعلوم أكثر مما يحبّ النساء أو الخمرة . أعاد تنظيم الحكم والإدارة والجيش ، وضيّق على المستفيدين وأدار الأموال بدّقة ، وضمّ إليه وزيراً أول ، وهو خالد البرمكي الشهير ، وأنشأ بغداد التي ستبقى في التاريخ كمدينة خرافيّة .

لقد كانت مدينة بابلية قديمة ، على الشاطىء الغربي لنهر دجلة ، لا تعرف البعوض الذي كان يسمّم الحياة في البصرة والكوفة ، وتقع على مسافة قريبة من تلك المدن التي كانت تختمر فيها البروليتاريا . وقد قال فيها الخليفةُ ذاته : « إنها

مكانٌ ممتاز لإقامة مخيَّم عسكري » . فمن المؤكد أنَّه كان يرى فيها موقعاً استراتيجياً ممتازاً ، آمناً بين الأراضي ، وهو مع ذلك يتّصل ، عبر دجلة والفرات والقنوات ، مع الحواضر الكبرى والمناطق الداخليَّة الخصبة من جهة ، ومع الخليج وكل مرافىء العالم من جهة ثانية . هذا الموقع المرموق كان السبب المباشر لازدهار بغداد . فالمدينة ، المحاطة بحَرَم دائري ، كان يحميها تحصينان وخنادق عميقة . وكان هناك حصن ثالث للدفاع عن مدخل الأحياء المركزيَّة . وكانت جدرانُ الحَرَم مزوّدة بأربعة أبواب ذهبية تفضي إلى جهات الامبراطورية الأربع . في وسطها كان ينتصبُ قصرُ الخلفاء والباب الذهبي . وهناك بالقرب من البلاط مباشرة ، تقوم في كل من النقاط الرئيسة الأربع ، قصور الأمراء (الولاة) . وحول المدينة المقسّمة مثل ميناء السّاعة ، كان هناك 12 قصراً يسكنها رؤساءُ الأجهزة الكبرى . وكان كل ذلك المجمَّع يدور حول بلاط الخليفة ، وفقاً لمخطط ممركز وضعه معماريّ فلكيّ كان يرغب في تمثيل الصورة التقليدية للسماء على الأرض .

البلاطـات

خارج الجدران ، كان المنصور قد شيَّد فوق الشاطىء نفسه قصراً صيفياً أحبَّه هرٰون الرشيد كثيراً ، لأنه أمضى فيه معظم حياته . فمن نوافذه كان يمكنه أن يتأمَّل المراكب والسفن وهي تُفرغ على أرصفة دجلة حمولاتها المنقولة من كل مرافىء المعمورة . في المقابل ، على الشاطىء الفارسي ، ابتنى المنصورُ قصراً لولده المهدي . وحول ذلك القصر تطورت مدينة ، سرعان ما تعدَّت المدينة المدوّرة ، لكنَّ المدنتين ظلّتا موصولتين بجسرين من المراكب .

من الصعب جداً أن نذكر ، بكلمات ، روعة البلاط الملكي وفخامة الخلفاء ؛ حتى أنَّ جلال وبهاء البلاطات الفارسية والبيزنطيَّة كانا يعجزان عن إعطاء فكرة عن تلك الفخامة . إنَّ الأرقام ، في جفافها ، ستتكلم على نحوٍ أفضل ربّما . يرى المؤرخ أبو الفداء أن بلاط الخليفة كان يحتوي على 22 ألف سجادة أرضيَّة و 38 ألف سجَّادة جدارية ، منها 12500 سجادة حريرية موشّاة بالذهب . وكانت قاعة الاجتماعات الكبرى مدهشةً بشكلٍ خاص ، بستائرها

وطنافسها المختارة من أجمل المصنوعات الفارسيَّة . أما الفاتنة زبيدة ، زوجة هرُون الرشيد ، ذات الصنادل المرصعة بالحجارة الكريمة مثل زوجات العظماء في كل العصور ، فلم تكن تحب سوى الملابس المذهبة أو المفضَّضة والأشياء الثمينة التي تشع بالماسات والحجارة النادرة . وكان حب الفخامة هذا قد بلغ مبلغاً عظيماً لدرجة أنَّ صناديق من خشب التك المطعم بالذهب ، كانت تخفي جذوع عددٍ كبير من أشجار النخيل .

الـــثروات

كان زواج المأمون سنة 825 من إبنة وزيره مناسبةً للتباهي بالثروات . « ففي حفل الزِّفاف ، جرى رشُّ ألف لؤلؤة نادرة الحجم موضوعة في صينية ذهبيَّة ، فوق رأسي العريسين الواقفين فوق سجادة ذهبية ، مرصعة كلها باللؤلؤ والياقوت . وكان هناك مصباح من العنبر الرّمادي ، زنته 100 كلغ ، قد قلب الليل نهاراً » .

في زمن لاحق ، ابتنى المعتضد « قصر الثريا » الذي يمكن للمرء أن يتخيَّل حجمه من خلال اسطبلاته التي كانت تأوي 9000 جواد وبغل وجمل . وفي سنة 902 ، شيّد المكتفي في مكانٍ قريب من قصر الثريا ، قصره المعروف بقصر التاج الذي يغطي بحدائقه وأبراجه مساحة 20كلم². وفي سنة 917 ، أنشأ المقتدر بدوره « قلعة الشجرة » المسماة هكذا نسبةً إلى شجرة نُصبت فيها ، مصنوعة من 18 غصناً من الذهب والفضة . وفوق فروعها وأوراقها المغطاة بالجواهر ، رُكبّت طيور ميكانيكية مصنوعة من الحجارة الكريمة بالتمديد . وعند أقل نسمة ، كانت تتمايل الأغصان وتهتّز الأوراق وتبدأ الطيور بالغناء .

سنة 917 استقبل المقتدر سفراء الروم في حفلٍ مهيب ، فاندهشوا من رؤية قصور بغداد وبلاطاتها ذات الأدراج الرخاميَّة ، ومن الثراء الخيالي البادي على زينتها وأثاثها . وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما رأوا السُّروج الذهبيَّة والفضيّة والأغطية الديباجيّة لسروج الخيل الملكي ، والزوارق الملكية - وهي عبارة عن قصور عائمة فوق دجلة - واستعراض 16 ألف جندي بملابس ساطعة ، بين راجلٍ وخيَّال ، يتقدمون 7000 من الخصيان البيض أو السود ، و700 من حرس

القصر ومئة أسد مع مروّضيها .

هرٰون الرشيد

بين كل أولئك الملوك المدهشين ، يظل هرون الرشيد (786 - 809) النموذج الأبدي للخليفة الأسطوري في التقاليد الإسلاميّة . تصوّره حكايات العصر كملكٍ مرح ومثقّف ، مستبّد وعنيف عند الضرورة ، لكنّه إنساني في أعماقه . ويروي المؤرخون المسلمون أنه كان ورعاً دائماً ومسلماً مستقيماً ، يحج كل سنتين إلى مكّة ، ويركع مطولاً في خلال أدائه الصلوات اليوميّة .

هرون الرشيد ، الأنيس في مجلسه ، المرهف في احساسه ، كان يحب الشّراب في مجلس خاص مع بعض خلّانه وجلسائه المختارين . كان عنده سبع زوجات و 200 سريّة ومحظيّة ، و11 ولداً و17 بنتاً ، كلهم من إماء ، ما عدا الأمين الذي أنجبته له زبيدة . سلطان ذو ثرواتٍ هائلة ، كان يحب الشعر بحماسٍ شديد لدرجة أنّه كان ينعم أحياناً على الشعراء بهباتٍ وأعطيات مفرطة . ومثال ذلك أنه أنعم على مروان الذي امتدحه بقصيدةٍ قصيرة ، بخمسة آلاف دينار ذهب ، وكسوة ، وست جوارٍ روميّات وأحد جياده المفضّلة . وكانت هالته تجتذب إلى بغداد العاصمة كل الكفاءات والمواهب ، مثلما يجتذب الحبيبُ محبوبته . هكذا كان يجمع حوله « مجلساً فريداً » من الشعراء والفقهاء والأطباء والنحويين والبلغاء والموسيقيين والفنّانين وعباقرة الفكر ؛ وكان يجيد تقويم أعمالهم بذوقه الرفيع ويكافئهم بسخاء . فقد كان هو نفسه شاعراً ، عالماً وخطيباً مفوّهاً وفصيحاً . ولم يجمع أيُّ بلاطٍ في كل التاريخ مثل هذه الكوكبة الساطعة من العقول والمواهب .

كان لهرون الرشيد صحابةُ أنسٍ بالغو المواهب والنبوغ لدرجة أن شهرة بعضهم قد وصلت إلينا . فقد كانوا كلهم مميزين بفكرٍ ثاقب وذاكرة قويّة ومواهب بالغة التنوّع ؛ وفي الوقت ذاته كانوا جميعهم مغنين ، مؤلفين ، شعراء وعلماء . ذات مساء عندما كان المخرّق يغني في زورق على نهر دجلة ، ظهرت من كل الجهات ، من الشوارع ومن الماء ، شهبٌ مضيئة متجهة كلها نحوه ، وكأنّ كل واحد كان متشوّقاً لسماعه عن كثب في روعة ذلك المساء .

ومن صحابة هرون الرشيد ، جليسُه الأنيس ، الشاعر الإباحي أبو نؤاس ، الذي كان يغيظه باستمرار من جراء تهتّكه أو انحلاله ، والذي كان يخرج من الورطة ، بانتظام أيضاً ، سواء بارضاء الخليفة بأبياتٍ من الشعر الجميل أم بتظاهره بالتوبة ؛ وكان كتاب الأغاني قد صوَّر أجمل تصوير الحياة الخرافيَّة والجماليَّة في بلاط الإمتاع والمجد هذا . وفيه يروي أبو نؤاس أخبار الاحتفال الشهير الذي كان يشرف فيه الأمين ، ابن هرون ، بنفسه طوال الليل على سهرة الرقص والطرب التي أحيتها حوريّات جميلات من المغنيات / الراقصات حتى الفجر ، على أنغام الفرق الموسيقيَّة ، بينما كان المشاهدون يختلطون بهم . والأمين ذاته هو الذي ابتنى ، لندمائه على دجلة ، زوارق فخمة تمثّل حيوانات : دلافين ، أسوداً ، أو نسوراً ، كان كلٌ منها قد كلَّف عدَّة ملايين من الدراهم .

هناك كثير من الأسئلة عن تلك السهرات العامرة في حياة خلفاء بغداد . يروى أنَّ ابراهيم قد أقام حفلة عشاء على شرف أخيه هرون ، فقُدِّم فيها طبق مؤلف فقط من ألسنة السمك ، ومميَّز بأناقةٍ وفخامة لا مثيل لها . يذكر الراوية عدد الحضور وكلفة المأدبة التي يُستحسن تناسيها ، حتى لا نذكر سوى ما كانت تمثله من خدمات مميّزة وتكاليف هائلة لاعداد تلك الوجبة الفريدة من نوعها . فالسهرة عامرة باللياقة والشعر ، بالموسيقى والعطور النادرة ، بالمجوهرات واللآلىء والحجارة الكريمة ، والأفضل الخروج من هذه الحفلة العجيبة لنرى كيف كان الناس يعيشون خارج البلاط .

المجتمع

لم يكن مثل هذا البذخ الفاحش ممكناً لو لم يكن السكان في الامبراطورية منكبّين على المناشط الزراعية والتجارية والصناعيَّة . فقد كان الازدهار مسيطراً على أودية دجلة والفرات والنيل، وكانت مزدهرة جداً في بلاد فارس والشام وكذلك المعامل والمشاغل في المدن الكبرى ، وأرصفة المرافىء .

فمن كل حدب وصوب ، كان الحرفيّون والتجار يتنافسون على ابتكار وابداع واصطناع المنتوجات النادرة التي كان يتطلبها بلاط الخلافة بأبهته وفخامته . فمنذ القصور الملكية ، فوق حافّات النهر ، كان هناك شوارع ضيّقة

ومتعرّجة ، جرى تخطيطها هكذا عمداً لتوقّي الشمس ، وزُيّنت جوانبها بدكاكين عميقة وكبيرة ، وتمتّد إلى الأحياء التي كانت تقطنها الطبقة الثريّة . أما في المدينة وفي ضواحيها فقد كانت تنتصب المنازلُ ، البسيطة والعادية في مظهرها الخارجي ، الذهبيّة والأثيرية من الداخل ، وتمتّد على مساحة عدّة كيلومترات . في الأرياف المجاورة ، كان الأغنى بين رعيّة الخليفة يملكون داراتٍ (فيلاّت) مدهشة ، مشيَّدة وسط جنائن أشبه ما تكون بالحدائق . إذْ لم تكن تلك الدارات سوى مجموعة أحواض سباحة وينابيع وجداول وشلاّلات مياه رقراقة ، وأزهار وأثمار وأشجار وارفة الظلال . وعلى غرار ما رواه فوكيه ، وكيل الملك الشمس ، فيما بعد ؛ يُروى أن الوزير البرمكي ، جعفر ، كان قد أطلق الموضة ، فابتنى لنفسه منزلاً بالغ الفخامة لدرجة أنه لفت الأنظار إليه واجتلب لنفسه الغيرة والحسد . ولكي يجرّد حسّاده من سلاحهم ، أهداه جعفر إلى الخليفة ، ثم حاول الإقامة فيه ، إلا أن قدره كان قد اكتمل في أروع تراجيديا مفجعة .

ربما لا يكون من النّافل هنا أن نُشير إلى أسباب تلك النقمة الفريدة من نوعها ، لأنها تبدو انعكاساً لآداب البلاط الخليفي وتقاليده . كان هرون يحبّ جعفراً حبّاً كبيراً ، وهناك ملاحظة صغيرة وُجدت في خزائنه تبينّ حبّه له أكثر من أية وثيقة أخرى : « أربعمئة ألف قطعة ذهبية ، ثمن كسوة شرف لجعفر ، ابن يحيى الوزير » . إنَّ نعمةً كهذه ، وسواها من النِّعم الكثيرة ، التي كانت قد جلبت لأصحابها الحسد والنقمة ، لم تكن لتدوم كثيراً . فقد جاء يومٌ لم يعد فيه جعفر يعجبُ الخليفة ، حين أطلق سراح متمرّد كان هرْون قد أمر بإعدامه . كان المحظي قد ضاع ، على الرغم من كون العبّاسة ، أخت الرشيد ، شديدة الولع بجعفر ؛ فقد انضافت إلى كل المطاعن التي كان الخليفة قد وجّهها إليه ، حقيقة أنّه كان فارسيّاً . فتذّرع الخليفة الشديد الاعتزاز والفخر بدمه العربي ، بتلك الذريعة رافضاً زواجه من أخته إلاّ إذا وافق الزوجان على عدم الاجتماع إلاّ في حضرته . المؤسف أنّه كان شرطاً يصعب الإلتزام به ؛ فراح جعفر والعبّاسة يجتمعان سراً . ولم يمضِ وقت طويل حتى رُزقا بولدين وُلدا ورُبيا وسط تكتّم شديد . غضب هرْون غضباً شديداً حين علم بالأمر ، فأمر بإعدام شقيقته وقطع رأس جعفر . وبعدما تأكد من إعدامهما ، طلب رؤية الولدين . فحدثهما

مطوَّلاً ، وداعبها وأمر بخنقها . أما والدُ جعفر ، الوزير يحيى ، الذي كان له أخ يشغل منصباً إدارياً كبيراً ، فقد انتهى بهما الأمر في السجن ، وصُودرت أملاكهما الكثيرة .

لقد بحث المؤرخّون عن أسباب أعمق لهذه النهاية المريرة لعهد البرامكة . فرأى إبنُ خلدون أنَّ « سببها الحقيقي » يكمن في « زعم الوزراء حيازة كل السلطة ، وفي استغلالهم لموارد الخزينة استغلالاً مفرطاً بحيث أن هرٰون نفسه كان يضطر في بعض الأحيان لطلب مبلغ صغير ، فلا يتمكّن من الحصول عليه » . ربما لم يكن الخليفة قادراً على أن يتحمّل إلى جانبه وجود سلطة كبيرة مثل سلطته ، ووجود بلاط آخر بالقرب من بلاطه . في الحقيقة ، أنَّ الوزراء إذْ فقدوا كل حشمة وتحفُّظ ، كانوا ينافسون البلاط ، فيذهبون إلى حد تقليد احتفالاته وموائده ، محيطين أنفسهم بشعراء ومهرّجين وفلاسفة ، لم يكنْ استمرارُ ذلك الوضع ممكناً .

وبالتالي لم تكن الحياةُ خاليةً ، دائماً ، من الهموم والمكائد ، ولا حتى من المآسي في بغداد ، غير أنَّ المجتمع الرَّاقي كان ينسى ذلك بسرعة ، نظراً لانغماسه في البذخ والمسرّات وفي الصّيد وسباق الخيل ولعبة المضرب (البولو) ورشق الرمح وإطلاق الأسهم من القوس ، ولعبة الكرة والدبوس ، أو في علب الليل على شاطىء دجلة أيضاً حيث كانت تُقدّم أطباقُ الدجاج الدسم المحشو بالجوز واللوز ؛ وهناك أيضاً كانت تقدْم ألوانُ المآكل والحلويات الشهية كاللوز واللبن ، والسكاكر اللذيذة ، والمشهيّات المعطّرة بماء البنفسج والورد أو الفريز البريّ ، وبماء الحياة المستخرج من التمر وحتى بالخمر والأريج النادر ، بعدما أجاز الإمامُ أبو حنيفة استعمالهما . وبنوعٍ خاص كان العيدُ يغصُّ بكل الألوان والأنواع ، مثل عيد ليلة ثلاثاء المرفع (عندَ الغربيّين) . في هذه المناسبة كان الرّجال يرتدون ملابس النساء ويتزّينون بزينتهم ، وتتزيّا النساءُ بأزياء الرجال ، ويمكنهم بأقنعتهم أن يرقصوا ويضحكوا بلا حشمة . غير أنَّ عيد ثلاثاء المرفع لم يكن وراء ظهور الحفلات التنكريّة . ففي الحقيقة كانت تلك الحفلاتُ جزءاً من برنامج معظم الاحتفالات والاجتماعات العامّة ، التي كانت تتضمّنُ أيضاً تمثيليّات إيمائيّة وحفلات الظلال الصينيّة ، التي كانت تُعكس بواسطة المصباح السحري .

وللذهاب إلى تلك الأمسيات كان الرجال والنساء « يتبرجون ويتزينون بالحلى والجواهر ، ويرتدون ملابس فخمة وملوّنة ، موشّاة بالحرير والذهب » ، ويتعطّرون بالعنبر البنيّ وبالبخور . لم تكن نساء المجتمع تشارك في مجالس الرجال واحتفالاتهم ، فكنّ يستبدلن بجوارٍ رقيقاتٍ يمكن الافتراض أن موهبتهن الغنائيّة ومفاتنهن كانت كلها موضع تقدير وحفاوة .

وفضلاً عن الأعياد والأمسيات الراقصة ، كانت النُخبة تنظّم اجتماعات شعريّة وندوات فلسفية تسودها اللياقات والعلوم . حتى أنّ الاجتماعات والمجالس كانت تُقام في الساحات العامة لإنشاد الشعر وتأويل القرآن . صحيح أن ذلك العصر كان مرحاً ، فلم يكن يأنف عن المسرّات والملذّات الرفيعة ، بل كان فضلاً عن ذلك يتباهى بالحياة الفكرية ؛ فكانت المدارس كثيرة ، وكانت تُشجّع الفنونُ بكل حكمة ، وكان الجو يتألّق بالشعر وبمواجد العقل الإلهي . كانت حياة بغداد تتميز بألقٍ خاص . ففي زمن هرون ، لم يكن عمر المدينة قد تجاوز الخمسين عاماً ، ومع ذلك كانت تُعتبر بمثابة مركز عالمي من الدرجة الأولى ، وكموقع فكري رفيع . وحيث أنَّ روعتها كانت تنمو مع نمو الامبراطوريّة ، فإنها سرعان ما تحولّت إلى منافسة لبيزنطة . تقول بعض الاحصاءات إنها كانت تعدّ في القرن الحادي عشر نحو مليون ونصف المليون من السكان الذكور ؛ ولم تدخل النساء أبداً في أية إحصائيّة ، إلا أنَّ هذا الرقم يسمح بالقول إن عدد سكان بغداد كان يقدّر بثلاثة ملايين نسمة . يُروى أنّه كان يوجد في ذلك العصر ، في وسط المدينة ، نحو ستين ألف حمّام ، وثلاثين ألف زورق (غوندول) وسبع وعشرين ألف جامع ومسجد . ربما لا ينبغي للمرء أن يندهش كثيراً من هذه الأرقام الأخيرة . إذ في بداية الإسلام كانت تُطلق تسمية « جامع » على كل مكان لإجتماع مشرّف ، أكان ذلك مدرسةً ، منتدىً ، أو حتى سوقاً . أما الحمّامات فلم تكن مصنوعة فقط للوضوء ، بل كانت أيضاً أماكن لهو وترَف .

كانت جميعُ الأديان ممثلةً في بغداد . فكان للمسيحيّين عدّة أديرة ، وكان للمّلة اليهوديّة محكمتها الخاصّة بها وسجنها . وكان الوزراء من النصارى والصابئة أو اليهود . في نقدٍ لاذع لـ« آخر الزمان » يؤكد إبن المعتّز أنَّ « الذمّيين » بدأوا سنة 980 يتجوّلون على ظهر الحصان . وكان ثمة كلام متداول منذ أمدٍ بعيد حول نادٍ

يضمُّ عشرة أعضاء كانت اجتماعاتهم تتميّز بتسامح متبادل ، وكانت تضمُّ سنيّاً وشيعيّاً وخارجيّاً ومانوياً وإباحياً وماديّاً ونصرانياً ويهودياً وصابئياً وزرداشتيّاً . والواقع أنَّ هذه الحاضرة الكوسموبوليتية ظلّت في آنٍ مثالاً نموذجياً للتسامح والرحمة والتدبير الحكيم .

العامّة

ماذا كانت تفعل في أثناء ذلك عامّةُ النّاس أو أغلبيّة السكان ؟ كما كان الحالُ عبر كل الأزمنة ، كانت العامّة تحمل على أكتافها ، وبكل بساطة ، كل أعباء وأوزار ذلك البناء العظيم . فعلى متن السفن وفوق الأرصفة ، في المشاغل والأسواق ، اللامبالية بذهاب وإياب الطفيليين والأنيقين ، كان العمّال والحرفيّون والشغيلة يقومون بعملهم الشّاق بلا شكوى أو نقاش . وكان لكل صنف مهني (Corporation) مشاغله أو معامله ، مخازنه أو مصانعه المجمّعة في حيٍّ واحد .

كان سوقُ الحدّادين يشعُّ ببوارق الشّرر ، وكان سوق النّحاسين يضجُّ بطرقات المطارق . كما كان صانعو السكاكين والأقفال والأسلحة ، يشحذون المعادن ويصقلونها ويهذّبونها ؛ وكان سوقُ الحلى والمجوهرات يسطع بالحجارة الكريمة المطعّمة والمركّبة في زخارف عربيّة مذهّبة أو مفضّضة ؛ أما في حوانيت الخيّاطين ، فكانت الأقمشة تُنتقى وتوزن ، وكان الإسكافيّون يصنعون البوابيج الأنيقة والأحذية الرائعة ؛ وكان الخزّافون المنحنيون فوق آلاتهم ، يحرّكون دولابهم برجلهم ، ويصنعون نماذج من مختلف المزهريّات والأواني ، بينما كان تجّار الأمشاط والمسابح ، الجالسون فوق المصطبة ، ينتظرون أعمالهم . وفي وسط الشارعِ ، كانت قوافل الجمال والحمير والبغال تملأ الجوّ برنين أجراسها ، التي كانت تُرافق في ضجيجها أصوات الأجراس التي كان يحملها الباعة وهم ينادون على بضائعهم بكل حماس . وكان المارّة يضيعون وسط هذا الجمهور الضّجاج ، ومع ذلك يمكنه شراء حاجياته من الطّلامي والفطاير والشراب والحلوى ، وكذلك من شرائح الباذنجان والكوسى التي كانت تملأ المحلّات والمطاعم . ثم بعدما يتزود النّاس بالخمرة من الأديرة المسيحية ، كانوا يمضون لاحتسائها في مطاعم صغيرة يديرها يهود . وكان المارّة يعبرون ، في طريقهم ، سوق الخشب

والأعشاب والفواكه والأزهار والخرضوات التي كنت روائحها تملأ الأجواء بروائح عطريّة شديدة . هكذا كان المشهد اليومي للحياة في بغداد .

كان البناءُ في بغداد يسيرُ بشكلٍ ممتاز : ففي كل حيّ ، كان النّجارون والعمّارون والبنّاؤون الفنيون والرسّامون يشكلّون بورصات عمل (نقابات) صغيرة حقيقيّة ، لا تتولّى فقط تحديد تعرفة العمل وأجر اليد العاملة يومياً ، بل تتولى أيضاً تشغيلها في الموسم الميت . ومن بين تلك الأصناف المهنية ، كان هناك صنف يتحرك بقوّة على امتداد الأرصفة . إنه صنف الحمّالين والفعّالة والبّحارة . وكانوا يلجأون إلى أعلان الإضراب لأسبابٍ سياسيّة وكذلك لأجل قضايا الأجور . وكان يحدث أحياناً في بغداد ، مثلما يحدث اليوم في أية مدينة معاصرة ، نقصٌ في الطحين والتمور أو الزيت ؛ وكانت الشرطة تتدخل على الفور ، فتهدّىء المضربين وتُعيد الأمن إلى ما كان عليه .

بوجهٍ عام ، كان عالم أولئك المتواضعين الصغير ، مرتاحاً من المشاغل الفلسفيّة ، إذْ كان يعمل دائماً بذكاء ومزاج سليم . ومن وقتٍ لآخر ، كان القطارُ اليومي للحياة في الشارع تقطعه مواكبُ عُرْس أو ختان ، وتوقفُه عمليّةٌ من عمليّات الشرطة ، ولكن بعد انجلاء الضوضاء ، كانت الحياةُ العادية تواصل مسيرها . فالمسلم العاميّ ، الغنيّ عن طلب الحاجات ، كان فخوراً بجامعه ، معتزاً بمدينته ، بخليفته ، وكان يشعر أن شيئاً من مجدهم كان ينساب نحوه على نحوٍ غامض .

الفصل الثالث عشر

اسلام المغرب

الأمير عبد الرحمن

سنة 755 نزل على شواطىء إسبانيا شخصٌ روائي ، غريب الملمح ، فارع الطّول ، رفيع ، ذو علامة فارقة ، أنفُه أقنى وشعره أحمر . إنه عبد الرحمن ، النّاجي الوحيد من كل الأمراء الأمويّين .

حين فـرّ عبد الرحمن ، في سن العشرين ، من الفرسان العبّاسيّين الجادّين في مطاردته ، كان قد رمى نفسه في الفرات ، وعبر النَّهرَ سباحةً ، وتنقّل من قبيلة إلى أخرى متنكّراً ، إذْ كان البحثُ عنه متواصلاً وفي كل مكان . كان قد قطع سوريّة وفلسطين ومصر والصحراء الليبيَّة وطرابلس الغرب وإفريقيا (تونس) وبلاد المغرب ، لا مال معه ولا صديق ولا راحلة ، هارباً من الجواسيس الذين كانوا يترصّدونه ، حتى في آخر الدُّنيا . وكان وهو يتخفّى قد جدَّد المسيرة الكبرى التي كان أجدادُه قد ساروها فاتحين ، قبل ذلك بأقل من قرن . ولما وصل إلى إسبانيا ، عرّف الفارسُ الشّريد بنفسه واعترفت به الجيوش الشاميَّة التي كانت قد جاءت من دمشق وظلّت على ولائها للأمويين ، وأعلنته أميراً على قرطبة . ، وعلى رأس هذه الجيوش هزم جيشاً كان مكلَّفاً بخلعه ، ووجّه رسالة إلى خليفة بغداد . كانت تلك الرسالة رأس العامل المكلّف بذبحه ، ملفوفاً براية العباسيّين السوداء ، محنّطاً بالكافور وبالملح . وحين تعرّف المنصور على الرأس وقال : « تبارك الله الذي جعل بحراً بيننا » .

إن هذه الرواية الشرقيَّة جداً ، والصادقة ، لا تقف عند هذا الحد . فهذا

الهارب ، الذي لا يملك شيئاً سوى دمه الأموي الملكي وشجاعته الخارقة ، قام بتأسيس سلالةٍ تعينَّ عليها أن تضاهي في الثروة والشّهرة سلالةَ خصومه الأقوياء . وتستمر الرواية . كان هذا البطل الخيالي رقيقاً ، حنوناً . ففي ذروة قوّته ، كان يتشوّق لمواطن طفولته ، لدرجة أنّه كان يتعامل بمحبة مع النخلة الوحيدة في الأندلس ، التي كان يهديها أشعاره . إلاّ أنَّ هذا الفارس الرقيق ، هذا الرّثّاء ، لم يكن ضعيفاً . فسرعان ما كوَّنَ لنفسه جيشاً من أربعين ألف بربري مدرَّب ومنضبط . ومنذ ذلك الحين ، صار أمنُ مملكته متوّفراً ، فكان عبد الرحمٰن كبيراً في السلم كما في الحرب .

كان يتعينّ على هذا الباني الكبير ، هذا العاهل المهتم بسعادة رعيّته ، أنْ يبني أولاً قناةً تجرُّ المياه العذبة إلى قرطبة وتوزّعها على البيوت والحدائق والعيون والأحواض والحمّامات ؛ ثم أقام حصوناً حول المدينة ، وابتنى خارج الأسوار بلاط الرصافة الملكي الذي كان يذكّره بقصرِ طفولته في بلاد الشام البعيدة . أخيراً ، أنشأ الجامع الكبير في قرطبة الذي تعينّ عليه أن يغدو محرابَ الإسلام في الغرب وأقام جسراً فوق نهر الغوطة الكبرى . وبعدما وسّع حواضر مملكته وزيّنها ، شرع أخيراً في جمع مختلف عناصر شعوب الإسلام المغربي ، من عرب وأمازيغ (بربر) وأندلسيين واسبانيّين ، إلخ . وهكذا كان في أساس الحركة التي تعينّ في مجرى القرون التالية أن ترفع إسبانيا المسلمة إلى مرتبة الحضارة الأولى . وعندما توفي عبد الرحمٰن سنة 788 ، كان الشعر والثقافة والفن والتكنيك الاسباني ـ المغربي (لأندلسي) قد بدأ يسطع في سماء العالم الغربي .

واصل عبد الرحمٰن الثاني هذه المسيرة السلمية المزدهرة ، على الرّغم من المعارك التي تعينّ عليه أن يخوضها ضد النورمانديين الغزاة وضد المسيحيين على الحدود . كان شديداً جداً على بعض المتمردين ، ويعتقد أنّه ربما كان على الرغم منه ، المصدر الأول للاضطرابات التي ظهرت طيلة عهود خلفائه . ففي البلدان الإسلاميّة ، إنْ شرقاً وإنْ غرباً ، تكون السيادة التي لا تفرض نفسها ، قد هيّأت سقوطها بنفسها . ففي وقتٍ مبكّر قوّضت ثوراتُ القبائل والاضطرابات الأهلية والصراعات الدينية أو العرقيّة وأعمال السلب والنهب ، وحطمّت تماسك المملكة ووحدتها التي وطّدها عبد الرحمٰن الأول بعملٍ دؤوب. لقد كانت الدولةُ

الجديدة تهتزّ من جذورها ، إذْ كانت طليطلة وإشبيلية تسعيان للحصول على استقلالهما .

خلافة قرطبة

مع حلول عهد عبد الرحمن الثالث سنة 912 ، كان البلد قد صار مفكّكاً . لكنَّ هذا الفتى البالغ من العمر 21 سنة ، ارتفع إلى مستوى الأحداث . فهو ذكيّ وحازم كسلفه الشهير ؛ أخضع المدن المتمردّة وعاود فتح الأمصار واحداً واحداً ، وأخضع الأرستقراطية العربية التي كانت تتهيّأ لتجديد بناء الإقطاع .

سياسيٌ دقيقٌ ومتنوّر ، عرف كيف يحيط نفسه برجال مختلفي المشارب ، فتمكّن من الحفاظ ، بلعبة تحالفاتٍ ذكيّة ، على التوازن بين الدول المتصارعة وحكَمَ بحيطةٍ ورعايةٍ واستمرارية جديرةٍ بعظماء الحكّام في التاريخ . بعدما ساد على دولته ، قام عبد الرحمن الثالث بشن هجوم على أعدائه . فرّد هجمات دون سانشي ، ملك الناڤار ، واستولى على عاصمته ودمّرها ، مما جعل المسيحيين يتوقّفون منذ ذلك الحين عن مهاجمته. في الواقع ، لم يتمّ التوصّل إلى أحراز تلك الانتصارات بلا مشقّة وعناء . فإلى جانب حرسه الشخصي البالغ عددهم ثلاثة آلاف رجل ونيّف ، كان عبد الرحمن قد شكّل جيشاً تعدادُه يفوق المئة ألف رجل ، جرى نخبهم من بين السجناء السلافيين الذين أسرهم الجرمانيّون وباعوهم . أما جنود حرسه ، المجنّدون منذ سن المراهقة ، فقد كان يجري تدريبهم وتعليمهم بسهولة وفقاً لأصول الانضباط العربي . وفيما بعد جرى تبني النظام نفسه في مصر مع المماليك ، وفي تركيا مع الانكشاريّين . وبفضل ذلك الجيش المرتزق ، المخلص والوفيّ في آنٍ ، استطاع الخليفةُ أن يقضي على الانقسامات وأعمال السلب والنهب ، وأنْ يحتوي محاولات استقلال الأرستقراطيّة العربيّة . ونظراً لقوّة سلطاته المُستعادة ، تمتّع عبد الرحمن الثالث بشهرةِ الرجل الرّاقي ، السخيّ واللبق . كما أنّه حين اطّلع سنة 929 على وضع قوّته الذاتية وأدرك مداها بالمقارنة مع انحلال سلطات بغداد في الوقت ذاته ، أعلن نفسه خليفةً ، أميراً للمؤمنين وحامياً للدين .

يبقى عبد الرحمن الثالث الشخصيّة الأموية الأبرز في إسبانيا . ويسجّل

عهدُه ، وهو الأطول في ذلك العصر ، بالمقارنة مع العهدين اللذين سيعقبانه ، ذروةَ الهيمنة الإسلاميّة في الغرب . فهذا الرجل الذي كان عاهلاً عظيماً ، خلّف عند وفاته سنة 961 ، وصيّةً تستحق التأمل ، نظراً لتقويمه المتواضع جداً للحياة الإنسانيّة .

« حكمتُ أكثر من خمسين عاماً في الانتصارات أو في السّلم . وقد استجابت لي الثّرواتُ والمكارم ، والسلطات والمسرّات ؛ ولم يظهر لي أن أيّة مسرّة بشريّة كانت خارج سعادتي ، وفي هذه الحالة ، عددتُ بدّقة أيام سعادتي الخالصة والصحيحة ، التي كانت مقدّرةً لي . فكان عددها أربعة عشر يوماً . فلا تغترّ أيها الإنسان بهذه الدُّنيا ! » .

من تلك الأعوام الخمسين الزاهرة والخالية من السعادة ، استخلص إبنهُ الحَكَمُ العبرة الحكيمة . فهو إذْ ورث عهداً سلمياً ، إنما استطاع تكريس نفسه لتجميل المدن . وابتناء الملاجىء للفقراء والمشافي والحمّامات والأسواق والكليّات والجوامع . وبرعايته صارت جامعة قرطبة هي الأشهر بين كل الجامعات . وعلى الدوام ، كان الشعراء والفنّانون والعلماء يتمتّعون بمساعداته السخيّة . لكنّه بينما كان يسهّل لهم نشر مؤلفاتهم ، كان يجمع لنفسه أكبر عددٍ من المؤلفات الأصليّة . ومثاله أنّ المكتبة الشخصيّة التي كان قد جمعها ، كانت تضمُّ أكثر من أربعمئة ألف مجلّد ؛ وكانت عناوينها وحدها تشكل فهارس تعدادها أربعة وأربعون كتاباً . في كلٍ منها عشرون صفحة على الأقل مخصصة للأعمال الشعريّة .

خلفهُ ، هشام ، كان عاجزاً عن الحكم . فتولّى ذلك قائدٌ ظلّ إسمه مشهوراً ، هو المنصور الذي أنشأ جيشاً مخلصاً له . إنه سياسي لبق ، استنفر دعم المفكّرين والفقهاء وعرف في الوقت نفسه كيف يعبّيء العامّة بكل مهارة . كان يذهب كل ربيع إلى الحرب ، مثلما يذهب الشعراءُ إلى الحقول ، فقضى على الدول المسيحية واحدةً واحدةً ، ودمّر سان ـ جاك ـ دي ـ كومبوستل تدميراً كاملاً ، ونقل أجراس الدير الشهير ، البرونزية ، على أكتاف الأسرى المسيحيين . وبالطريقة ذاتها ، جرى إرجاعها ، في وقتٍ لاحق ، إلى كومبوستل ، ولكن على أكتاف المسلمين هذه المرّة . توفي المنصور سنة 1002 ،

عند رجوعه من حملة عسكرية على قشتالة .

بعد المنصور ، لم يعد تاريخ اسبانيا المغربية سوى مغامرة سديمّية ، حائرة . فقد توحّدت مختلف الطبقات الإجتماعيّة ضد ورثة المنصور وأزاحوهم عن الحكم سنة 1009 . وفي سنة 1012 ، استولى البربر على قرطبة وخرّبوها . فانقلبت المدن الموالية إلى مدن انفصالية . وفي سنة 1023 طرد القرطبيّون البربرَ ، وقامت ديكتاتورية المُستضعفين ؛ ولكنَّ الطبقات العليا ما لبثت أن استرجعت السلطة سنة 1027 ، إثر إنقلاب ميزان القوى . لقد تفكّكت إسبانيا المسلمة وانقسمت إلى 23 مدينة ـ دُويلة ، كانت إشبيليا أهمَّها ، إذْ نالت قصب السّبق على قرطبة . فحكمها المعتضد بشدَّة طيلة 27 عاماً . ومن سخريات القدر أن إبنه المعتمد ، صار أعظم شاعر في إسبانيا المسلمة وظلّ ، طيلة جيلٍ بكامله ، على رأس حضارة تضاهي في سطوعها حضارة بغداد وقرطبة في عصر أوجها .

سرعان ما راحت بلاطات سرغوسة وڤالانسا وطليطلة تتنافس مع إشبيليا وتضاهيها في الفخامة ؛ ومن النّافل الكلام على الأبّهة عندما يتعلّق الأمر بحواضر كهذه ، هي مراكز ثقافة واسعة تعينّ عليها أنْ تؤثّر في البلاد المسيحية أعمقَ الأثر .

مما لا ريب فيه أنَّ الإدارة العامة في الأندلس ، كما كانت تسمّى إسبانيا المسلمة ، كانت من أكثر الإدارات تطوراً في ذلك العصر . ففي ظل شرطة منظّمة تماماً ، كانت قوانينها العقلانية والمدروسة تُطبّق بكل إنسانية من جانب قضاةٍ واعين . وكانت الضرائبُ معقولةً ومجزية ، وأدنى نسبياً من ضرائب البلدان الأوروبيّة ، نظراً لتبني سياسة اقتصادية موجهة بشكلٍ جيّد . كان دخل إمارة قرطبة وحدها أعلى من مداخيل كل البلاد المسيحيَّة . فكان ثلثه يُستخدم للإنفاق على الجيش ، وثلثه الثّاني على الإنفاق العام ، وثلثه الأخير كان يوضع في الاحتياط .

بوجهٍ عام ، شكل النظامَ الإسلاميّ تقدُّماً أكيداً ، بالمقارنة مع الأنظمة الڤيزيغوتيّة السابقة . حتى أن البعض قد ذهب إلى القول : « لم تُحكم الأندلسُ أبداً بمثل هذه الرقّة والعدالة والحكمة التي حكمها بها فاتحوها العرب » . صحيح

أن بعض الأمراء أظهروا شدّة نافلةً ، كالمعتضد في إشبيليا مثلاً ، ولكنْ كم نجد في المقابل من آثار الكرم والفروسيّة لدى ملوك قرطبة الأمويين ! .

الاقتصـــاد

مع الفتح الإسلاميّ ، تفكّكت مجالات الفيزيغوتيين الواسعة جداً ، وعاد ذلك بالخير العميم على الفلاّحين ، إلاّ أن المنظومة الاقطاعيّة التي قد بدأت تتفكّك في أوروبا ، كانت تتجه نحو العودة إلى الملكية الكبيرة لصالح القادة والزعماء العرب . بَيْدَ أن جماعاتٍ من المؤاكرين (المرابعين) كانت لا تزال تعمل بالحصة مع الملاّكين في جنوب شرق شبه جزيرة آيبريا المميزّة بمناخها وتربتها .

في ظل الرعاية الإسلاميّة ، سجّلت الزراعة في اسبانيا تقدُّماً ملحوظاً على باقي الغرب . فقد نقل العرب العادات الزراعية من آسيا ، وشقّوا قنوات الرَّي ، وادخلوا زراعة الكرمة والحنطة السوداء(*) (Sarrasin) والزيتون في الجنوب ، وزراعة أشجار النخيل في مجورقة ، وزراعة التوت والخوخ لتربية دودة القز ، وقصب السكر والأرز والهليون والسبانخ وكمّيات من الفواكه التي لم تكن معروفة هناك : الرمان ، البرتقال ، السفرجل ، الكريفون ، الدراق ، التين ، الليمون الحامض ، المشمش .

عندها بلغت ضواحي قرطبة وغرناطة و« سهول ڤالانسا وموريس الخصبة » مبلغاً كبيراً من الشهرة العالمية في المكان والزّمان . ولا ريب أن جنائن هذه المناطق المميّزة لا تزالُ اليوم ذات طابع عربي مغربي . إلاّ أنَّ ذلك النمو الرائع للزراعة هو أحد المكاسب المستديمة التي تدين بها إسبانيا للحضارة العربية . ففي مجال تربية الماشية ، تعينّ على تشابك أجناس الخيل العربية والمغربيّة (Barbes) أن ينتج أشهر مطايا الفرسان ، (Caballeros) الخيَّالة . زدْ على ذلك أنَّ صناعة المعادن كانت متطورة ، وأنّ أقراط قرطبة وأسياف الطليطلة كانت غنيّة عن التعريف .

(*) في النص الفرنسي ، استعمل ج . ريسلر غير مرّة هذه الصفة لنعت العرب ، فتحهم ، حضارتهم . وذلك سيراً منه على تقليد لاتيني قديم . إلاّ أننا لم نجارِهِ في مذهبه . فاستعملنا صفة العربي . وتركنا صفته له . (ملاحظة المعرب) .

وكانت موريس تصنع النحاس والحديد . وكانت مناجم الذهب والفضة في خوان والقاف ، كما كان يوجد فيهما القصدير والنحاس والحديد والرصاص والزئبق . وكان يجري استثمار الكبريت وكبريتات الفوسفات والألومينيوم (Alum) . كانت باجة ومالاقة مشهورتين باليواقيت . إن كلمة « Cordonnier » مشتقة من قرطبة حيث كانت صناعة الجلد مزدهرة بوجهٍ خاص . فكانت هذه المدينة تتباهى بوجود 13 ألف نول حياكة فيها ؛ وكانت سجاجيدُها وشاحاتُها وستائرها الحريرية مطلوبةً في العالم بأسره ، وكذلك الحال بالنسبة إلى الأقمشة الصوفيّة والحرير في مالاقة والمرية .

كانت حكومة الخلفاء ترعى خدمة بريديّة منتظمة . فكان هناك ألف مركب قادم من برشلونة وڤالانسا وقرطاجنة والمرية ومالاقة وقاديس ومرفأ إشبيليا النهري ، يؤمِّن المبادلات التجارية مع افريقيا وآسيا . وكانت الدنانير الذهبية والدراهم الفضيّة والنقود النحاسية ، المستقرّة نسبياً ، متداولةً في الممالك المسيحية الشماليّة ، التي لم تعرف سوى هذه العملة وعملة ملوك فرنسا ، طيلة أربعة قرون .

وكما هو الحال اليوم ، بلا ريب ، كان المنتج والمستهلك موضع استغلال في اسبانيا الإسلامية من طرف مالكي الأراضي والتجار . لكنَّ الأمراء كانوا يحرصون على التوازن الاجتماعي من خلال تخصيصهم ربع الرِّيْع العقاري لمساعدة الفقراء .

الـدِّين

كانت جميع الأديان حرَّةً في إقامة شعائرها . وكان اليهود الواصلون إلى هناك أحراراً في جني الثروات ، حتى أنَّ بعضهم تمكّن من بلوغ مراتب عالية . وقد انصهر المسيحيّون مع المسلمين فكانت الزيجات المشتركة بينهم مألوفة في أحيانٍ كثيرة . كما كانت العاداتُ تميل إلى التواحد أكثر فأكثر ؛ وفي المبنى الواحد ، كان المسيحيون والمسلمون يقيمون أعيادهم معاً . ومع اندفاع تلك الحرية إلى أقصى حدودها ، أخذ المسيحيون يتمتّعون بالحريم رغم تحريم الكنيسة . وكانت تلك الحضارة الساطعة قد جلبت إليها الأنظار ، فكان

الكنسيّون والعلمانيون يتوافدون من كل أوروبا المسيحية إلى قرطبة وطليطلة واشبيليا بكل حرية ، ليستمعوا إلى المحاضرات والمناظرات والندوات في الجامعات الإسلاميَّة .

وكان ما كان لا بد من حصوله . ففي مواجهة هذا الازدهار ، بدأ بعض المسيحيين يردّون بعنفٍ أحياناً ، متذمرين من الانجذاب الذي كان الكثيرون منهم يشعرون به تجاه أفكار الإسلام ونتاجه . وعلى الرغم من احترام وحرية العبادات والديانات ، لم تكن الكنيسة حرَّة وكانت ممتلكاتها مصادرة ، وكان الفتح قد دمَّر مبانيها . وكان بعض الأمراء قد ورثوا عن الملوك الفيزيغوتيين حق تعيين المطارنة وإقالتهم ، فبالغوا كثيراً في استعمال هذا الحق . وفي الوقت نفسه كان عدد من الفقهاء المسلمين يوجّهون انتقادات شديدة لعلم اللاهوت المسيحي . الأمر الذي أثار حفيظة المسيحيين ، فلم يتردّدوا في تعريض أنفسهم لمخاطر كبرى حينما استعملوا حقَّهم في الرَّد . وسرعان ما تسمَّمت الأجواء . ومع تفاقم رد الفعل الإسلامي ، تكوَّنت جماعة من « المتحمسّين » النصارى الذين ندّدوا علناً بالنبيّ ، وذهبوا إلى حدّ استثارة الاضطهاد ، على الرغم من التسامح الإسلامي . وكان هناك رهبانٌ وقساوسة ونساء متحمسين حتى التصوّف ، فسعوا وراء الشهادة وتقبّلوها بفرح . نفذّ 15 إعداماً سنة 850 -851 . لكنَّ الحركة سارت نحو الهدوء ، فلم يُحصَ سوى شهيدين في مجرى القرن التالي ، ولم يسجل أي استشهاد بعد العام 1000 .

ذاك أنَّ حماس المسلمين وإيمانهم كانا قد خفًّا مع الثروة والازدهار . ولم يلبث أنْ هبَّ على العالم العربي ريح الشك والريّب . فتكوّنت مذاهب هرطوقيّة تُندّد بكل المعتقدات والممارسات . كذلك ، عندما بدأت المصائبُ تنهالُ على الإسلام ، راح الفقهاء يعزون سببها إلى ترك الدين وعدم الطهارة . فحاول الحاكمون دعمهم بكل ما أوتوا من سلطان ؛ فتعاون الدين والكتاب ، السلطان والإيمان تعاوناً متبادلاً . ذلك لأنَّ المجادلات الفلسفيَّة لم تعد تنحصر في نطاق البلاط ومجالسه . وفي بعض الأحيان وجد الخلفاء أنفسهم ، مضطرين ، على الرغم من آرائهم التحرريّة ، للانضمام إلى رأي أكثرية رعيتهم ، ضد المفكّرين الذين كانوا يريدون الانعتاق من النفوذ الإسلامي وينظرون إلى تشدُّد المذهب

الاعتقادي بعين النَّقد وقلّة الاعتبار .

العمــارة

من المؤكد أن إسبانيا المسلمة كانت في القرن العاشر أغنى بلدان أوروبا ، وكان فيها عدد كبير من المدن والحواضر المكتّظة بالسكان . يُقال إن قرطبة في عهد المنصور كان فيها نصف مليون نسمة و200 ألف منزل و60 ألف قصر و600 جامع ومسجد ، و700 حمّام عام ، و70 مكتبة . ومنذ ذلك العصر ، كان الأوروبيّون يعجبون من كثرة شوارعها المبلّطة مع أرصفة عالية ، إذْ كان في مستطاع المرء أن يسير ليلاً مسافة عشرة كيلومترات تحت ضوء المصابيح . بعد ذلك بسبعمئة سنة ، لم يكن في شوارع لندن سوى مصباح عام واحد . وفي البلاط الملكي الذي بناه عبد الرحمن الأول ، قام الخلفاء البنّاؤون والناشطون بإضافة قصور رائعة أخرى : قصر الزهور ، قصر العشّاق ، قصر البهجة ، قصر التاج .

في وقت لاحق ، في النصف الأول من القرن العاشر ، ابتنى عبد الرحمن الثالث على بعد عدّة كيلومترات جنوب المدينة ، قصر الزهرة الذي عمل فيه خلال 25 عاماً أكثر من عشرة آلاف رجل وألف وخمسمئة حيوان . كان القصرُ مبنىً كبيراً يتسّع لستة آلاف امرأة . « كانت سقوف قاعة الاجتماعات وجدرانها من الرخام والذهب ، وكان فيها ثمانية أبواب مطعّمة بالآبنوس والعاج والحجارة الكريمة ، وحوض زئبقي تتراقص أشعةُ الشمس فوق سطحه المتماوج » . وكان في القصر 1200 عمود رخام . وعلى امتداد نصف قرن ، كان أرفع منزل ارستقراطيّ للنعمة والفخامة والأناقة ، ومركز الفكر والحركات الفكرية . في الطرف الثاني من المدينة ، وبعد ثلاثة أو أربعة عقود ، ابتنى المنصور قصر الزهرة حيث كان يستقبل الظرفاء والشعراء والندماء . سنة 1010 جرى في سياق الحركات السياسية المناهضة لخلفائه ، نهب وتدمير هذين القصرين وتحويلهما إلى انقاض ورماد على أيدي الأحزاب المتمردة . وفي قرطبة يقوم أيضاً الجامع الأزرق الشهير . وعلى التوالي وفي المكان ذاته كان الرومان قد أقاموا أولاً معبد جانوس ، ثم أقام المسيحيون كاتدرائية . وبعدما اشترى عبد الرحمن الأرض من المسيحيين أزال الكاتدرائية ، وبنى بدوره الجامع الأزرق . إلاّ أن حرب « الاسترداد » قامت سنة

1238 ، مرّة أخرى ، بتحويل الجامع إلى كاتدرائية ؛ وهكذا كان الحقُّ يتبدّل مع تبدل السلاح . إلاّ أن هناك شيئاً لم يتغيّر ، والمؤرّخ يسلّم به ضمنيّاً ؛ إنّه الموقع الفريد من نوعه . فهو الوحيد الذي كان يجتذب إلى مكانٍ واحد من الأرض الإسبانيّة أناساً من مشارب متباعدة جداً . فكانت الدياناتُ المتعاقبة تختاره كإطار لتجليّاتها ، وكانت تنضافُ إليه منجزاتها الخاصة ، المماثلة لمنمق (ديكور) عابر في معظم الأحيان ، لكنّ الفكرة كانت تظل مرتبطة بالمكان نفسه الذي يُعدّ هيكلاً روحيّاً عالمياً . فلم ينقطع فيه التواصل بين الإنسان والله ، وهذا ما يُحسب حسابه أكثر من كل الاحتفالات والطقوس الخاصّة . بصرف النظّر عن قوّة السلاح ، ينبغي البحث هنا عن التصوّر الفردي القائل إن كل كائن بشري يملك الحق والخير والجمال ، هذه المثل الثابتة والدائمة .

على صعيد منجزات البشر ، لا يزال القصر الأزرق لا نظير له من حيث أبعاده وتزيينه . فعلى امتداد قرنين ، أسهم كل خليفة في تجميله ، بغية جعل تعبيره الجمالي أكثر كمالاً ونقاءً . هناك مئذنة مربعة من الطراز السوري ترتفع فوق الأبراج والجدار المُسنن المحيط بالجامع ، وتتجاوز كل مباني المدينة . وهناك 19 باباً مرصّعاً بأقواس منقوشة ، تسمح بالدخول إلى باحة الوضوء ، حيث تتدفّق أربعة ينابيع من حجر رخامي يعجز سبعون ثوراً عن تحريكه . وفي الداخل ، هناك 1293 عموداً من الجص والرخام والمرمر والرخام السمّاقي ، تجعل المرء يشعر بعظمة المدى اللامتناهي .

في الماضي ، كان هناك 200 مصباح معلّق في السقف الخشبي المنقوش ، وهذه المصابيح جرى صهرها من برونز الأجراس المسيحية ؛ وهناك 7000 كأس زينية معطّرة ، معلّقة بأغصان المصابيح وتضيء ليلاً نهاراً . ولا تزال حتى اليوم تسطعُ الجدران الفسيفسائية المطعّمة ، ويسطع المحرابُ الموّشى بالذّهب والمكلّل بأعمدة صغيرة وأقواس رقيقة ، الذي « لا يزال جميلاً مثل أجمل الروائع الغوطيّة » . وأمام المنبر المصنوع من 37 ألف شبكة صغيرة من العاج والخشب الثمين ، يقف الزائر مذهولاً من عظمة العمل المُنجز وجلالته .

العلوم

لم يكن مجدُ تلك الحقبة كامناً في الثروة أو القوّة بقدر ما كان قائماً في أهميّة الحياة الفكريّة ؛ وكانت قرطبة قمّة تلك الحياة ، مع العلم أن أشبيليا وغرناطة وطليطلة قد أسهمت كلها في صنع تلك العظمة . وكان الخليفة الحكَم الثاني ، وهو علاّمة كبير جداً ، قد رعى بنفسه العلم في جميع أشكاله .

وفي عهده ، ارتقت جامعةُ قرطبة إلى أعلى الذُّرى ، متقدِّمةً على جامعات القاهرة وبغداد . كان يُدعى أساتذة مشرقيّون للتعليم فيها . وكان الحكَم قد أضاف 27 مدرسة مجانية إلى عدّة مدارس جرت التقاليد أنْ تقدّم العلم مقابل المال . وقد بلغ مستوى الثقافة درجةً جعلت عالماً هولندياً ، دوزي (Dozy) ، يذهب إلى القول إن الجميع تقريباً كانوا يجيدون الكتابة والقراءة في الأندلس ، في عصرٍ كانت فيه أوروبا المسيحية لا تملك إلاّ نوافل العلم ، الذي كان فوق ذلك وقفاً على أقلية من أرباب الكنيسة . كما أن هناك مدارس أخرى أُنشئت في قرطبة وطليطلة وإشبيلية ومرقة والموريا وفالانس وقاديس . وكانت المدارس العربية المغربية قد صارت مراكز حقيقية للعلماء والفقهاء والأطباء والمفكّرين والشعراء . هذا وكان الفقهاء والنحويّون يعدّون بالمئات ، كما كان المؤرّخون وكتّاب السيرة جوقةً كبيرة . يقول المُقرّي : « إننا نأنف عن ذكر الشعراء الذين اشتهروا في عهد هشام والمنصور ، لأن عددهم كان كبيراً مثل رمل المحيط » . وكما هي العادة دائماً ، كانت موضوعاتهم الحب والمعارك ؛ وبالتالي لا بد من القول إنهم كانوا يشكّلون منذ ذلك الحين استباقاً وإرهاصاً بالطريقة الأصيلة والمغرية التي سار عليها الطرّابون (Troubadours) والشّعراء الموسيقيّون في العصر الوسيط الغربي .

في ذلك العصر ، عصر التسامح الديني والتعصّب المذهبي في آنٍ ، كان العلم والفلسفة يُعتبران ضاريْن بالدين . ومع ذلك ازدهرا إزدهاراً كبيراً . ففي مدرسة قرطبة كان هناك هالة كبيرة تحيط بمصطبة الذي كان تلامذته يدرسون في وقتٍ واحد الفلسفة والرياضيّات وعلم الفلك والطب وعلم الصنعة (الخيمياء Alchimie) . وكان أبو القاسم ، الجرّاح الكبير ، طبيب عبد الرحمن الثالث ، قد شهر الجراحة وابتكر طرقاً جراحيّة جديدة امتدّ نجاحها في ما يتعدّى حدود

إسبانيا المسلمة بكثير . كان الناس يأتون من كل البلاد المسيحية لإجراء عمليّات جراحة في قرطبة . ولم يبقَ الطبُّ في المؤخّرة . إذْ أن أسرة بني زهر في إشبيليا أنجبت سلالةً مهمّة من الأطباء ، اشتهرت على مدى ثلاثة قرون ونيّف . والأشهر بينهم ، الذي يُعَدُّ رائداً ، كان استاذاً لابن رشد ، الذي كان بدوره وفي آنٍ واحد طبيباً مشهوراً وواحداً من أعظم وجوه الفلسفة . وفي مجال الفيزياء (علم الطبيعة) ، برز إسمٌ مشهور ، إسم عالم بصريات هو إبرهيم الزركلي من طليطلة ، الذي برهن لأول مرَّة على حركة الذروة الشمسية بالنسبة إلى النجوم .

إفريقيا المسلمة

في أثناء الفتح العربي ، كانت افريقيا مقسّمة إلى ثلاثة أقاليم : مصر ، إفريقيا والمغرب ، التي كانت تعترف بسلطات خليفة المشرق . لكنَّ تنظيم الخلافة ، الواسعة جداً وغير المتهاسكة ، وبُعدها المتزايد من جرّاء نقل الخلافة إلى بغداد ، وصعوبات الاتصالات والمواصلات قادت تلك الأقاليم إنْ لم نقل إلى القطع كلّياً مع الحكومة المركزيّة ، فعلى الأقل أدّت إلى عدم الارتباط بها إلاّ نظرياً . ونجم عن ذلك أنَّ ثلاث سلالات مستقلة ظهرت تقريباً في زمنٍ واحد ، في بداية القرن التاسع : السلالة الإدريسيّة في فاس ، الأغالبة في القيروان والطولونيّون في مصر . وهذه السلالات التي لم يكن لها مرتكز وطني ، قامت على القوّة وراحت تنحلُّ عندما أدّى الازدهار الكبير إلى إضعاف قدراتها العسكريّة .

غير أنَّ سلالة ظهرت سنة 909 في تونس ، ودامت قرنين : الفاطميّون ، المتحدّرون من فاطمة ابنة النبيّ . وفي ظلّهم هم والأغالبة ، عرفت إفريقيا الشمالية ازدهاراً مديداً كالذي شهدته قرطاجة وروما ؛ وانفتحت الطرقات نحو الصحراء ، وأُنشئت مرافىء البونة ووهران وكوتة وطنجة . وفي العام 969 ، استولى الخليفة الفاطمي ، المعزّ ، على مصر ، وأقام عاصمته في القاهرة ، ووسع نفوذه نحو الجزيرة العربية وبلاد الشام . تولى الوزير يعقوب إبن كلّس ، اليهودي الداخل في الإسلام ، تنظيم إدارة مصر وجعل من ملوكها أغنى ملوك عصرهم . ومما يؤسف له أنْ الخليفة الحاكم (996 - 1021) اضطهد اليهود والنّصارى وأمر بإزالة كنيسة التابوت الأقدس في القدس ، وهذا تصرُّف غير قويم كان سبباً من

أسباب الحملات الصليبيّة .

لقد ازدهرت مصر في العهد الفاطمي ، وكان فارسيٌ قد عاش فيها ما بين 1046 و1049 ، قام بوصف العاصمة ، ومنازلها البالغ عددها عشرين ألفاً ، ومحلّاتها الكثيرة ، وطرقاتها المفتوحة والمنوّرة ليلاً ، والرقابة الممارسة على التجار الذين كان يجب عليهم أنْ يبيعوا بسعرٍ ثابت ، والأمن الموطّد جداً لدرجة أنَّ الصّرافين والصاغة ما كانوا يضعون مزاليج وراء أبوابهم ، وقصر الخليفة الذي كان يأوي 30 ألف شخص ، منهم 12 ألف خادم. ومن فرط دهشته ، يختم الفارسيّ وصفه قائلاً : « لا يمكنني أنْ أحدّد مدى ثروتها ، لأنني لم أرَ في أي مكانٍ آخر ما يضارع ازدهارها وغناها » . ولقد بلغ ذلك الازدهار ذروته في منتصف القرن الحادي عشر ، ولمّا غرقت مصرُ الفاطميَّة في غناها وبذخها وعواقبهما الانحلالية ، تقوّضت وانهارت . فقد تفكك الجيش إلى أحزاب متنافسة ، بربرية وسودانية وتركيّة ، واستعادت إفريقيا والمغرب استقلالهما ، وضاعت فلسطين وسوريّة . سنة 1171 ، توفي آخر خليفة فاطمي ، العاضد ؛ ولم يترك خلفاًله . واعترف صلاح الدين ، الذي كان عاملاً على مصر ، بولاية الخليفة العبّاسي في بغداد .

الحضارة الإفريقية

في عواصم إفريقيا الشمالية الثلاث ، القاهرة والقيروان وفاس ، شجّعت السلالاتُ الحاكمة الآدابَ والعلومَ والفنون . واليوم فُقدت الأعمال الفنية والمخطوطات العائدة إلى ذلك العصر ، أو أنّها لا تزال تحت الأنقاض . الجوامع وحدَها ، المبنية على شكل حصون حقيقية ، لا تزال صامدة حتى اليوم . ففي القيروان ، ليس جامع سيدي عُقبة المبني سنة 670 ، سوى غابة أعمدة ، مصدر معظمها من أنقاض قرطاجة . وفي القيروان ، أول ما يُلاحظ جامع عمرو (642) بأعمدته الكورنثيَّة الجميلة والرومانية والبيزنطية ؛ وجامع طولون (878) وجامع الأزهر (970) الذي تمتاز أصالته بروعة أقواسه البيضويَّة ، وجامع الحاكم (990) الشهير بفخامة زخارفه العربية . في الماضي ، كانت كل هذه الجوامع مزدانة بالنقوش والفسيفساء الغنيّة جداً والخزفيّات الشفّافة . ولا يسعنا اليوم إلّا

الإعجاب الشديد بدقة صنع النقوش والسعي الفني الظاهر حتى في أصغر التفاصيل . كما يتميّز ذلك العصر الرفيع للحضارة العربية بالفن الدقيق الذي صُنعت به الأقمشة الفاطميّة التي كانت تحظى باعجاب خاص في أوروبا . فمن بين صناعاتٍ كثيرة ، هناك تفوّق في صناعة الخيم المخملية والساتانية والديماسية والحريرية وفي صناعة الحرامات المذهّبة . هذا ، وقد استلزمت خيمة الوزير اليازوري عمل مئة وخمسين حرفياً طيلة تسع سنوات ، لكي تخرج في حلّتها النهائية التي تفتن الألباب . وكانت رسومُها تصوّر كل أنواع الحيوان ، وكان ينقصها رسم الإنسان .

سنة 988 ، جرى في جامع الأزهر افتتاح الجامعة الأولى التي ستستقبل في وقتٍ لاحق طلّاب العالم الإسلامي بأسره . تولى الخلفاءُ والأعيانُ رعايتها على نفقتهم . وهي لا تزال قائمة في أيامنا وتضم عشرة آلاف طالب وثلاثمئة أستاذ يتولّون أمور السنّة الدينية والحفاظ على أركانها . كما أنشأ الحاكم « بيت الحكمة » في القاهرة حيث كان يُدرِّس الفقه الشيعي وعلم الفلك والطب ؛ وأسس في نهاية القرن العاشر مرصد علي بن يونس ، أكبر فلكي مسلم . فقد عاش علي بن يونس تقريباً في عصر علي بن الهيثم ، أشهر إسم في علم ذلك العصر وواضع كتاب في البصريّات شكّل ركيزةً للأعمال الأوروبية التي قام بها روجه باكون وكپلر .

أما النتيجة المفاجئة للفتح الإفريقي فقد كانت الزوال الكامل للمسيحية التي كانت قد سطعت خلال عدّة قرون سطوعاً شديداً مع ترتوليان والقديس كوبريان والقديس أوغسطين والقديس فولجنس(Fulgence) وروسبه (Ruspe) . فتحوّلت إلى أنقاض الكنائس الشهيرة في الاسكندرية وقرطاجة وهيپّون (Hippone) . ذلك لأن حياة البربر الرحل التي كانت تشبه كثيراً حياة العرب ، كانت تؤهّلهم للإسلام أكثر مما كانت تؤهّلهم للمسيحية . ومما أسهم في إضعاف المسيحية بعضُ أعمال التنكيل وأعفاء المسلمين الجدد من دفع الضريبة . إلّا أن الأقباط قاوموا في مصر وظلوا يقيمون شعائرهم في السِّر . ولئن كانت المسيحية قد تمكنّت من البقاء حتى أيامنا ، فإنها لا تزال محدودة جداً في شمال إفريقيا ، ويمكن القول إنها في طريق الزّوال .

الإسلام المتوسطي

كان معاوية ، مؤسس السلالة الأموية ، أول من أدرك ضرورة إنشاء أسطول في البحر المتوسط . وكانت النتيجة الأولى لذلك فتح قبرص ورودس . وجرى فتح كورسيكا سنة 809 ، وسردينيا سنة 810 ، وكريت سنة 829 وصقلية سنة 827 . وكما في عصر قرطاجة ، تجدَّد هنا الصراع والهجوم على المدن التي أنشأتها اليونان في صقلية ؛ وكان لا بد لخلفاء القيروان من شن هجمات متتالية ، فسقطت پالرمة سنة 831 ، ومسيِّنا سنة 843 ، وسرقوسة سنة 848 وتاورمين (Taormine) سنة 902 . ووقعت الجزيرة بكاملها تحت النفوذ الإسلامي وشهدت حضارة ساطعة .

في خلال ذلك ، جرى شن غارات على باري (Bari) سنة 841 . وعلى أوستيا 846 ، رافقتها غزوات ناجحة پلى أسوار روما البابوات . ردَّ هؤلاء بقوّة ؛ وتمّ سنة 849 طرد أسطول عربي . عندها استرجع البيزنطيون قواعد التدخل العربي في باري سنة 871 ، وفي تارنت (Tarente) سنة 880 . غير أنَّ غارات النهب استؤنفت في الريف الروماني ووادي آنيس (Anis وجبل كاسان (Cassin) . في مواجهة تلك التهديدات المتجدّدة ، استنفرت قوات ايطاليا ، وهُزم العربُ في غاريغليانو (Garigliano) سنة 916 .

ربما دارت هناك واحدةٌ من تلك المعارك الحاسمة ، طالما أن التاريخ يمتلىء بعددٍ محدود منها . فقد كانت روما والبندقية هدفين مميّزين . وكانت الغاراتُ الجريئة قادت العرب إلى أسوارهما . ومع تلك السهولة التي كانت ميسّرة لهم للتحرّك عبر العالم ، لم تكن المسافةُ كبيرةً بين البندقية وبيزنطة ؛ والحال فإن بيزنطة ، آخر حاضرة للمسيحيين ، كانت تغوي دائماً « المؤمنين » الباقين في آسيا . وكان من الممكن القضاء نهائياً على البلاد المسيحية لو كان الإسلام المغربي والإسلام المشرقي قد عقدا السَّلامَ بينهما في آيا صوفيا . وعندما دخلها الأتراك ، بعد ذلك التاريخ بستمئة سنة ، كانت المسيحيّة قادرة على سد الطريق في وجههم .

الباب الثالث

أثرها في الحضارة الغربية

الفصل الرابع عشر

الآداب والفنون

الحياة الثقافية في اسبانيا المسلمة

قدّمنا في فصلٍ سابق نظرةً عامة إلى الحياة الثقافية عبر بلدان الإسلام قاطبةً . وتستحق اسبانيا المسلمة مكانة مميّزة ، نظراً للإسهام الأدبي والفني الذي قدّمه الإسلامُ للحضارة الغربيّة .

كانت الحضارة العربية تعلن على جبين جامعاتها بأحرفٍ من ذهب : « للعالم أربعة أركان : علم الحكماء ، عدل العظماء ، صلاة الصالحين وقوّة الشجعان » .

ليس من قبيل المصادفة أن يحتلّ العلمُ هنا المكانة الأولى . فبالعلم ، عملياً ، استوطنت الحضارة الإسلامية في اسبانيا ، استيطاناً مديداً لدرجة أنّ ذكراها لمّا تزل في الذاكرة حتى اليوم .

لقد كان لقوّة العرب العسكرية نتائج صاعقة ، إلاّ أنّها كانت قصيرة الأمد ، نظراً لأنّ المغلوبين سرعان ما استعادوا قوّتهم ؛ وظلّ الدين الإسلامي بلا تأثير في فكر الغرب ، على الرّغم من سماته المميّزة الجذّابة ؛ كما أن الشريعة القرآنيّة لم تترك أصداءً في الحياة الاجتماعية للعصر الوسيط الأوروبي . في

المقابل ، تعين على العلم والتقنيّة الإسلاميين أن يتغلغلا في أعماق الثقافة الغربية .

وإننا إذْ نتناول هذا الفصل المهمّ ، إنما يجدر بنا الرجوع إلى الأدب لنتابع تطوّره وانتشاره في إسبانيا الإسلاميّة .

كان حبُّ الشعر شديداً في الأندلس ، فكان السلاطين يرعون الشعر بنفسهم ، وكان الجميع يتذوّقون ويحبّون رنين الكلمات . لقد أوقدت قرطبة شعلة الشعر ، فسطعت تلك الشعلة بشدّة في إشبيلية ، وصمد في غرناطة لأمدٍ طويل . فمن خلال الأغاني وقصائد الحب ، تفصح عن نفسها نجويّةٌ رومانسية (Romantisme) كانت تتجاوب مع مشاعر الفروسيّة الوسيطة ؛ كما أظهر الشِّعر الغنائي العربي أنّه عاملٌ قويّ من عوامل استيعاب المسيحيين الاسبانيين ، لدرجة أنّه ظل يتردّد بلا انقطاع في الشعر الشعبي القشتالي وفي الأناشيد المسيحيّة .

لئن كان الحب العذري والوجداني موضوعاً أدبياً محدَّداً في الشعر العربي منذ القرن الثامن ، فإن من المهم أن نلاحظ أنّ هذا الموضوع قد شاع في جنوب فرنسا ، في نهاية القرن الحادي عشر ، شيوعاً واسعاً منقطع النظير من حيث غناه . ومثال ذلك أنّ الطرّابين قلّدوا بوجهٍ خاص الزّجالين . والواقع أنّ الهيام بالمرأة التي كان الفرسان يحيّونها عندما كانوا يذهبون للقتال ، ويرتدون ألوانها ، لم تكن سوى ترجيع لصورة المرأة في الشعر الاسباني ـ الإسلامي .

إن أغنية رولان (Roland) التي ظهرت سنة 1080 ، والتي تشكّل أثراً من آثار الأدب الغربي القديم ، إنما تدين بوجودها للاحتكاكات الحربية التي تمّت بالقرب من جبال البيرينه وفيما يتعدّاها .

كما أنّ بوكاس (Boccace) وشوسي (chaucer) وعدداً من القصّاصين الألمان وقعوا تحت تأثير الأدب العربي من خلال اسبانيا الإسلامية . فربما تكون هي التي أوحت أجمل قصائد تنيسّون وبراونينغ ؛ وتدين « الكوميديا الإلهية » لدانتي ، بالكثير إلى الفيلسوف / الصوفي إبن عربي من القرن الثالث عشر . زدْ على ذلك أن هذه القصيدة الخالدة مفعمة بالأوصاف العربية في المقاطع التي تروي

الإسراء والعروج إلى ممالك السماء والجحيم العجيبة .

أما الرواية التشرديّة الاسبانية التي مارست تأثيرها الذي يمكننا الحكم عليه من خلال روايات لو ساج (Le SAGE) وكتاباته المسجّعة ، فإنها تشبه إلى حدٍ بعيد المقامات المكتوبة بنثرٍ عربي مسجّع ، والهادفة إلى تعميم العبر الأخلاقية من خلال مغامرات بطلٍ ما . وبتأثير من الشكل الشرقي ، تمكّن الخيال الأوروبي من الانعتاق من التقاليد الضيِّقة والمتحجّرة التي كانت تكبّله بسلاسلها ؛ وهذه بوجه عام مساهمة مهمّة . ومغامرة دون كيشوت من أصل عربي . فقد كان سرفانتيس سجيناً في مدينة الجزائر ، وكان في بعض الأحيان يقول إن كتابه قد وُضع أولاً باللغة العربية . كما أنّ « روبنسون كروزو » لدانيال ديفو جرى استلهامه من رواية ابن طفيل الفلسفية « حي بن يقظان » .

وأما الكاتب الكبير ، علي بن حزم (994 -1064) الذي يُنسب إليه وضعُ أربعمئة كتاب في مختلف العلوم ، فقد كان مؤرّخاً ذا علم عميق ، ويعد كتابه حول الأديان والمذاهب أول بحثٍ بين البحوث الدينية المقارنة ويكشف عن تناقضات في الحكايات التوراتية ، لم تظهر في أوروبا إلّا بعد خمسمئة سنة . وليس من النّافل التكرار هنا لما كان قد كتبه عن المسيحيّين : « . . . يمكنهم التباهي بأمراء حكماء وبفلاسفة مشاهير . إلّا أنهم يؤمنون أن الواحد ثلاثة [أقانيم] ، وأن الثلاثة واحد ، وأن أول الثلاثة هو الأب ، وثانيها هو الابن وثالثها هو الروّح ؛ وأنّ الأب هو الروح وليس هو الروح ؛ وأن الإنسان هو الله وليس هو الله ؛ وأنّ المسيح وُجد منذ الأزل ، وأنه مع ذلك مخلوق » .

لا بد من تنويه خاص بابن خلدون ، المتوفى سنة 1406 ، الذي يمكن اعتباره أعظم مؤرخ في الإسلام وواحداً من أعظم مؤرخي كل العصور . فللمرة الأولى ، عرضَ إبن خلدون في مقدّمته لدراسة التاريخ ، نظرية الظاهرة التاريخية التي تأخذ في عين الاعتبار المقوّمات الطبيعية للجغرافيا والمناخ ، وكذلك المقوّمات الأخلاقيّة والروحيّة . وكان أول من بحث ووضع القوانين التي تحكم تطور الشعوب ، وعظمتها وسقوطها ، وقدّم دلالة حقيقية للتاريخ ؛ ومما لا ريب فيه أن البشرية لم تعرف ، قبله ، تصوّراً عميقاً كتصوّره . ولقد سلّط المستشرقون

الأوروبيّون في القرن التاسع عشر ، الضوء على نظرياته الأصيلة الخاصة بنشوء المجتمعات وتطورها .

الفنُّ الإسلامي

في بداية الهجرة ، لم يكن العرب يمارسون أي نشاط فكري أو فنّي . هذا الكلام قيل مراراً وتكراراً ، ولكنَّ أحداً لم يتحقَّقْ بشكلٍ كافٍ من مدى صعوبة تصوُّر البشر المكرهين على حياةٍ بدائية / قاسية وخطرة ، لما كان يمكن أن يكون عليه الفن .

لدى وصوله إلى المدينة ، كان محمَّد قد رسم على الأرض مربعاً طوله مئة باع ، ثم ختمه بجدار صغير مصنوع من مداميك طينيّة ، وكان قد بنى فوق إحدى الجهات بعض الأكواخ الصغيرة التي غطّاها بسطحٍ من سعف النخيل المتشابكة . في زواية من صحن الدار ، وكان النبي الجالس على حصيرة يستقبل تلاميذه وأتباعه في وقت الصلاة .

ذلك كان أول مسجد .

فيا للتناقض بين جذوع النخيل الثلاثة أو الأربعة التي كانت تحمل السقف الطيني المتواضع في المدينة ، وآلاف الأعمدة الرخامية الموسومة بسمة الحضارات القديمة ، التي ستدعم بعد مئة سنة القبب الأثيرية والذهبية للمساجد والجوامع الإسلاميَّة !

ويا لصعوبة الطريق التي يجب قطعها لكي يتعلّم المسلمون من تلك الحضارات أفضل ما فيها ، وينشروه عبر العالم مع كلام الله في آنٍ واحد !

فعندما انطلق الخليفة عُمَر سنة 16 هجرية سائراً إلى القدس للاحتفال باستسلامها ، كان كل ما يملكه من حطام الدنيا قصعة خشبية ومطرة ماءٍ صافٍ ، وقفّة تمر ، وقميصاً ومعطفاً عتيقاً كان يرّقعه بنفسه ، وقد ثارت ثائرته من فخامة الملابس التي كان يرتديها القادة القادمون لملاقاته ، فما كان منه إلاّ أن قذف حفنةً من الحصى في وجوههم .

ومع ذلك ، لفتح العالم ، كان لا بد من الارتفاع إلى مستواه أولاً .

كان قرنٌ كافياً للحضارة العربيّة لكي تسترجع الزّمن الضائع ، فلا ريب أنَّ أولئك البدو ، الرحّل ، المعتادين على الحياة القاسية ، كانوا يجهلون الفن والثقافة العقليَّة بقدر ما كانوا يجهلون أناقة الملابس ، لكنهم كانوا يملكون درجة عالية جداً وخارقة من الغرائز المعرفية والقدرات الاستيعابيَّة . وكانت الأمور تجري كما لو أن مواهب نائمة وذكريات غائبة كانت تستيقظ فيهم . فهم في الواقع ورثة أقوام مجاورين ، اغتنوا بحضارات الفرس والهنود والصينيين واليونان والرومان ومنجزاتهم ، فلم يكن تطورهم الفكري ينتظر سوى الظروف المناسبة لظهوره .

صحيح أنّ التوثيق الفني الذي جرى جمعه في سياق الفتح كان كبيراً جداً ، ولكنّه لا يعادل أبداً الاحتكاك المباشر باليد العاملة الفنّية الأجنبيّة ، المتمكّنة تماماً من مهارتها المهنيَّة والتقنيات الموروثة عن الماضي ، فضلاً عن عبقريّتها الخاصّة . وما كان يمكن للنتيجة إلاّ أن تكون تقليداً أعمى للتصوّرات الفنيّة المتداولة بين شعوب مغلوبة . وفي أقل من قرن ، أبدع العرب في المقابل فناً طريفاً ودقيقاً ، تجسّد في الحجر الذي ترجم الاتجاهات الجماليَّة الصادرة عن حالتهم النفسيَّة الجديدة . لقد كان فنُّ العرب توليفاً بين كلّ ما كان معروضاً أمام ناظرهم وما كان يثير إعجابهم وذوقهم ويتماشى مع معتقدهم .

يمكنُ للمرء أنْ يرى في القاهرة جامعاً يعود تاريخه إلى العام 878 ، هو جامع إبن طولون ، الأقدم بعد جامع عمرو الذي شُيّد سنة 642 ، ولقد احتفظ بأقواسه البيضوية كما كانت في بنائه القديم . ولا تقوم هذه الأقواس على أعمدة كما هو الحال في معظم الجوامع ، بل ترتكز على قواعد ضخمة . ولا ريب أنَّ هذين العنصرين المميّزين للأسلوب الغوطي تمكّنا من إلهام أولئك الذين شيّدوا كاتدرائيّات العصر الوسيط ، دون التمكّن مع ذلك من إعادة رسم المسار المقطوع ؟ ربما تكون هذه النماذج قد وصلت إلى أوروبا من طريق صقلية والنورمانديّين ؟ وربما أيضاً جاءت قوائمُ النوافذ الغوطيَّة مع فصوص برج جيرالدا في اشبيلية ؟ إن العقد المعرَّق ظهر في الإسلام قبل أن ينتقل إلى أوروبا . أما جامع الأزهر الذي شُيّد بعد جامع إبن طولون بمئة سنة ، ولكن قبل الكاتدرائيات الغوطيَّة بمئتي سنة ، فقد كان يتميز هو أيضاً بأقواس بيضوية . أخيراً يبدو أنَّ

جامع إبن طولون قد ألهم أساتذة الفن المعماري الذين صمّموا كاتدرائية شارتر (Chartres ، بنوافذها ذات الزجاج الملوّن ، وتشبيكاتها الحجريّة على أشكال ورود أو نجوم .

هناك في طليطلة جامع قديم تحول إلى كنيسة « يسوع النُّور » يضارع رغم أبعاده الصغيرة ، وينافس بجماله جامع قرطبة الكبير . ولا يزال في إمكان المرء أن يتابع فوق أحد الأهداب الجدارية مسار ابتكارات الفن المُدجّن الذي أدى إلى النموذج المحرابي المنتشر في كل قشتالة . ويمكن أن نلاحظ في مجرى بحثنا عن أثر الفن الإسلامي في الغرب ، أنَّ أبراج الأجراسِ وأبراج الكنائس غالباً ما تمثّل التصوّر الأولي للمنارة أو المئذنة الشرقية .

كذلك لا بد من التذكير بأن القصور والجوامع في المشرق جرى تصميمها على شكل حصون وقلاع وأنَّ الصليبيّين قد ورثوا بعض مفاهيم العمارة العسكريّة التي كانوا يجهلونها . ومما لا ريب فيه أن الغرب يدين للعرب بالجدار ذي شرفات الرَّمي ، مع أسواره العالية جداً والمتوّجة بأبراج صغيرة ، كانت تجعل المدافع عنها خارج مرمى النّبال والسهام . تشكّل هذه الطريقة مبدأ جرى تطبيقه منهجياً في بناء القلاع الحصينة التي لا تزال قائمة في سورية فوق الطريق التي سارت عليها جيوش البلدان المسيحية . لقد بنى فيليب لو هاردي حصون ايغ - مورت على غرار تحصينات دمياط وقلاعها .

بالاضافة إلى الفن المعماريّ ، يُعزى فن الخزف في إيطاليا وفرنسا إلى وصول الخزّافين المسلمين في القرن الثالث عشر ، وإلى مبادراتهم وابتكاراتهم ، كما يُعزى إلى رحلات الخزّافين الأوروبيّين في اسبانيا الإسلاميّة . ومن خلال الاحتكاك بالحرفيّين المسلمين تعلّمت البندقية صناعة الزجاج ، وصناعة المعادن الدقيقة ، كما تعلّم المجلّدون الإيطاليّون وصانعو الأسلحة الاسبانيون فنّهم منهم . زدْ على ذلك أن الحائكين من كل أطراف أوروبا كانوا يبحثون في بلاد الإسلام عن نماذجهم ورسومهم .

الفصل الخامس عشر

العلوم الدقيقة

لئن كان العربُ يفتقدون إلى الفنّ ، فإنهم كانوا لا يملكون معارف علميّة أيضاً . إلّا أنّ رغبتهم المعرفيّة لم تكن أدنى من شهيتّهم للغنى والثراء ، فحافظوا على المدارس السورية والفارسيّة التي كانت تدرّس العلم والفلسفة اليونانيّين منذ عهد الإسكندر ، وبما أن المسيحيين السوريّين كانوا يعرفون اللغة اليونانية معرفة عميقة ، وكان يهود سوريّة يتكلّمون العربية ، فإن عدداً من الكتب جرى نقله ، على هذا النحو ، من اليونانية إلى السريانية والعربيّة ، في البداية ، كان الإرثُ يونانياً في مجمله ، إلّا أنّ التأثيرات الهنديّة سرعان ما جرى الإحساسُ بها من خلال بلاد فارس حيث كانت المخطوطات السنسكريتيّة تُترجم إلى الفارسيّة . ولقد شجّع الخلفاء تلك الافتراضات ؛ وعليه فإن كل شيء كان ينتقل من السريانية واليونانية والفارسية والسنسكريتية إلى اللغة العربية ، القادرة بشكلٍ مدهش على تقبّل كل شيء واستيعابه .

الترجمـــات

كان امبراطور بيزنطة قد أعرب عن دهشته من رؤية حق شراء المخطوطات اليونانية ماثلاً في عداد الشروط التي يفرضها بربريّ منتصر. فهذا المنتصر الذي كان يتوقُ إلى العلم ، كان قائداً عربياً ، وهكذا وبأشكالٍ أخرى حصل الخلفاء على الكتب اليونانيّة التي تتناول العلم والرياضيّات والطب ، ولم يكتفوا بالكتب اليونانية ؛ ففي سنة 773 ، أمر المنصورُ بنقل رسائل فلكية هندية تعود إلى سنة 425 ق . م .

وفي سنة 830 ، بدأ العرب بترجمة هائلة للكتب اليونانية ، لذا يجب حفظ هذا التاريخ والتوّقف عنده . فحتى ذلك الحين ، كانت الترجماتُ تجري مصادفةً ، وفقاً لمبادرات فرديَّة ، ثم جمع المأمون المخطوطات المطروحة للترجمة ، وألحق جهاز مترجمين بـ« دار الحكمة » ووضعه تحت إشراف حُنين بن إسحق ، الطبيب المسيحي والعالم الكبير في آنٍ . وقد نقل حنين بن إسحق نحو مئة رسالة لغاليان ومدرسته إلى اللغة السريانية ، و39 مخطوطة أخرى إلى اللغة العربيَّة . في عداد هذه الأخيرة ، مخطوطات لأبقراط وديسقوريدس وأفلاطون ـ المقولات ، الطبيعة ، والأخلاق لأرسطو . تلك كانت انطلاقة الاكتشافات العقلية والفكرية .

بفضل الترجمات أمكن الحفاظ على مخطوطات ضائعة ؛ وفي هذه الحالة النَّقلُ يساوي الإبداع . وهذا ما ينطبق ، مثلاً ، على كتب « علم التشريح » السبعة لجاليان (Galian) ، وعلى كتابي « المخروطيّات » لأبولينيوس (Apollonius) ؛ وكتاب « الميكانيك » لهيرون (Héron) ؛ وكتاب « الغازيّات » لفيلون (Phélon) . ولقد شاءت المصادفة أنْ تكون العلوم اليونانية لا تزال حيَّةً في سورية عند وصول العرب . كما كان من المفيد للغرب ما قام به المترجمون من إيضاح النقاط الغامضة في النصوص اليونانيّة . فالمترجمون الّذين كانوا علماء متبحّرين ومطّلعين على نصوص كثيرة ، أضفوا على الكتاب المترجم علمهم الشخصي ومعرفتهم الشاملة ، وقد كان نجاحهم كبيراً لدرجة أن المنصور عرّض الخزينة العامة للخطر من جرّاء ما أنفق من ذهبٍ على عددٍ كبير من كتب أولئك العلماء . لكنَّ العمل سار بشكلٍ جيّد ، منذ منتصف القرن التاسع ، حين صار في إمكان العلماء العرب أنْ يقرأوا بلغتهم الخاصة روائع الفلاسفة الأغريق من المدرسة الأفلاطونية الجديدة ، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى الكتب العلمية الهندية والفارسية والسريانية .

الخيمياء
(Alchimie)

شغف العربُ أول الأمر بالعجائب والغرائب ، وقد يعود ذلك إلى الظروف

أو إلى عقلهم الذي كان لا يزالُ فطرياً . فقد أمر خالد بن يزيد بنقل الكتب الخيميائية القديمة إلى العربيّة . تلكم هي الترجمات الأولى ، وقد مضى عليها الآن ألف ومئتا سنة . وكان خالد قد أنشأ مدرسةً في مصر ، في أرض الخيمياء المميّزة ، لكنّها (أي الكيمياء السريّة) ظلّت علماً ، رغم هرمسيّتها . وانتشرت بسرعة في الشرق كلّه ، وقد تبحّر فيها الخيميائيّون ، وكان كثيرون منهم يعرفون « ثلاثمئة طريقة من طرق حيل الصنعة » على حد قول اللطيف . ولكنْ كان بينهم علماء حقيقيّون . فشهدت مدرسة إبن يزيد ذروة ازدهارها مع إبن جبير ، المولود في القرن الثامن ، والذي ظلّ حتى أيامنا أرفع معبّر عن الخيمياء .

يقدّم برتلو (Berthelot) في كتابه تاريخ الكيمياء في العصر الوسيط ترجمةً فرنسيةً لإحدى رسائل إبن جبير ، مبيّناً أنّ الحجر الفلسفي والإكسير كانا منذ أمدٍ بعيد الهدف الرئيس لأبحاث الخيميائيّين ، وأنّهم قاموا باكتشافات حقيقية وعملية (من الواضح أنّه يتعينّ علينا هنا الخلط بين الكيمياء والخيمياء) . وكانت طريقتهم الأكثر علميّة بين كل طرائق العصر ، تقوم على مشاهداتٍ ومعاينات دقيقة ، مُكرَّرة ومُراقبة ، إلاّ أن ما يُستحسن لحظه هو كون الخيميائيّين سيحاولون تطبيق ما لم يقم أحدٌ قبلهم بتطبيقه ، فولّدوا اصطناعياً الظاهرة التي ينبغي رصدها : أي الاختبار. اخترعوا الأنبيق ، قاموا بتحليل عددٍ من المواد الجوهريّة وتوصلوا إلى تمييز القلويّات والأحماض وتحديدها ، وتحديد خصائصها ، وحضّروا بضع مئات من العقاقير . يُشار في كتاب عربي قديم ، غير مُترجم ، إلى طريقة صنع الثلج ؛ ولم تكتشف أوروبا سر هذه الصنعة إلاّ في القرن السادس عشر .

إن إسم إبن جبير الشهير هو بالنسبة للكيمياء كإسم أبقراط بالنسبة إلى الطب . غالباً ما يُذكر من مؤلفاته الكثيرة : كتابُ الرحمة ، كتاب الوصيّة ، وخلاصة كمال القاضي ، الذي نُقل إلى الفرنسيّة . لقد وصف الحامض النيتريكي والماء الملكي والبوتاس وملح الأمونياك ، ونيترات الفضّة والسليماني الأكّال ، وأخيراً وصف العمليّات الكيميائية الأساسيّة : التقطير ، التصعيد ، التبلور . وكان قد توصّل إلى الحامض الكبريتي من طريق تقطير كبريت الحديد ، وتوصّل إلى الكحول من طريق تقطير مواد سكريّة مخمّرة . وبوجهٍ عام ، قلب إبن جبير نظريّات أرسطو حول تكوين المعادن ، بعقليّة ظلّت بلا ابتكاراتٍ مهمّة حتى بداية

الكيمياء الحديثة ، أي حتى القرن الثامن عشر . هناك عدّة كتب مجهولة من القرن العاشر ، نُسبت إلى إبن جبير ونُقلت إلى اللاتينية ، لعبت دوراً كبيراً في تطوير الكيمياء في أوروبا ، ولكنْ بعدما صنعها المسلمون من كل مشربٍ ومنهل .

الرياضيّــات

ربما جرى نقل الأرقام المعروفة بالأرقام « العربية » من الهند إلى الإسلام ، من خلال الرسائل الفلكيّة الهندية التي أمر المنصور بترجمتها ، فقد كان الخوارزمي ، وهو من أكبر علماء الرياضيّات في العصر الوسيط ، يستعمل أرقام الهنود في جداوله الفلكيّة ، وفي عام 825 ، نشر هذا العالم رسالة مشهورة في صيغتها اللاتينية « Algoritmi de numero Indorum » . وهكذا كانت كلمة الخوارزمي (اللوغاريتم) (Logarithme) تُستخدم للدلالة على كل نظام قائم على الترقيم العُشري .

سنة 976 ، كان محمّد بن أحمد يُشير في كتابه « مفاتيح العلوم » باستعمال دائرة صغيرة لـ« حفظ المرتبة » إذا لم يظهر أيّ عددٍ في مرتبة العشرات . هذه الدائرة التي صدر عنها الصفر ، كانت تمثل التأويل اللاتيني Zéro لكلمة « صفر » العربية . والحال ، فإنّ اليونانيين رغم حكمتهم والرومانيين رغم تقنيتهم ، لم يتمكّنوا من اكتشاف نظام ترقيمي . فقد كان الأقدمون ما زالوا يحسبون على أصابعهم ، كما أن ممارسة الحساب ظلّت صعبةً في الغرب حتى استعمال الصفر ، بعد مرور مئتين وخمسين سنة على اكتشافه من جانب محمد بن أحمد .

واليوم لم يتمّ التوصّل إلى تفسير البطء الشديد الذي عرفه الأوروبيّون خلال استعمال الأرقام العربيّة ، إلاّ بالجهل العام . في الواقع ، كان أول من استعملها سنة 1202 ، إيطاليّ عائد من إفريقيا الشماليّة . غير أن الابتكار كان عبقرياً ولقد أمكن القول بحق إن الصّفر يُعدّ من أعظم اكتشافات الجنس البشري .

إن كلمة Algèbre عربيّة (الجبر) ومعناها القدرة على إضافة عبارة واحدة إلى طرفي معادلة . ولا يزال محمد بن موسى ، خوارزميّ الأرقام الهندية ، أعظم عالم رياضيّ في مجال الجبر ، فهو الذي قدّم في كتابه « حساب التقابل والتعادل » حلولاً تحليلية وهندسية لمعادلات من الدرجة الثانية . قام جيرار دي كريمون

(Gérard de Crémon) بترجمة هذا الكتاب في القرن الثاني عشر ، وجرى استعماله كنص أساسي في الجامعات الأوروبيّة حتى القرن السادس عشر . أما جبرُ عمر الخيّام المترجم إلى الفرنسية حتى العام 1857 ، فقد كان يسجّل تقدّماً ملحوظاً على كتاب الخوارزمي وعلى الإغريق . وبينما كان الخيّام يتابع دراساته ، نشر في كتاب جبريّ آخر ، انتقاداته الخاصة المتعلّقة بمصادرة إقليدس وتعريفاته . فاعتبر الحلُّ الجزئي للمعادلات التكعيبيّة الذي اقترحه الخيّام ، بمثابة الذروة العليا للرياضيّات الوسيطة ، غير أن الخيّام مشهور في أوروبا بـ« رباعيّاته » .

إن عبدالله البيروني (929) هو المبدع الحقيقي لهندسة المثلّثات الحديثة ، إذْ أنّه أحلّ حلول المثلثات محل حلول بطليموس الرباعية الزوايا ، وأحل الجيب محل قوس Hipparque ، وأدخل المماسّات ، وأقام العلاقات الهندسية المثلثيّة في شكلها الجوهريّ الذي لا نزال نستعمله حتى اليوم . وإذا كانت الجيوب وجيوب التمام ، والمماسات ومماسات التمام ، والمخارج ذات الحدّين ، وهندسة المثلثات الكرويّة ، لا تخاطب العقل بشكل كافٍ ، فمن الممكن الوثوق بمؤرخي العلوم الذين يؤكّدون « أن العرب ، وليس الإغريق ، هم الذين كانوا أساتذة الرياضيّات في عصر نهضتنا » .

لقد تحققت أعظم التقدّمات الرياضية في المغرب وأذربيجان بوجهٍ خاص ، فقد وضع حسن المراكشي منذ عام 1229 الجداول الأولى للجيوب وأقواس الجيوب وأقواس مماسات التمام . وبعد ذلك بقليل ، دفع نصير الدين الطوسي دراسة هندسة المثلثات إلى الأمام ، وأثبت أنّه رائد علم المثلثات الهندسية الصينيّة .

علم الفلك

كان علمُ الفلك قد ظهر على ضفاف الفرات ودجلة قبل وصول العرب بأكثر من 4 آلاف سنة . فقد جرى اكتشاف أجزاء من رسالة في علم التنجيم يعود تاريخها إلى العام 3800 ق . م . وعلى ألواح الكلدانيين الصلصالية ترتسم الظواهر السماويّة وتقاسيم الشمس الكبرى . ذلك أن منجّميهم « كانوا يحاولون التنبؤ بكسوفات القمر وكانوا يتمكنون من ذلك في بعض الأحيان » . وكانوا يعتقدون بتأثير الكواكب في المصير البشري ، وأدّت دراسةُ هذه التأثيرات الكوكبيّة

إلى التحديد الدقيق لنطاق العالم السّماوي . وهكذا ، استطاع علم التنجيم أنْ يغدو والد علم الفلك وأمّه .

لقد درس بيغوردان (Bigourdan) المسألة بشكلٍ مرموق ، فكتب : « يمكن التسليم بوجود مراصد تعود إلى 2300 سنة ق . م . وحتى إلى أبعد من ذلك » . وكان كيدينّا (Kidinna)، الذي يذكره سترابون وپلين (Pline) القديم ، يستعمل لتنبؤ الكسوفات القمريّة طريقة حسابية « لم تكن تختلف عن طريقتنا اختلافاً جوهرياً » . ويستخلص بيغوردان العبرةَ بحماس معيّن ، فيقول : « في خلال هذا التعاقبِ الطويل للبشر وللأفكار ، نرى في الأعالي الضيوفَ الدؤوبين والحسّابين الناشطين ، العاملين في مراصد بابل وبورسيبه (Borsippa ، إرخ وسيبارا ، نينوى ونيپور » .

وبالتالي لم يكن مرصد بغداد الذي أقامه الخليفة المأمون على أرض كلدة القديمة سوى خَلَفٍ بعيد لمرصد بابل ، لكنّه كان مؤسسة علميّة مجهّزة بشكلٍ حسن ، ومزوّدة بجهاز علماء فيزيائيين ، معتادين منذ القدم على البحث الفلكي ، فأرصادهم التي لا تُحصى ، تُشكّل سلسلة متواصلة عبر قرنين ؛ وبهذا الشأن كتب سديّو : « إنّ ما يميّز مدرسة بغداد منذ البداية ، هو روحها العلميّة : الانطلاق من المعلوم إلى المجهول ، الإلمام الدقيق بالظواهر السّماويّة ، عدم التسليم أبداً بأية ظاهرة وكأنها مثبوتة ، طالما لم يثبت الرّصد صحتّها » .

كان لعلماء الفلك المسلمين على نهضتنا الأثر نفسه الذي كان لعلماء الرياضيّات . كتب الفرغاني سنة 860 نصاً في علم الفلك صار مرجعاً في أوروبا على مدى 700 سنة . ويصنّف لالاند ، البطّاني (Battani) ، في عداد أشهر 20 عالم فلك ؛ وكان البطّاني قد اكتشف سنة 920 مبادرة الاعتدالين والحركة الإهليلجيّة على نحوٍ مرموق قريب جداً من الحسابات الحديثة . وفي القاهرة ، أكمل علي بن يونس اللوحات الفاطمية ، وأعاد النظر في الحسابات ودقّقها على نحوٍ أفضل من قبل .

اكتشف أبو الوفاء الإنحراف القمري الثالث ، قبل تيسّو براهي (Tycho Brahé) بستمئة سنة .

أما الاسطرلاب ، الذي تناوله ابراهيم الزركلي في كتابه الشهير ، فقد تصوّره العرب وصنعوه ، فوصل إلى أوروبا في القرن العاشر ، واستخدمه الملاّحون حتى القرن السابع عشر . وابراهيم الزركلي من طليطلة ، هو نفسه الذي أثبت للمرّة الأولى ، في القرن الحادي عشر ، حركة ذروة الشمس بالنسبة إلى النجوم . إن «ألواح طليطلة» المتعلّقة بالحركات الكوكبيّة ، ظلّت لأمدٍ طويل في أساس علم الفلك الأوروبي . بعد ذلك بقليل ، كان البيروني قد مهد السبيل أمام كوبرنيك ، وقضى على نظرية بطليموس في تدوير الأفلاك واختلاف المراكز التي كان يستعملها في تفسير مسارات النجوم وحركاتها . ولم يكن في مستطاع الخيّام ، الرياضي الكبير والشاعر ، أن يظلّ في المؤخّرة ، فكلف مع علماء آخرين بإصلاح الروزنامة الفارسية . وأدّت تلك الأعمال الدقيقة المرموقة إلى تصحيح يوم كل 3770سنة ، بينما كان التقويم الغريغوري يستلزم تصحيح يوم كل 3360 سنة . ومع ذلك لم يؤخذ به ؛ وفضّل المسلمون عليه تقويمَ محمَّد .

يرى بيغوردان أن خلاصة النتائج التي توصّلَ العربُ إليها في علم الفلك يمكن التعبير عنها على النحو التالي ، بالنسبة إلى المنظومة الشمسية ، سمح علم الفلك العربي بتحديد أدقّ لمركزيّة المحور الخارجيّة ، ولطول السنة ، واكتشاف حركة الذروة والتناقص التدريجي لإنحناء الدورة الإهليلجيّة . وفيما يتعلّق بالقمر ، أدّت تجربتهم وكذلك حساباتهم إلى اكتشاف الإنحراف العالي أي إنحراف المحور ؛ وربما كان العرب على علمٍ بالتفاضل الثالث المسمّى منذ ذلك الحين بالإنحراف القمري الثالث .

يمكن أن نضيف إلى تلك النتائج الأصيلة ، التحديد الجديد لمواقع بعض النجوم ، وكذلك التقويم الأدقّ لضوئها ، بالمقارنة مع المقاييس التي وضعها بطليموس ، فضلاً عن معرفة أدقّ بمبادرة الاعتدالين . زدْ على ذلك أنّ بيغوردان يروي الأعمال العربيّة فوق جداول المراصد ، وتحديدهم الساعة واستعمالهم تحديد ارتفاع الكوكب لتثبيت آنيّة أية ظاهرة .

إنّ استنتاج سديّو الأعمّ يفرض نفسه هنا : « في نهاية القرن العاشر ، كانت مدرسة بغداد في الطرف الأقصى للمعارف التي كان يمكن اكتسابها دون الاستعانة بالنظّارات والتلسكوبات » .

الجغـــرافيا

انكبَّ المسلمون على الجغرافيا وطبّقوا عليها معارفهم الرياضية مثلما طبّقوها على علم الفلك . كانوا مقتنعين أنَّ الأرض مستديرة ، فقاسوا درجة الزوّال الأرضي انطلاقاً من موقع الشمس في تدمر وسنجار في السهل الواقع شمال الفرات ، فأعطت وفقاً لحساباتهم نحو 870 متراً زيادة ، وهذه نتيجة مرموقة .

لا يجوز أنْ ننسى أن العرب كانوا قد عرّبوا مؤلفات بطليموس وصحّحوا الكثير من أخطائها . لم يكن بطليموس الأستاذ الحقيقي للجغرافيا في أوروبا ، بل كان أستاذها الإدريسي ، المولود في الأندلس سنة 1100 ، والمؤهّل علمياً في قرطبة ، الذي عاش في بالرمة في قصر روجيه الصقليّ في منتصف القرن الثاني عشر . فخرائط الإدريسي التي تسلّم بكرويّة الأرض ، كانت تتويجاً لعلم الخرائط في العصر الوسيط ، سواءً من حيث حجمها أم من حيث دقّتها وشمولها . وكان العالم الجغرافي في الكتاب الذي وضعه بعنوان كتاب الرجوني (كتاب إلى روجيه) ، استناداً إلى مقارنة الأرض بفلك ، قد قسّم خريطة العالم إلى سبعين جزءاً ، وصف كل معالمها الخاصّة .

من المناسب في هذا المختصر السريع الاعتراف بأن العرب اكتشفوا ، بمقاييس ملاحيّة ، لا بمقاييس فلكيّة ، أخطاء بطليموس الكبيرة في موضوع البحر المتوسط . فبينما كانت مقاييس خط العرض الإسلامية صحيحة بفارق عدة دقائق ، كانت مقاييس بطليموس مخطئة بعدّة درجات .

إن العرب المتمكّنين من علمهم الجغرافيّ ، قاموا برحلاتٍ كثيرة ، سنة 851 نشر كاتب عربي مجهول حكاية رحلة إلى الصين ، قبل رحلة ماركو بولو بأربعمئة وخمس وعشرين سنة . في القرن التاسع قدّم إبن خرداذبه ، بدوره ، وصفاً دقيقاً للهند وسيلان والهند الشرقيّة والصين . وفي سنة 895 نشر المقدسي وصفه للامبراطورية الإسلاميّة ، جرى تصنيفه كأعظم كتاب جغرافيا عربيّة قبل كتاب « الهند » للبروني .

هناك إسم مميّز بين أسماء كبار الرحّالة العرب ، هو ابن عبدالله ياقوت (1179 -1229) ، العبد الرومي المعتق . كان ياقوت قد تعلّم وهو يتنقّل عبر

العالم . واطّلع في وقتٍ مبكّر على مكتبات مرو والكوفة والبصرة . إنه عقل أصيل ، راصد ونزيه ، تعيّن عليه ، مثل آخرين كثيرين أن ينصاع لعمليّات النسخ لكي يتمكّن من الحصول على زادٍ ضئيل . ولمّا كان شغوفاً بالعلم ، فإنه وجد الوقت اللازم لوضع موسوعة جغرافيّة تمثّل مجمل معارف العصر . لم يحبّ أحد العالم الأرضيّ مثلما أحبّه هذا العالِم المتشرّد .

علم النّبات

اشتهر علم النّبات أيضاً من خلال الإدريسي الذي بيّن الفائدة الصيدلانية لـ 360 نبتة طبيّة .

سنة 1216 ، تخصّص أبو العبّاس الإشبيلي ، الذي استحق إسم النباتي ، في دراسة حياة النباتات التي تعيش تحت الماء . وفي سنة 1190 اشتهر إبن العون الإشبيلي بـ« كتاب الفلاحة » الذي كان يصف النباتات والأشجار المثمرة والأتربة والأسمدة الرئيسة ؛ ويمكن اعتبار هذا العالم الزراعي كأعظم أستاذ لمادة الزراعة في العصر الوسيط .

الفيزياء

يرى بيغوردان أن بصريّات بطليموس ربّما يكون الأثر الفيزيائي التجريبي الوحيد الذي أمكن اكتشافه في الكتابات اليونانيّة . ولم يقم العرب بنقد المسائل الأساسية للفيزياء النظرية إلاّ بعد ترجمة هذا الكتاب إلى لغتهم .

منذ بداية القرن التاسع بحث الكندي عن القوانين التي تحكم الدوران وسرعة الجاذبيّة .

ولقد درس الظواهر الضوئية ، في كتاب حول البصريّات ، مستند إلى كتاب إقليدس . وكان لا بد لهذا الكتاب من الاضطلاع بدورٍ كبير في المشرق والغرب على حدٍ سواء . وجاء بعده بقليل ، أبو علي الحسن إبن الهيثم ، المعروف باللاتينية باسم AL- HAZEN ، الذي كان يعيش في القاهرة (965 -1039) ، فألقى ضوءاً ساطعاً على تطور البصريّات وفيزيولوجيا الرؤية . وقد أوحى كتابُه

في البصريّات ، المُترجم إلى اللاتينية والإيطالية ، وألهمَ الأبحاث التي قام بها الفيزيائيّون .

كان ابن الهيثم على وشك اكتشاف العدسة المكبّرة ، لدرجة أنّ روجيه باكون وڤيتلو Witele وأوروبيين آخرين أنشأوا أعمالهم، بعد ثلاثة قرون، على أبحاثه الشخصية المتعلّقة بالمجهر والتلسكوب ، ذاك أن إبن الهيثم حين دحض نظرية الرؤية عند إقليدس وبطليموس ، إنما قدَّم وصفاً دقيقاً للعين والعدسات والرؤية بالعينين . فوصف بإحساس عبقري حقاً ظواهر الإنعكاس . وكان أول من ذكر استعمال الغرفة السوداء ، أساس كل فن التصوير . وفي القرن التاسع عشر ، كان الرياضي شاسل (Chasles) يعتبر كتاب ابن الهيثم في البصريّات « في أساس كل معارفنا البصريّة » ، وكان عالم الفلك بيغوردان (Bigourdan) ، المذكور آنفاً ، يعدُّ هذه النظرية البصرية الهيثميّة . . « أرفع من نظرية بطليموس بكثير . ومما يلاحظ فيها بوجهٍ خاص أنَّ حل مسألة ، بطريق التحليل ، إنما يستلزم معادلة من الدرجة الرابعة » . ومن هذا الكتاب نهل العالم البولوني ڤيتلو ما يلزمه لوضع كتابه البصري ، وهو أول كتاب بصريّات وضعه عالم أوروبي في القرن الثالث عشر . الواقع أنَّ الأعمال الأروبية حول الضوء ظلَّت قائمةً ، حتى كپلر وليونارد ، على كتاب إبن الهيثم . وليس في إمكان أحد إنكار أثره في العلم الأوروبي .

نحو العام ألف ، المظلم جداً في حوليّات العصر الوسيط المسيحي ، كان يسطعُ إسمُ عالمٍ في بلاد الإسلام : إنه أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، الذي استطاع بلوغ الشهرة العالميَّة . فهو فيلسوف ، مؤرّخ ، جغرافي ، عالم رياضيّات ، عالم طبيعة ، عالم فلك ، لغوي وشاعر ، ترك في كل هذه المجالات مؤلفاتٍ مهمّة ، جعلت منه ليونار دو ڤنشي الإسلام .

وُلد البيروني في سنة 973 في خوارزم ، بالقرب من خيڤا الراهنة ، جنوب بحر آرال ، بعد موسى مخترع علم الجبر ، بقرنين . أوصلته مواهبُه إلى بلاط محمود الغزنوي ، فاتح تركستان والذي صار أول امبراطور مسلم في الهند . تعلّق بالبيروني ، هذا المستبّد المقاتل الذي كان يحبّ العلماء والآداب ، واصطحبه

معه ، مما أتاح للبيروني الفرصة لدراسة الهند ، بينما كان سيِّده يقضي وقته في غزوها .

حين وضع البيروني كتابه الأول « آثار الماضي » كان في سن الثلاثين ، وكان قد كتب في مقدّمة كتابه بكل سذاجة الشباب : « يتعين علينا تحرير العقول والنفوس من كل الأسباب التي تجعل الناس يعمون عن الحقيقة : العادات العتيقة ، العقلية التعصبيّة ، النزاع الشخصي أو الهوى ، وحب النفوذ » . وكان ذلك برنامجاً وإيماناً في آن . كان البيروني من الفرقة الشيعية الإيرانية التي كانت تتحرك في العالم الإسلامي لمواجهة السنّة . ويُقال إن البيروني ميّال إلى اللاأدريّة . فالعالمُ الحسّاس / المثالي لا يمكنه أنْ يغفر للعرب قضاءهم على الحضارة الساسانيّة الرفيعة . كان زهدُه أسطورياً ، ويروى أنّه كان يعيد لبيت المال ما كان يُرسل إليه من عطاء .

ربما ستفسّر هذه العلاماتُ الفارقةُ موضوعيةَ الكاتب وأمانته العلمية النادرتين ، فهو « نقديّ في فحص الترجمات والنصوص ، ومن ضمنها الأناجيل ؛ دقيقٌ وواعٍ في العرض والشّرح ، يسلّم غالباً بأنه جاهل ، ويعد بمواصلة أبحاثه حتى ظهور الحقيقة » .

أهم كتبه وأبرزها « تاريخ الهند » الذي صدر سنة 1030 . المؤلّف واثق من نفسه ، فلا يتركها تروي وتحكي على غاربها ، بل يبدأ بتصنيف « مختلف أصناف الكذّابين » الذين كتبوا التاريخ وينتقد قيمة شهاداتهم . وهو حين عالج القسم السياسي من كتابه ، إنما تمعّن مطوّلاً في أثر الدين وعلم الفلك الهنديّين ، ثم أجرى مقارنة بين مفكّري الهند والفلاسفة الإغريق ، وختم مقارنته لصالح هؤلاء الأخيرين .

كان البيروني في آنٍ مترجماً مرموقاً ولغوياً ، فقد نقل إلى العربية عدّة كتب سنسكريتيّة ؛ في المقابل وبالسهولة نفسها ، كان ينقل إلى السنسكريتيّة « عناصر إقليدس » و« مجسطي » بطليموس .

سمّاه المؤرّخون الشرقيّون « الشيخ » ، الذي يعني في هذه الحالة « استاذ أولئك الذين يعلمون » ، وكان بالفعل يستحق هذا اللقب . فهذا العقل المتسائل

دائماً وأبداً ، كان يهتم بكل شيء ما عدا الطب . ففي علم الفلك ، قال البيروني إن الأرض كرويّة ، ونبّه إلى « انجذاب كل شيء نحو مركز الأرض ، ولاحظ أنّ المعطيات الفلكيّة كانت تُفسَّر سواءً بالافتراض أن الأرض تدور يومياً حول محورها وسنوياً حول الشمس ، أمْ بالفرضية العكسيّة » . وكانت مشاهداته الكثيرة موضوع دراسات خاصة بسطح الفلك ، فساعدته في نهاية المطاف على وضع جداول فلكيّة وخارطة لنصفي الكرة السماوية .

في علم الطبيعة (الفيزياء) ، قاسَ البيروني الأثقال النوعية ، بواسطة آلة ابتكرها لهذه الغاية (مِثْقَلة : Pycnomètre) ، كما أنّه طرح المبدأ القائل إن الثّقل النّوعي لشيء ما يتناسب مع مقدار الماء الذي يحرّكه . وفي مجال عمليّ آخر ، البيروني هو الذي أكّد عمل الآبار الارتوازية وفقاً لمبدإ الأوعية المتّصلة .

إن البيروني عالم مولع بكل شيء ، انتقائي وشمولي ، وضع في الرياضيّات أفضل دراسة للأرقام الهندية في العصر الوسيط ؛ كما أنّه اقترح في علم الهندسة برهاناً لمصادرات نظرية جديدة ، وفي التاريخ روى تاريخ عهود محمود الغزنوي والأمراء المعاصرين . وهو أخيراً واضع تقويم ودراسة للأعياد الدينيّة ، وفقاً لمذاهب شعوب الشرق وعباداتها . فهذا الكتاب الذي صنّفه باهتمام فني كبير ، يعدُّ نموذجاً للنزاهة العلميّة .

إن مؤلفات البيروني ، التي كانت معاصرة لكتابات إبن سينا « شيخ الأطباء » ، ولابن الهيثم عالم البصريات ، وللفردوسي شاعر فارس الملحمي الكبير ، تبيّن أنّ الحقبة الممتّدة ما بين القرنين العاشر والحادي عشر يمكن اعتبارها وكأنها ذروة العصر الوسيط حقاً .

في الحقبة ذاتها ، عند تخوم العام الألف ، كان الغرب المرتعب ينتظر نهايةَ العالم .

الفصل السادس عشر

التطبيقات العملية

الــورق

لا مشاحة أنَّ هدية الورق هي إحدى الهدايا المباركة التي قدّمها الإسلامُ لأوروبا . فمن المعروف أنَّ العرب تعلّموا في سمرقند فن طَرْق الكتّان ليصنعوا منه عجينةً ورقية تَحلُّ محل الورق القديم . وبعد ذلك خطر لهم أن يستبدلوه بالقطن المتوافر جداً في بلاد الرافدين وفي مصر . منذ ذلك الحين شهدت صناعة الورق تطوراً خارقاً وسريعاً ، ذلك أنَّ الورق كان يسهّل بشكلٍ فريد صناعةَ الكتب ، بوصفها الشرط الأساسي والضروري لاكتساب المعارف ، فعلى صعيد التطور الثقافي ، يمثّل الورق العدّة الازمة ويوّفر الشرط المادي ؛ غير أنَّ النشاط الفكري ، الملازم للحقيقة ، يحتاج إلى ناقلٍ ينقل المعرفة والعلم إلى المنزل .

والحال فمن الممكن التأكيد ، بلا خوفٍ من المبالغة ، أنَّ ظهور الورق بسعرٍ رخيص سجل نقطة انطلاق عصر جديد ، ذلك أن كتب الورق البردي كانت باهظة الثمن .

مع ذلك كان يلزم كثير من الوقت حتى يصل الابتكار إلى الغرب . ففي سنة 712 كان العربُ قد فتحوا سمرقند ، التي كانت مصدر انتشار الورق عبر العالم . وإن معمل الورق الأول ، معمل بغداد ، لم يؤسس إلاّ في سنة 794 . وبدأت مصر ، بدورها ، صناعة الورق سنة 900 ؛ وقامت صناعة الورق في المغرب سنة 1100 فقط . إنْ أقدم وثيقة أوروبية مكتوبة على ورق حقيقي هي أمرٌ حرّرته زوجة روجيه الصقليّ سنة 1109 باليونانيّة والعربيّة . الواقع أنَّ معمل

اكزاتيفا الإسباني هو الذي كان يزود أوروبا الغربية بالورق في القرن الثاني عشر ، بينما كانت أوروبا الشرقيّة تتزوّد مباشرةً من بلدان المشرق . شيئاً فشيئاً ، انتقل مبدأ صناعة الورق من اسبانيا إلى فرنسا ، ومن صقلية إلى ايطاليا . وربّما يُعَدُّ من الخطأ التاريخي القول بأن ظهور الورق في فرنسا يتوافق مع عودة الصليبيّين . إنّ الأمر على خلاف ذلك ، إذْ من المؤكّد أنّ الصليبيّين كانوا قد تعلّموا في مصر طريقة طبع الأقمشة مع الصحائف الخشبية ، وقد استطاعت هذه التقنيّة التي كان يعرفها الأقباط منذ أمدٍ بعيد ، الإسهام في تطوير الطباعة في أوروبا .

آنذاك كانت التقنيّة الإسبانيّة متطورّة جداً . ففي قرطبة كان كاتب عبد الرحمن يستنسخ الوثائق الرسمية على عدّة نسخ بواسطة مطبعة بدائية لم يتمّ بعد اكتشاف آليتها . إنّ هذا الاكتشاف يجيز للمرء أنْ يلاحظ أن الجَنويّين ، الأكثر إطلاعاً وخبرةً ، كانوا قد استطاعوا أن ينقلوا من بلاد فارس في القرن الثالث عشر سر طبع الأوراق المصرفية بواسطة الحروف المتحرّكة ، وذلك قبل إفلاس الخزينة العامة .

الــزجاج

إن صناعة الزجاج ذات الأصل الفينيقي ، جرى إتقانها في المشرق ؛ ولقد أُدخل فنُّ صناعتها إلى البندقية ، بموجب اتفاقية معقودة حسب الأصول بين بهموند السادس أمير انطاكية والدوق كونتاريني (Contarini) ، في الأول من حزيران / يونيو . وجرى استيراد كل شيء من سورية ، المواد الأولية ، أسرار الصنعة والحرفيّين الذين كانوا بادىء الأمر من العرب . وظلّت الدوقيّة محتفظة لنفسها بالاحتكار وبالأسرار حتى القرن السابع عشر ، حين جرى نشرها في فرنسا من خلال كولبر .

ومما يسجل في رصيد العرب صنع المرايا واستعمال الألواح والواجهات الزجاجية التي أُدخلت إلى بالرمة منذ القرن الثاني عشر . وكان إبن فيناس أول من صنع البلّور (الكريستال) في مختبره في قرطبة ، وكانت خزينة الفاطميّين تحتوي على ألف مزهريّة وآنية من البلّور الصخري ، لم يظهر في أيامنا ما يضاهيها في الجودة .

أخيراً ، فضلاً عن صناعة الزجاج ، يُعزى تجديد صناعة الخزفيّات في إيطاليا وفرنسا إلى وصول الخزّافين العرب إلى هذين البلدين في القرن الثاني عشر .

النسيج

يُقال إن الشرقيّين كانوا مهتمّين على الدوام بالمظاهر الخارجيّة ، إذْ أنّهم يعبّرون عن النوعيّة بغنى الملابس . فإذا لم يكن الكساءُ انعكاساً للعقل والعلم ، فإنّه مع ذلك يعبّر عن بعض المزايا كاليُسر والرَّفاه ، والذّوق في بعض الأحيان ؛ وهذا الأمرُ كان صحيحاً بوجهٍ خاص في عصور الثّراء والأُبهّة ، فعندما كان خليفة يخلع كسوةً شريفة ، إنما كان يرمي في آنٍ إلى تمييز المحظيّ وإغنائه . يُستحسن ، هنا ، التذكير بالملاحظة الصغيرة المكتشفة في محفوظات هرون الرشيد : « 400000 قطعة ذهبيّة ، ثمن كسوة شريفة لجعفر ابن يحيى الوزير » . كسوة شريفة ، الكلمة هنا تساوي قيمة الثوب ، الذي كان يمثل هديّة كبيرة جداً ، وكانت صناعة الحرائر والديباج والمطرّزات والمخمل الموشّى بالذّهب ، قد شهدت في المشرق تطوراً لا نظير له . ولقد انفتن الصليبيّون بذلك ولم يتوقفوا عن استيراد المنسوجات الشرقيّة إلى أوروبا بنسب كبيرة شكّلت خطراً على اقتصاد بلدانهم ، لدرجة أنّ أحد ملوك فرنسا اتخذ إجراءات للحدّ من ذلك الاستيراد .

كان من المُستحسن نقل أساليب التصنيع وآلاته . فبدأت صقلية أولاً ؛ إذْ كان روجيه الثاني ، أحد ملوكها النورمانديين ، يرتدي ملابس مطرّزة كانت قد حيكت في مشغل أقامه السلاطين المسلمون في بلاط بالرمة . وكان هذا المشغل هو الذي صنع لأوروبا الملابس الاحتفالية التي كان يرتديها الأمراء الأوروبيّون والوجهاء والأعيان .

كانت الأقمشة مستوردة من المشرق ، كما تدلُّ أسماؤها عليها ، الموصليني (من الموصل) والدمشقي من دمشق ، والأطلس (الاسم الألماني للساتان) والحرير الحلبي ، واحتفظت تلك المنسوجاتُ بأسمائها ، حتى عندما نُقل تصنيعها إلى فرنسا وإلى أوروبا في القرن الثالث عشر ، وكذلك الحال بالنسبة إلى صناعة السجاجيد ، وفقاً للتقنيّات الشرقيّة .

الجلود

ازدهرت صناعة الجلد ، بوجهٍ خاص ، في قرطبة ، ومنها انتقل فن دبغ الجلود وتصنيعها إلى المغرب . ومن خلال هذين البلدين جرى إدخالها في فرنسا وألمانيا مع حفاظها على أسمائها الأصلية : الجلود القرطبيّة (Cordonnerie) والمغربيّة (Maroquinerie) .

بعد لأيٍ من الزمن ، راح الحرفيّون الشرقيّون يعلّمون طريقة صناعة الجلد وتزيينه في المدن الإيطاليّة . وبدأت تظهر في القرن الخامس عشر ، على الكتب المسيحية ، التقنيّات الخاصة بالتجليد العربي ، ومن ضمنها تقنية عجينة الجلد التي كانت تُلصق على أطراف الأوراق لحماية التجليدة .

المعادن

كان فن صنع المعادن معروفاً في المشرق منذ أقدم العصور . وكان أصل هذه الصناعة صينيّاً ، لكنَّ صناعة الفولاذ الصقيل بلغ ذروة جودته في دمشق ؛ ثم انتقل إلى محترفات مصر الفاطميّة ، ومنها إلى البندقية حيث جرى تعشيق مصنوعات الشُّبهان وترصيعها بأوراق ذهبيّة وفضيّة ونحاسيّة . وكانت الصناعات المعدنية الممارسة خصوصاً في دمشق ، والموصل وكذلك في فارس ، تقنيَّةً مجتلبة من الهند ؛ ثم انتشرت في مصر والقاهرة القديمة في القرن التاسع ، وتوطّنت في اسبانيا حيث انتقلت منها إلى أوروبا .

إنّ صانعي الأسلحة الإسبانيين ، المشهورين بهذا الفن ، والذين كانوا قد تعلّموا لدى الحرفيّين المسلمين في طليطلة ، الشهيرين خصوصاً بصناعة النصال وقطع الأسلحة الدفاعية والخوذ والدروع ، نقلوا معارفهم العامة إلى الفرنسيين في وقتٍ لاحق ؛ وكان الصليبيّون ، في الوقت ذاته ، ينقلون من المشرق صناعة حدادة المسامير ، التي رفعت إلى مصاف الفن الشّريف ، والتي لم يأنف الفرسانُ عن تعلّمها . ومنذ ذلك العصر ، صارت نضوة الحصان تظهر في عددٍ من الرسوم والشعارات .

الميكانيك

إن كل أصناف الألات العاملة بواسطة الماء والمبتكرة في الصين ، انتقلت إلى إيران وسورية ، ثم إلى أوروبا بعد عدّة قرون . ومثالها النواعير التي لا تزال ترفع الماء من نهر العاصي ، والتي كان الصليبيّون قد تنبّهوا ، فادخلوها بدورهم إلى ألمانيا . وفي الوقت نفسه تقريباً ، كان النورمانديون يقيمون الطواحين الهوائية الصقليّة ، التي يعودُ أساسها إلى الأصل الفارسي ، مثلما تعود إليه آلاتٌ أخرى كثيرة .

الصحة العامّة

اعتباراً من القرن الثاني عشر ، انتصبت في أوروبا المشافي ومراكز علاج البرص والملاريا ؛ وكان عددها نحو 20000 في القرن الثالث عشر . كانت طريقة التطبيب المنهجي للمرضى وخصوصاً للأمراض المُعدية ، قد انطلقت من المشرق ، حيث كانت هذه الخدماتُ أرفع تنظيماً بكثيرٍ مما كانت عليه في البلاد المسيحية .

إن الحمّامات العادية وحمّامات الحمّة ، التي كانت مألوفة كثيراً في خلال المرحلة الغاليّة ـ الرومانية ، زالت كلها تقريباً في ظل الامبراطوريّة ، لكنّها عادت بقوّة بعد الاحتكاك بالمشرق ، حيث كان استعمال الحمّامات عاماً .

المصطلحات

في الوقت الذي كانت أووبا تستورد فيه المنتوجات الإسلامية ، كانت في أغلب الأحيان تتبنّى الكلمات التي تدلّ عليها . وهكذا دخلت في المصطلح الفرنسي كلمات : سكر ، شراب ، شوربة ، كحول ، القالي ، الجلاّب ، الإكسير ، البرتقال ، الجرّة ، المخدّة ، الصوفا ، الجوت ، الأثير ، الفن العربي (Arabesque) . وكلمات أخرى مقترضة من اللغة العلمية : الجبر ، الصفر ، السمت ، الأنبيق ، المناخ ؛ أو من الموسيقى : عود ، ربابة ، طبلة ، مزمار ، طبل ؛ ومصطلحات بحرية : أمير البحر ، دار الصناعة ، حبل (Câble) ، شالوب (زورق انقاذ) ، قارب ، مركب شراعي (سلوب) ؛ أو كلمات تدل

على الأقمشة : موصلي ، ساتان ، تفتا ؛ ومصطلحات تجارية : بازار ، تعرفة ، مخزن ، ريسك ، شيك ، دوان (جمرك) ؛ وأخيراً كلمة ، ربما تدهش ، وبقاؤها مضمون على قدر بقاء اللغة الفرنسية ، «السيد» الآتية مباشرة من كلمة سيدي .

الزراعة

كانت بلاد الشام طيلة الحملات الصليبية ، على مدى 200 سنة ، حقل علاقات وثيقة بين المسلمين والمسيحيين ، ومع ذلك فإنها لا تأتي إلا بعد صقلية وبالأخص بعد اسبانيا على صعيد نقل النفوذ العربي إلى الغرب . ومردّ ذلك إلى وضع الثقافة الإسلامية الآخذة في الانحطاط في المشرق ، من جهة ؛ وإلى كون الصليبيين المتحصّنين في قلاعهم من جهةٍ ثانية كانوا على اتصال مع الفلاحين ومع الحرفيين المسلمين أكثر مما كانوا على اتصالٍ مع النخبة . وبالتالي سوف يتميز تأثير الإسلام في العالم المسيحي على الأصعدة التطبيقية ، لا سيما الزراعة والتجارة .

زدْ على ذلك أن الدراسات تناولت ما كانت إسبانيا الإسلامية قد جلبته على صعيد الزراعة من آسيا وعلّمته لأوروبا : زراعة الأرزّ والدرّاق والخوخ والمشمش والرمان والبرتقال وقصب السكر والزعفران والقمح والحنطة السوداء والنخيل والتين والكريفون (الليمون الهندي) والسفرجل .

التجـارة

جلب الصليبيون من المشرق كل ما كان يمكنه التكيّف مع المُناخ المعتدل: السمسم ، الذرة ، البطيخ الأصفر ، القُفلوط ، الخروب ، الليمون الحامض ، الفريز ، الكرز . ولكنهم كانوا في بعض الأحيان يتعلّمون عاداتٍ وتقاليد وحتى يكتسبون حاجاتٍ ، بلا علم منهم ، تجعلهم في وقتٍ لاحق محتاجين للشرق ، فيندفعون وراء تطوير تجارة كثيفة عبر مرافىء المتوسط كلها .

تلك ، مثلاً ، كانت حالة العطر والمنتوجات العطرية الأخرى في الجزيرة العربية ، وعطر الورد الدمشقي وزيوت فارس المعطّرة . في المقابل ، أدّى إنتاج هذه العطور في المشرق إلى انتشار زراعة الأزهار . وكذلك كان الحال بالنسبة إلى البهارات والتوابل : الفلفل ، القرنفل ، الزنجبار ، إلاّ أنّ أهم المنتوجات

المستوردة من الشرق كان ، بكل تأكيد ، منتوج السكّر الذي لعب ، منذ ذلك الحين ، دوراً أساسياً في الاقتصاد المنزلي ، وفي صناعة الأدوية أيضاً .

ولم يكن النشاط البحري هو المستفيد الوحيد من كل تلك التقدّمات . فقد نجم عنها تداول للعملة أعظم وأسرع ، وبالتالي إنشاء نظام مالي ، فظهرت المصارف في المرافىء الأوروبية الكبرى ، وأُسست فروعاً لها في المشرق .

متفـرقات

في التطبيقات العملية ذات الاستعمال البحري التي ظهرت في ذلك العصر ، من المناسب أن نُشير إلى ابتكار خاص هو استعمال البوصلة التي اخترعها الصينيون ، وراح العرب يستعملونها منذ أمدٍ بعيد في الملاحة داخل الخليج وفي المحيط الهندي ، وبفضل العرب ، سهّلت هذه الأداة الأساسية ، الاكتشافات الجغرافية الكبرى في القرن الخامس عشر .

وكان البارود صينياً ، إلاّ أن الصينيين لم يستعملوه إلاّ في صنع المفرقعات والأسهم النارية . إن بارود المدفع عربي ويبرز تركيبه لدى واحد من الكتّاب العرب في القرن الثاني عشر . سنة 1342 ، في مقر الجزيرة ، رأى الإنكليز الذين كانوا يخدمون في الجيش الإسباني مدفعاً لأول مرة . ومن هناك جاء مدفع كريسي (Grécy) .

الحقيقة أن وضع جردة كاملة بما قدّم الشرق للغرب ، يستلزم أيضاً أن يُسجل في رصيد العرب كل التطبيقات الصناعية المنبثقة من العلم الإسلامي ؛ لكن يبدو من المستحسن وقف هذا الفصل خوفاً من الخروج عن المخطط العام لتاريخ الحضارة العربية .

إنّما ، فلنتخيلْ فقط أوروبا في فجر الأزمنة الحديثة وهي لا تجد في متناولها تلك الموروثات الثلاثة التي أسهم الإسلام في تقديمها للمشروع البشري : البارود ، البوصلة ، الكتاب ؛ ولنتوقع ماذا يمكن أن تكون عليه أوروبا من دون ذلك كله .

الفصل السابع عشر

الطب

احتل العرب المكانة الأولى في الطب وظلّوا على رأس العلم الطبي في العالم على مدى أكثر من خمسمئة سنة .

هناك حديث منسوب إلى النبيّ يقول : إن الطب وفقه الدين هما ركنا العلم الأساسيان .

طب النبيّ

تعود الأحاديث الطبية الموروثة عن محمَّدٍ إلى ثلاثمئة سنة تقريباً . وقد جرى جمعها في كتاب عنوانه « طب النبيّ » . بوجهٍ عام ، توصي هذه التعاليم بالنظافة ، وتأمر بممارستها الصحيَّة ؛ وتحتل هذه الأحاديث المعروضة بشكلٍ عبقري وشعري ، مكانةً كبيرةً في الطب الشعبي . فقد كان أطباء المرحلة الثيوقراطية الممتدة من 622 إلى 661 ، يجيدون فن مداواة الجروح ، والكيّ والنزف واستعمال المحجمة .

آشتهر الطب في عهد الأمويين بثلاثة أو أربعة أسماء ، يبقى الحكَم أبرزهم ، الحكَم المتحدّر من أسرة أطباء وشعراء . وكان ولده ، عيسى ، مؤلف كتاب كبير في الفن الطبّي « الكُنّاس » . وفيه يعرض حالة وطريقة معالجة نزيف شرياني خطير ، كان قد تسبّب به مُلتَحٍ غير ماهر .

هذا وكان ذلك العصر قد اتّسم بابتكار يستحقُّ الإشارة . وهو أنَّ الخليفة الوليد أمر بعزل المصابين بالبرص وقدم لهم ما يلزمهم من غذاء . وهكذا ، في الشرق منذ بداية القرن الثامن ، وفي عصر ملوك أوروبا البليدين ، كان الأميرُ قد

بدأ يهتمّ بشؤون الصحة العامة .

التطور في المدن

إن ازدهار الترجمات ازدهاراً عظيماً سنة 830 ، وضع في متناول العرب تعاليم أشهر علماء وأطباء اليونان : أبقراط ، غاليان ، روفوس الإفسيّ ، بولس الإيجيني . وهكذا أمكن ، كما سبق لنا القول ، الحفاظ بالعربية ، ومن خلال ترجمات حنين بن إسحق ، على بعض الكتب اليونانية ، المفقودة منذ ذلك العهد ، لاسيما كتب غاليان السبعة الشهيرة في علم التشريح ، ومما له دلالته أن يكون أول كتاب طبي مكتوب بالعربيّة ، هو ترجمة قام بها يهوديٌ لنصٍ يوناني وضعه نصراني من الاسكندرية . ولكن على الرغم من كون ذلك التعاون العلمي منشوداً ومرغوباً فيه تماماً ، فإن أطباء الإسلام ما كانوا يريدون الاكتفاء بدور النَّقل . فقد راحوا في وقتٍ مبكّر يهتّمون بجميع العناصر المتناثرة من الطب اليوناني ، وتصنيفها وفقاً لترتيب منهجي . كما أنهم حين راحوا في وقتٍ مبكّر أيضاً يتخلّون عن علمائهم الطبيين ، ساروا بدورهم في الدروب التي يجهلها الإغريق وأسهموا إسهاماً كبيراً في التقدم الطبي .

« كانوا يجمعون الوقائع بلا كللٍ ولا ملل ، ويعاينونها بدّقة وأناةٍ وعناد . فمنذ ذلك الحين ، صار الطب اختبارّياً . وأعلن علي عبّاس بصراحة أنَّ مشاهداته جرى جمعها من المشافي وليس من الموروث الكتبي » .

كان التعليم الطبي يعطى في المشافي بوجهٍ خاص ؛ ومنذ القرن التاسع ، كما يلاحظ ك . كومستون ، « بدأ العرب يبتكرون الطب العيادي / السريري ، ويغنون علم الأمراض الجديدة » .

وفي القرنين العاشر والحادي عشر ، أخذ تطور العواصم الكبرى ، دمشق ، القاهرة وخصوصاً بغداد ، يكدّسُ الموارد والشروط المادية التي ستسمح للعلم ، ولا سيما للطب ، بأن يرسي نظامه على الأسس المتينة لامبراطورية زاهرة .

ومنذ ذلك العصر ، استطاعت الجامعات فتح كلية علوم وكلية طب

ومختبرات تابعة لها . ثم أضاف المسلمون ، إلى علم الادوية القديم ، العنبر الرمادي والكافور والسَّنا والقرنفل والزئبق والمرّ ؛ وأدخلوا تحضيرات صيدلانية جديدة : الشراب ، الجلاَّب ، ماء الورد ، إلخ .

التطور في الأرياف

لئن كان تدريس العلوم الطبيَّة قد تطوّر بشكلٍ خاص في بعض المدن أو المراكز الثقافية ، فإن ممارسة الطب الحقيقي في قلب الأرياف والأمصار كانت ، في المقابل ، شبه مهملة تقريباً . ذلك لأنَّ مشيئة الله هي وحدها ، حسب القرآن ، التي تعطي الداء أو الصحة ، الحياة أو الموت ، بأمرٍ لا مردَّ له . إلاَّ أنَّ عادة الاعتناء بالنفس أخذت تعمُّ شيئاً فشيئاً ، في وقتٍ متأخرٍ نسبيّاً ؛ وهذا ما تعبِّر عنه وصفةٌ لواحدٍ من أشهر المرابطين الأفارقة ، سيدي محمَّد الزروكي ، إذْ يقول : « إن حياة الناس كلهم في يد الله ، وعندما تحين الساعة ، لا مفرَّ من الموت . إلاَّ أن مشيئة الله حفظت بعض الأشخاصِ من الطاعون ، فكانوا يتناولون كل صباح ، وعلى امتداد استمرار الوباء ، حبَّةً أو حبتين فيهما : جزءان من المرّ ، جزء من الزعفران ، جزءان من الصَّبر (الألوة : Aloès) وعصير حبوب المرّ » .

في الواقع ، كان العربُ خلال أمدٍ طويل يثقون بمشعوذيهم وسحرتهم أكثر مما يثقون بالأدوية المصنوعة بطريقةٍ عقلانية . وفي الأرياف ، كان الطبُّ قد بقي وقفاً على المرابطين . كما أنه ظلَّ بدائياً لأجلٍ طويل . فبالنسبة إلى الجراح ، كانت الأدوية تقوم على المعالجة بقشور النباتات ، وعلى الضمادات والكيّ بالحديد الحامي للمصابين بأمراض المفاصل وسواها . وكانت تُعالج الحُمّى بعشبة تُدعى « بخور الأرض » أو بخلاصات « Globuloria Fructiosa » ؛ كان داءُ الحُصى يُعالج بغلي جذور نباتية مجفَّفة ، وكان الإسهالُ يعالج بمسحوق البوكوكا ، ويُعالج الإحمرارُ والحصباء بتناول ست إلى ثمان حبَّاتٍ من الكرفس المجبول بالعسل .

بيد أن العرب كانوا منذ أقدم العصور ، يستعملون لقاح الجدري ؛ وكانت طريقتهم تختلف عن طريقة الصينيين ، وتقوم على إحداث جرحٍ صغير في الجزء الداخلي من اليد بين طرفي الأصابع . وهكذا كان يُدلّك الجرح المفتوح

بواسطة وريقة أو وريقتين لمعالجة الجدري (يمكن شراؤهما من صديق أو من جار يُحسن تحضيرهما) .

مما يجدر لحظُه هو أن المحمديين المتحمسين كانوا يتصرّفون في كل الأزمنة تصرُّفاً معادياً للتلقيح ، ويناصبون العداء الشديد لهذا النوع من العلاج الطبي . وكانوا يقولون : « إن هذا يعني اختبار الرحمٰن » .

بوجهٍ عام ، كانت تُعالج الآلام والأوجاع والالتهابات والأمراض من كل صنف بواسطة أوراق النّبات ، التي تحضّر أولاً على النّار ، ثم توضع على مكان الدّاء وهي حارّة قدر ما يستطيع المريض تحمّلها . وكان هذا العلاج نفسه يُستعمل لمعالجة القروح والدمامل . ولمنافع شتى ، كان يجري تحضير مسحوق الحنّاء ، لا سيما لتطبيب حالات الالتهابات والجروح الموجعة . ومن بين هذه العقاقير التجريبية إلى هذا الحد أو ذاك ، هناك دواءٌ يستحقُّ الذّكر بوجهٍ خاص ، نظراً لأصالته واستمرار استعماله ، مطوّراً ، في أيامنا ؛ إنه استعمالُ العرب لعفوناتٍ مستخلصة من البنسلين والهليون ، كانوا يجمعونها من بين نباتات حيواناتهم ويستعملونها على شكل دواء مرهمي لمعالجة الجراح الملتهبة . على هذا النحو التجريبي ، حصّل العرب معرفة علمية مميّزة للأدوية المضادة للجراثيم والالتهابات ، أو المضادات الحيوية لبعض المتعضّيات الصغيرة .

المـــشافي

كان كبارُ رحّالة العصر الوسيط ، وما أكثرهم ، قد أجمعوا على إبداء إعجابهم بالمنشآت الاستشفائية القائمة في المشرق . وقد أكّد مؤرخ الطب ، نيوبورغر : « أنّ تنظيم المشافي كان واحداً من أروع إبداعات الثقافة الإسلامية » .

في مطلع القرن التاسع ، أنشأ هرٰون الرشيد أول مشفى في العالم الإسلامي . وحوالى العام 850 ، كان هناك 34 مؤسسة مماثلة منتشرة في العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه ، ومصنوعة بلا شك على مثال الأكاديمية والمشفى الفارسيّين في جنديسابور . وكان معظم تلك المشافي غنيّاً بالتجهيزات ، حسن الموقع ، جيّد الصيانة ومفتوح للجميع ، للفقراء والأغنياء ؛ ونجد فيها ، كما هو

الحال في أحدث المنشآت ، خدماتٍ متخصصة حسب الأمراض ، وصيدليات ومخازن ومطابخ ، ومكاتب للدرس والمطالعة . هذا ، وقد جرى تعيين أول مدير للمشافي في القرن العاشر .

وكان في كلٍ من هذه المشافي أطبّاء وطلاب ، جرّاحون وأطباء عيون وحتى « مجبّرين » . كان المرضى يرتاحون على أسرَّة مغطاة بشراشف . وكان الطبيب يزورهم مرَّة كل يوم ، وكان الممرضون يزورونهم عدَّة مرات يومياً فيقدمون لهم الأدوية والوجبات ، ولم تكن حياتهم تختلف كثيراً عن حياة المرضى في أيامنا . وكان لبيمارستان دمشق ، وهو أشهر مشفى في الإسلام ، جهازٌ مؤلف من 24 طبيباً سنة 978 . وظلت العلاجات والأدوية تُقدم مجاناً طيلة ثلاثة قرون ونيّف . وفي بعض الأحيان ، كما هو الحال في مشفى القاهرة ، كان المتماثلون للشفاء يتلقّون مبلغاً من المال لدى خروجهم من المشفى .

وفي الوقت الذي كان يجري فيه إنشاء مشافٍ مخصّصة كلياً للنساء ، ومختصة بمعالجة كل صنف مهني ، كان يجري إنشاء أول مدرسة صيدلانية في العصر الوسيط ، وأولى المستوصفات وحوانيت العقاقير .

فروع شتّى

منذ القرن الهجري الثاني ، جرى في بغداد أنشاء أول مصح للأمراض العقلية ، وذلك قبل إنشاء مصحّ ڤالانسا بسبعمئة سنة ، وهو أول مصحّ في تاريخ العرب ، جرى انشاؤه من جهة ثانية على غرار مشفى القاهرة للأمراض النفسية . والحال ، بينما كان المرضى العقليّون يعتبرون مجرمين أو مسكونين بالشيطان ، وكانت الكنيسة تعزّم عليهم بحذر ، كان المسلمون يعالجون المرضى العقليّين برحمة ورعاية يتولّاها أطباء متخصّصون في الأمراض العصبية . وصار هناك في وقتٍ مبكّر مصحّات للمرضى العقليين والنفسيين في كل المدن الإسلامية الكبرى . وعندها قامت الأوقافُ الخيرية بتقديم عددٍ كبير من المساعدات والرعايات للمعاقين والزّمنى والمتروكين ، وأنشأت مصحات للكهول واليتامى . إن الأزمنة القديمة لم تشهد مؤسساتٍ مماثلةً كانت تشكّل تقدماً اجتماعياً كبيراً .

من السّهل أن نفهم ، في هذه الظروف والشروط القائمة على كَرَم الخلفاء

ورعايتهم ، مدى تيسير الدراسات والاكتشافات .

إن طب العيون إبتكار إسلاميّ ، وقد ظلّت شهرةُ أطباء العيون العرب ، وسمعة علمهم المعمّق على صعيد التقنيات الإجرائية ، بلا نظير لأمادٍ طويلة . ولم يتم تخطي « رسالة أطباء العيون » لعلي بن عيسى إلاّ في القرن التاسع عشر . الحقيقة أن أطباء العيون العرب كانوا قد أفادوا كثيراً من المعارف الواسعة التي وفّرها لهم علماء البصريات . فكانت عمليات العيون كثيرة ؛ لكن المُحسن (1256) كان أول من مارس امتصاص سيلان العين وابتكر الإبرة المفرغة .

كانت الجراحة العامة وفن أجراء العمليات ومعالجة الأسنان بالغة التطور لدى العرب في العصر الوسيط ، وأكثر تطوراً من كل طبابة ذلك العصر . كان التخدير والانعاش في جوّ العصر ، سيما إذا تذكرنا أنه استُعمل للمرة الأولى في عملية ولادة قيصرية أجراها طبيب وكاهن زرداشتي ، لم يتردّد في إحداث التنويم من طريق بُخار الخمرة . وبعد ذلك ، صار يُستعمل الحشيش ومخدرات أخرى تتسبب في نومٍ عميق .

من البديهي ، وعلى الرغم من كون العرب أظهروا على الدوام كرههم للجراحة ، أن طب ذلك العصر كان لا بد له من اللجوء إلى هذه الطريقة الاختبارية ، المفيدة جداً في علم الأمراض المقارن وفي علم التشريح على حدٍ سواء .

وعليه ، فإن الجرّاح المسواقي كان أول من مارس الجراحة على قردة متطورة من النوع الشبيه بالبشر ، كان يزوّده بها أميرٌ نوبيّ بشكلٍ منتظم .

الشَّغَفُ العام

إن حكاية تودُّد الجارية الحسناء ، في ألف ليلة وليلة ، التي نجحت أمام أكبر علماء بلاط هرُون الرشيد ، في امتحانٍ عسير جداً حول مختلف المواد الطبيّة والفقهية والرياضية والفلسفية ، لا تظهر فقط مدى اتساع الثقافة العامة في ذلك العصر ، بل تظهر أيضاً مدى الأهمية التي كانت تُناط بالطب . هناك مصطلحاتٍ طبية دقيقة جداً كانت تشكّل جزءاً لا يتجزأ من التعليم العام ؛ كما أن الشعراء

والأدباء ، والمرضى أنفسهم ما كانوا يتوانون عن ممارسة فنّهم وإظهار قريحتهم على الرغم من أوجاعهم ومن أولئك الذين كانوا يبذلون قصاراهم لمعالجتهم .

مثال ذلك أنَّ خليفة مولعاً بجارية صبية ، قد اضطرب اضطراباً عميقاً عندما صرَّحت له بكلماتٍ يمكن وصفها بأنها تشريحية ، واصفةً له لواعج حبها ، قائلةً : « هناك نارٌ تضطرم بين النَّحر واللهاة ، لا يستطيع شيء إرواءها ولا تبريدها » .

والشاعر المتنبيّ وضع قصيدةً عن الحمّى التي أصابته ، لا تخلو من تهكُّم ، فقال إن الحمّى جعلته يُصاب بثملٍ شديد رغم أنه لم يشرب الخمرة . ويذهب إلى تشبيه الحمّى بفتاة جميلة خجولة « وزائرتي كأن بها حياءً ، فليس تزورُ إلاّ في الظلام » . وفي هذه القصيدة يتحدث المتنبي عن الهذيان وعودة الحمى ليلاً ، والارتعاشات وتساقط الدموع ، دموع وداع الحبيبة (الحمّى) التي تهربُ عند الفجر .

وهناك شاعرٌ آخر تفيض قريحته في وصف طبيب وافته المنية ، متسائلاً : « كيف يموت من داءٍ كان في الماضي معتاداً على شفائه » ؟ ويعلن في نهاية القصيدة ، وقد بلغت عبقريته ذروتها : « كلهم أموات : ذاك الذي كان يصف الدواء ، وذلك الذي كان يتناوله ؛ ذاك الذي كان يستورده وذلك الذي كان يبيعه ، وهذا الذي اشتراه » . ظهرت هذه الكلمات قبل موليير بثمانمئة سنة .

أربعةُ وجوهٍ كبرى

قد نحتاج إلى مجلداتٍ كاملة لكي نتمكّن من الإحاطة بكل ما قدّمه الإسلامُ للطب المعاصر . وليس في الإمكان سوى التذكير بأولئك الذين مارسوا أعمق التأثير من بين العلماء المسلمين كافةً .

نكتفي هنا بالمشرق ، لأننا سنتكلم في مكانٍ آخر على المدارس الساطعة التي ازدهرت في افريقيا واسبانيا ؛ ونذكر أربعة أسماء بلغت الشهرة العالمية : الربَّان ، الرازي ، علي عبّاس وابن سينا . فلنتناول على التوالي أعمال هؤلاء « الأربعة الكبار » الذين برزوا في ربيع العباسيين الذهبي .

ربّــان

كان الربّان ، وهو الأقدم ، يعيش في القرن التاسع ؛ فوضع أربعة كتب ، أهمها الفردوس (فردوس الحكمة) الذي أنجزه بعد تعديلات وتنقيحات كثيرة . إنه كتابُ طب وفلسفة طبيعية ، حظي بتقدير رفيع في عصره ؛ ومثال ذلك أنَّ المؤرخ الكبير ، الطبري ، جعله الكتاب الملازم له على فراش احتضاره . وتكمن أهمية هذا الكتاب خاصةً في أنه مستقل عن ترجمات العصر القديم وأنَّه يشكّل أول كتاب طبي موضوع باللغة العربية . وقد بقي منه مخطوطان ، أحدهما في المتحف البريطاني والآخر في برلين . إن نصف الكتاب تقريباً يتناول علم الأمراض العام ؛ والباقي يتناول علم الجنين ، علم التكوّن أو التشكّل ، علم التسمّم ومختلف العلوم في علاقاتها بالطبّ والصحّة . ولا دعي للمضي قُدماً ، طالما أنَّ ربّان ذاته لا يستحسن ذلك ، إذّ أنَّه كتب : « إن ذلك الذي يعدّد فصول كتابي لن يفهم معناه . . . وأما من يتمعّن في صميمه فسوف يجد فيه معظم المعارف الضرورية للمتدرج في الطب » . وليس في واردنا التمعن في 550 صفحة . وإنما ينبغي أن نلاحظ بالنسبة إلى كلمة متدرج ، أنَّ الفحص المُستحسن الذي يفترضه لم يكن ممكناً في لحظة ظهور الكتاب سنة 850 . فقد جرى إنشاؤه بعد ذلك بثمانين عاماً ، إثر حالة خطأ مهني ترامت إلى سمع الخليفة المقتدر .

الـرّازي

هو تلميذ ربّان (844 -926) ، ظهر كأنه أكثر أطباء الإسلام عطاءً وأصالةً . فـ « الفهرست » ، وهو دليل علوم وأقدم مرجع في هذا الموضوع ، يعدّد للرازي 113 كتاباً و28 مقالاً ورسالة ، ومعظم كتب الرّازي نُقلت إلى اللاتينية مراراً وتكراراً .

درس الرّازي الكيمياء والخيمياء والطب في بغداد ، وكان طبيباً رئيساً لمشفى هذه المدينة . كتابه الأشهر هو « كتاب الجدري والحصبة » ، الذي منحه مكانة مرموقة في تاريخ علم الأوبئة . فهو رائعة قوامها المعاينة والتحليل العيادي المباشر . ويمكن للمرء الحكم على قيمته من خلال الأربعين طبعة انكليزية

الصادرة ما بين 1498 و 1866 . وهناك تدوينات أخرى بين دراساته الفاردة (مونوغرافيّات) تبحث في « الحصى في المثانة والكليتين » ، وفي النقطة وأمراض المفاصل (الروماتيزم) . كما وضع الرازي نصف دزينة من الكتب الطبية العامة ، ووضع كتباً أخرى أكثر طرافة حول « نجاحات الدجالين والمجربين » الذين ينالون شهرة شعبية لا ينالها الأطباء الماهرون في معظم الأحيان ، كما يقول . وآخر كتبه إثنان ، « المنظوري » وهو مبحث طبي في 10 أجزاء ، و« الحاوي » الذي يتناول كل فروع الطب في 20 جزءاً ، وكلاهما كتابان موسوعيان بحق . ولكنْ لا يوجد اليوم سوى نصف مخطوط « الحاوي » الموزّع ما بين المتحف البريطاني والاسكوريال وميونيخ ولينينغراد (سان بطرسبرج) وبرلين . أما ترجمته اللاتينية من جانب الطبيب اليهودي تراجي بن سليم ، بعنوان « Liber Contineus » ، فقد كانت المرجع الطبي الأكثر احتراماً واستعمالاً خلال عدة قرون ؛ إذ أنه كان واحداً مع تسعة كتب تؤلف كل مكتبة كلية الطب في باريس سنة 1395 .

يتوافق أفضل النقاد على الاعتراف بأنّ الرازي كان قد تخطى جميع الأطباء العرب بوصفه اختبارياً وعيادياً ، وأنه يُعَد في عداد أعظم عظماء كل العصور من حيث مهارته وموهبته ومشاهداته العيادية وتشخيصاته واستنتاجه وغنى دروسه وتعاليمه . وكان الرازي لا يتوانى ، بكل نزاهة ، عن ذكر الحالات التي كانت تخطّىء توقعاته ، والاشارة إلى فشله وتعليل أسبابه ، ويروي كل رواة سيرته أنه أُصيب بالعمى بعد التهاب في عينيه في آخر حياته ، وأنه رفض أن تُجرى له عملية « حتى لا يرى المزيد من عالمٍ كان قد شبع منه » . وشيمة معظم الأطباء العرب الكبار ، تثّقف الرازي في الفلّسفة ، وربما يكون من هذه الناحية ، ثمة عبرة يمكن استخلاصها من النهاية المؤلمة لعملاق الطب هذا .

علي عبّاس

عاش علي عبّاس في القرن التاسع . وضع لأميره كتاب « الملكي » ، وجرى نقله إلى اللاتينية سنة 1127 ؛ وهذا الكتاب في الطب الملكي يلخص كل الطب في مؤلّف واحد . إنه كتاب مرّتب ، مرموق بشكله وبالروحية التي تحكمه ، وهو في آنٍ كتابٌ نظري وعملي . في مقدّمته نقد للأطباء السابقين : نقد

لأبقراط الذي يراه في غاية الإيجاز ، ولغاليان الذي يراه في غاية الانفلاش ؛ ويرى أن الرازي يبالغ في كتابه « الحاوي » ، وأنه شديد الاختصار في كتابه « المنظوري » . ثم يظهر حرصه على عدم الوقوع في الأخطاء ذاتها ، الأمر الذي يدعونا للملاحظة أنَّ علي عباس قد أحسن اختيار الحد الوسط بين الإيجاز والتطويل ، فصنف الأفكار والوقائع في نظام متناسق .

كان علي عباس يحظى بشعبية كبيرة لدى معاصريه ، فكان يفرض على تلاميذه التردُّد المنتظم على المشافي . يقول « على الطالب أن يكون دائم الحضور في المشافي ، وأن يكون شديد التنبّه للشروط والظروف ، وأن يصاحب أمهر الأساتذة ، ويتحرّى باستمرار عن حالة المرضى وما يظهر عليهم من أعراض ، وأن يحفظ في فكره ما قرأ حول تقلب الأحوال ودلالاتها ، إن خيراً وأنْ شراً ، إلخ . . » .

ابنُ سينا

في القرن التاسع تجسدت الثقافة العربية ، إلى حدٍ ما ، في شخص أبي علي الحسين ابن سينا (Avicenne) ، « أمير الطب » . في السابعة عشرة ، كان ابن سينا قد درس الطب بلا معلّم ، وكان ذا شهرة كافية لاستدعائه إلى سرير أمير بخارى ، فعالجه وشفاه . في الحادية والعشرين وضع أول كتاب كبير . هذا ، وقد وضع نحو مئة كتاب ، وفيرة المادة غالباً ، تتناول الفلسفة والطب والفقه وعلم الهندسة وعلم الفلك والقانون وعلم اللغة ، إلخ . كما وضع قصائد ممتازة ، وصلنا منها 15 قصيدة ، انزلقت إحداها في رباعيّات عُمَر الخيَّام ؛ وهناك قصيدة أخرى « هبوط النفس » تشكّل إحدى روائع الشعر العربي المأثور . عرّب إقليدس ، وجمع مشاهداتٍ فلكية وأعمالاً أصلية حول الحركة ، القوّة ، الخلاء ، الحرارة ، النور والأوزان النوعية . فكان كتابه حول المعادن المصدر الرئيس للجيولوجيا الأوروبية حتى القرن الثالث عشر . لقد أبدع في هذا الفرع العلمي وتعدّ مشاهداته حول تكوّن الجبال نموذجاً فريداً من نوعه .

من المتعذّر أن نروي هنا كل المغامرات التي قادت إبن سينا إلى السجن في بعض الأحايين ، والتقلبات التي جعلته ينتقل من أميرٍ إلى آخر ، فهو تارة وزير

أول ، وشاعر تارة ، ورجل أعمال ، إلخ . إذن سنكتفي بتناول أعماله . هناك كتابان عملاقان يتضمّنان كل تعاليمه : « كتاب الشفاء » (شفاء النفس» ، وهو موسوعة في الرياضيات وعلم الطبيعة (الفيزياء) أو ما وراء الطبيعة وعلم الالهيات والاقتصاد السياسي والموسيقى ، تقع في 18 جزءاً . وكتابه الرئيس ، « القانون » ، لا يحتوي ما يقلّ عن مليون كلمة . ويتناول علم الوظائف (الفيزيولوجيا) والصحة والعلاج والأدوية ؛ وفي هذا القسم الأخير من الكتاب يُشير إلى ما لا يقل عن 760 دواء ، وطريقة استعمالها العلاجيّ . فعلى الرغم من كون « القانون » حسن الوضع ، ومن كونه يتضمن مقاطع مميزة ببلاغةٍ حقيقية ، لم يتردد معارضوه المتهكمون في التصريح بأن ولعه المدرسي بالتصنيف والتمييز كان المرض الوحيد الذي لم يُشِرْ المؤلف إلى علاجه .

إن الطابع الموسوعي والمعتقد الجامد ، فضلاً عن شهرة ابن سينا الواسعة ، جعلت من هذا الكتاب المرجع الأكبر لكل ما يتعلّق بفن العلاج . فمنذ ظهوره باللاتينية في القرن الثاني عشر ، أزاح حتى كتاب غاليان عن عرشه . وقد نقل إلى معظم اللغات ، منها 15 طبعة باللاتينية ، وطبعة بالعبرية ، في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر ، وظل في أساس الدراسات الأوروبية طيلة ستمئة سنة ونيّف . لقد كان توراةً طبية حقيقة ، لا تزال بعض أجزائه موضوع نشر حديث بالإنكليزية ، وتُنسب إلى إبن سينا علامات النّجابة والعلم الخارقة حقاً في بعض الحالات غير المتوقعة ، كالأمراض النفسية مثلاً . ومثال ذلك أنّه كان يضع اصبعه على نبضات قلب المريض ، ويواصل الحوار والسجال بشكلٍ متقطع . ففي نظر ابن سينا كانت الاضطرابات والوهن أو السعة في النبض ، وتوقف النبض فجأة ، تشكّل كلها إشاراتٍ لها دلالتها الطبية . فمن خلال دراسة النبض ، كان يشخص الأعراض التي يمكنها أن تسمح له بتحديد مبدإ العلاج . وإن نجابة إبن سينا قادته إلى تخصيص فصل للعشق والحب ؛ ويبدو أنّه كان طيّب المزاج عند كتابة هذا الفصل ، فصنّف هذا الشعور في عداد الأمراض العقليّة ، إلاّ أنه عندما توفي في سن الثامنة والخمسين ، كان قد عالج نفسه ولكن بلا نتيجة ؛ فما كان من مناصبيه العداء إلاّ أن تجاسروا على القول : « لم يستطع علمه الطبيعي انقاذ جسده ، كما عجز علمه الغيبي عن انقاذ روحه » . ولكن

بعد مئة سنة ، اكتشف واضعُ الخطابات الأربعة ، وبالهام مختلف تماماً ، أن في إبن سينا « آيةً من الله للجنس البشري » .

ليس في الإمكان ختم الكلام على ابن سينا دون الإشارة بعدّة كلمات إلى أحد شرّاحه ، ابن النفيس (1210 -1288) .

فهذا الطبيب ، الذي لم يكن قد مارس أبداً الجراحة على الإنسان ولا على الحيوان ، توصل بقوة الاستدلال العقلي ، وباستخدام كتابات غاليان نفسه ، إلى دحض إمكان مرور الدم من خلال حجاب القلب لكي يشكّل مع الهواء « الروح الحيّة » التي يسلّم بوجودها وبنظريتها . ومن طريق الاستنتاج والاستقراء المنطقي ، كان هذا التفسير يقرّر ، بلا ريب ، وجود الدورة الدموية الصغرى .

الأطبــاء

إنّ هذه الأقدار الخارقة تظل مرتبطة بالشعور الأعجوبي الذي يميّز العقليّة الشرقية . فلا بدَّ أن يكون الخلفاء أقوياء أشداء ، وأن تكون الأميراتُ جميلاتٍ بلا مثيلات ، وأن يكون الوزراء في غاية الحكمة وأن يكون الأطباء ماهرين حتى العصمة .

كانت شهرة الأطباء موطدة جداً وكذلك ثروتهم ، عندما يستطيعون الوصول بمهارتهم إلى قلب البلاط . ولكن الحال لم يكن دائماً على هذا المنوال . فلئن كان ابن جبريل ، طبيب هرٰون الرشيد والمأمون والبرامكة ، قد توصل مثلاً في غضون 36 سنة إلى جني ثروة طائلة بلغت مئة مليون درهم ، نحو 36 مليون فرنك ذهب ، فإن بعض الأطباء المُبعدين رغم شهرتهم العلمية ، كإبن جاني ، كانوا يعيشون في فقرٍ مدقع ، ولم يكن يتردد عليهم المرضى حتى في عام كان الطاعون يعيث فساداً في البلاد وفي العباد .

إن الرازي ، الطبيب الكبير ، الذي يتمتع بمرجعية كبيرة والذي أنفق أمواله على المصلحة العامة ، قضى ضحية أخصامٍ حسودين . إلاّ أن أسرة بختيشوع المسيحية ، التي تعود بأصلها إلى جنديسابور ، تمكنت من الحفاظ على سمعتها طيلة عدة أجيال . وكان أحدهم ، جرجس ، قد سأل الخليفة المنصور ، ذات يوم ، أن يأذن له بالعودة إلى مسقط رأسه ، بعدما شفاه من عسر هضمي .

فقال له المنصور : « اتقِ الله ، وأنا أعدك بالجنة » ، وردّ عليه جرجس بكل بساطة « إنه كان يفضل الموت على دين آبائه وأن يكون معهم في الجنة أو في جهنم » . وكما هو الحال في الحكايات العربية ، ضحك له الخليفة وأذنَ له بالسفر ، ليس دون أن ينقده عشرة آلاف قطعة ذهبية .

إلّا أن موقف حنين ، وهو طبيب آخر كبير ، كان أكثر انسانية ، عندما كان الخليفة المأمون قد أكرهه على تحضير سُمٍّ لأحد أعدائه . فبعدما رفض الطبيب طلبه ، أُصيب الخليفة بنوبة غضبٍ شديد ، ورماه في السجن ، ثم كرر طلبه هذا بعد سنة ، مهدّداً إياه هذه المرة بالقتل الفوري ، فأجابه حنين بكل كبرياء : « لستُ ماهراً إلّا في كل ما ينفع وينقذ » . وتروي الخرافة أن الخليفة ما كان يريد سوى اختباره وصار منذ ذلك الحين يثق به ثقةً عمياء .

بوجه عام ، كانت المهنة الطبية موضع تقدير رفيع ، وكان القائمون بها يعدّونها رسالةً يجب أن تُمارس بلا سعي وراء المال . وكان يتعاظم ولعُ الشبان بهذه المهنة الرائعة ويزداد شغفهم بها باستمرار . سنة 931 ، كان هناك 860 طبيباً مأذوناً لهم بمزاولة المهنة في بغداد . وكان ابن عيسى ، الطبيب الوزير ، قد أقام جمعية أطباء كانت تتولى معالجة المرضى في الأرياف القريبة وفي السجون .

في اسبانيا

في القرن العاشر ، كان يسود في قرطبة جو حماس شديد حول العالِم مَسلمة الذي كان تلامذته يتعلمون الرياضيات وعلم الفلك والخيمياء والطب . وقد برز جرّاح كبير هو أبو القاسم الزهراوي (936 1013) ، طبيب عبد الرحمن الثالث ، المعروف في اللاتينية بإسم (Abulcassis) ، فظلّ نجم هذا الفن على امتداد قرون .

كان الجرّاحون العرب متفوّقين جداً على جراحي العصر الوسيط وكان عهم مساعدون على قدرٍ كبير من المهارة اليدوية على صعيد صناعة أدواتهم وآلاتهم . فقد كان أبو القاسم ، وقبل أمبرواز باريه (Ambroise Paré) بستة قرون ، يمارس فن الرباط الاصطناعي وعملية فتح العين لإزالة الإنسداد ، وكان يعرف تماماً مرض پوت Pott . وكان الجراح الفرنسي العالِم إميل فـورغ قد كتب عن

أبي القاسم » كان له الفضل في اختصار كل علوم عصره الجراحيّة ، وسيبقى كتابه « التصريف » ، المزود بمئتي صورة ، أول كتاب في علم الجراحة . . . » . وظلت كتب أبي القاسم تُطبع حتى العام 1861 .

هذا ، ويُنتسب إلى جيل متأخر : إبن بزّان القيرواني وابن وافد الطليطلي والبكري المورقي ، الخبير جداً في خواص الأدوية ؛ وابن عوفة الذي تخطى جميع معاصريه في دراسة المواد الصيدلانية الفعّالة ، والبَصَريّ الكبير إبن الهيثم الذي ألهم باكون وكپلر من خلال كتابه في البصريات ؛ والذي عاش فقيراً ، فكان يؤلف كتباً رياضية ، لكي يعيش ، وكان دخله السنوي 150 ديناراً مغربياً ، والدينار هذا كان دولار عصره .

في القرن الثاني عشر ، أنجبت قرطبة ، ابن رشد ، الأندلسي العربي ، أحد أبرز وجوه الفلسفة ، الذي كان في الوقت ذاته يتعاطى الطب وعلم الفلك . وبما أنه استنتج أنَّ الشخص لا يصاب بالحصبة مرتين ، فمن الممكن أن نقول إن ابن رشد كان أول من كوّن فكرة أساسية عن علم المناعة .

في إشبيلية ، أنجبت أسرة ابن زهر (Avenzoar) ستة أجيال من الأطباء المشاهير . كانوا كلهم يفاخرون بمهنتهم ، وبرز ابن الزهر الثالث (1091 - 1162) كواحدٍ من أهم الأطباء العرب المهارسين ، واكتشف الجَرَب القمليّ . فإليه يعودُ الفضلُ بوضع أول وصف لسرطان المعدة وَإلتهاب التأمور أو الشّغاف (Péricardite) ، وكتابه « التيسير » الذي وضع بناءً لطلب صديقه ابن رشد ، نُقل إلى العبرانية واللاتينية ، وأثّر تأثيراً عميقاً في الطب الأوروبي ، لقد كان إبن زهر متحرراً من التقاليد القديمة ، اليونانية ـ الرومانية أو الفارسية ، فكان يُعَدُّ بحق رائداً للطب الاختباري . وفي عصر ابن رشد ذاته ، ظهر في تاريخ العلوم والطب العربي معاصرُه ، المولود مثله في قرطبة سنة 1135 ، موسى بن ميمون (Moîmonide) الذي يعدّ من أعظم الأدمغة بين أطباء وفلاسفة كل المرحلة الإسلامية في الأندلس . كان أبوه عضواً في المعهد الحاخاميّ في قرطبة ، وقاضياً ، رياضياً ، وفلكياً ، وكان سليل أسرة من علماء التلمود . وهو الذي أرشده والده إلى التوراة ، التلمود ، الرياضيات وعلم الفلك . وقد علّم ابنُ رشد وابنُ طفيل ، موسى بن ميمون ، فلقّناه التاريخ الطبيعي والفلسفة . وكان ابن

ميمون قد مارس الطب على مدى 20 عاماً ، قبل أن يحظى ببعض الشهرة . والفضل ، وزير صلاح الدين ، هو الذي اكتشف مآثره ، فقدّرها ، وسجّله على لائحة أطباء السلطان . فكان أثره عظيماً على صعيد الطبابة ، ليس فقط بين عرب ويهود المشرق والمغرب ، بل أيضاً في صفوف المسيحيين . وقد نُقلت أعماله إلى اللاتينية وجرى تدريسها في جامعتي پادو ومونبلييه ، وامتدحه الشاعر العربي ، القاضي ابن سراج المُلك بهذه الكلمات :

« فنُّ غاليان لا يشفي سوى الجسد ،
أما فنُّ إبن ميمون فيشفي الجسد والروح ،
ولذا جعله العلمُ طبيبَ العصر » .

في الفلسفة ، يُقدَّم ابن ميمون بوصفه بطل الفكر العلمي في مواجهة الأصولية الحاخاميَّة . كما أنَّ ابن ميمون سعى في الكتب التي وضعها إلى التوفيق بين اليهودية والأرسطية الإسلامية ، أو بوجهٍ أعمّ ، سعى إلى التوفيق بين الإيمان والعقل . وفي الطبّ ، أسهم في دراسة الجهاز التنفسي ، ووضع كتباً مرموقة حول علم التسمم . زدْ على ذلك أنه أجاد التدليل على أهمية المبادىء الغذائية ونظام الحمية النباتية ، فكان واحداً من الأوائل في هذا المجال .

من بين العلماء العرب الأندلسيين في العصر الوسيط ، لنذكر أيضاً العالِم النباتي الكبير ، الصيدلاني ابن البيطار من ملاقة (1190 -1248) الذي زار المشرق واليونان بحثاً عن نباتات طبية . يذكر في « كتاب الجاني » أربعمئة نبتة وغذاء ودواء ، وصفها وصنّفها وفقاً لخواصها وخصالها العلاجية ، حتى القرن السادس عشر ، ظلّ ابن البيطار يُعدُّ أعظم عالم نباتي / صيدلاني .

هناك طبيب كبير آخر تميّز في خلال اجتياح الطاعون الأسود لأوروبا ، في منتصف القرن الرابع عشر ، حيث كان المسيحيون يعتبرون هذا الوباء من علائم الغضب الإلهي . والذي وضع كتاباً ، بعد هذه المحنة ، كان الوزير الخطيب ، الطبيب المسلم الغرناطيّ ، فقال بنظرية العدوى التي كانت الشريعة الدينية تنفيها وتنكرها . ولقد جرى استعمال هذا الكتاب الموضوع بطريقة علمية ، في المعنى الذي تعنيه هذه الكلمة اليوم ، كأساس لأطروحة . علم الوقاية

. (Prophylaxie)

مدرسة سالرنة

كانت مدرسة سالرنة الشهيرة في ايطاليا الجنوبية مركزاً للدراسات الطبية على منوال كبريات المدارس العربية المعاصرة ، فقد كان مغاربةُ صقلية قد أنشأوا جامعةً في بالرمة ، وكانت المدينة تتباهى بأطبائها الكبار الذين كانوا يتمتعون بشهرةٍ عالمية واسعة .

ففي القرن الحادي عشر ، كان مديرها الرئيس ، قسطنطين الأفريقي ، التونسي الوصل ، قد غادر إفريقيا بعد أربع سنوات دراسة ، حتى يكرس نفسه كلياً لكي ينقل إلى اللاتينية كتباً طبية ، في سالرنة أولاً ، ثم في الرهبنة البنديكتيّة في مونت كاسّان ، حيث توفي سنة 1087 . وكان قسطنطين الإفريقي قد استخلص من كل العلماء المشاهير كل ما كان من شأنه أن يفيد طبيباً في مزاولة مهنته ، وبذلك يستحقُّ أن يلقّب « مصلح الأدبيات الطبية في الغرب » .

في فرنسا

في المقابل ، كان الطب العربي يتغلغل في فرنسا . فمنذ القرون الوسطى استقبلت مدينة مونبلييه ، الواقعة بروعتها على الدروب المؤدية من إسبانيا إلى ايطاليا ووادي الرون الأثر العربي وتمثّلته بسرعة فائقة . ومنذ بداية القرن الحادي عشر أخذت مونبلييه تحتكّ بالعالم العلمي العربيّ ؛ من جهة إسبانيا ، عبر الأطباء اليهود ؛ ومن جهة إيطاليا ، عبر مدرسة سالرنة التي كانت تتبادل معها الطلاب والأساتذة .

كان سالومون السلارنيّ وناثان بن زكريا يدرّسان في كلية مونبلييه في منتصف القرن الثاني عشر . وفي القرن الثالث عشر ، أسس البابا هونوريوس الثالث جامعة مونبلييه رسمياً ، وسلّطها كمرجعية علمية على كل الديار المسيحية ، لكنّ النفوذ العربي ـ اليهودي تواصل أثره لأمدٍ طويل . ومثاله أن ارمنغو(Armengaud) ، طبيب فيليب لوبيل (Le Bel) ، ترجم « قانون » ابن سينا و« شروحات » إبن رشد ، بعدما تعلّم العربية في مونبلييه ، وفي العصر

نفسه ، تعلم آرنو دي ڤيلنيف في مدرسة سالرنة ، وبرز كلسانيٍّ مميز ، فراح يدرس في باريس ثم في مونبلييه حيث ذاعت شهرته في كل أوروبا . واستدعاه على التوالي ملك آراغون والبابا إليهما . والحقيقة أن الترجمات العربية لم تكن أقلّ أثراً وجدوىً من أثر المدرسة المباشر . وفي مرسيليا ، كان غرون دي پلزانس وأبراهام قد أسهما في ترجمة « كتاب النبات » المنسوب إلى غاليان ، لكنّهما نقلاهُ عن العربية ؛ وفي وقت لاحق ، قام سيمون الجنويّ ، شمّاس روان ، بترجمة كتاب عن الأدوية البسيطة. وأخيراً ، عندما أنشأ الملك هنري الثالث ، سنة 1577 ، كرسياً للعربية في المعهد الملكي ، كانت غاية ذلك ، أولاً ، تشجيع تقدم الفن الطبي في فرنسا . وكانت أوروبا النهضة قد انكبّت على دراسة الأطباء العرب ، أكثر بكثير من دراسة أبقراط وغاليان .

الفصل الثامن عشر

الفلسفة

مبدئياً ، ظلّ القرآن الكريم في القرون الهجرية الأولى مصدر إلهامٍ لكل العاقلة الإسلامية . فهو يمتلك بذاته الأفكار والأحاسيس الضرورية لتغذية أرفع تأملات الفكر . ويمثّل العلماءُ أي أولئك الذين يفسرونه ، العلمَ والنشاطَ الفكري القويم .

إلاّ أنّ ريح انعتاق وانطلاق بدأت تهبُّ على الشرقِ في مجرى القرن الثاني ، قبل غزو الفكر اليوناني للإسلام بكثيرٍ . وكانت مجادلاتُ النصارى حول صفات الله وطبيعة المسيح ، وحول القدر والاختيار ، الوحي والعقل ، والتصوّرات الزرداشتية واليهودية لغايات الإنسان الأخيرة . والتأمل الهندي ، تسهم كلها في الإعداد لظهور أشكالٍ جديدة من الفكر الفلسفي أو الديني . ومع الفكر اليوناني ، المترجمِ بوفرة ، المنشور والمشروح ، ظهر عالمٌ جديد مفعم بالإغراء والغواية لدرجة أنّ الناس كانوا يجادلون في كل شيء بلا إكراه ومعوقات ، وبلا كتابات مقدسة ومعجزات . لقد صار ممكناً الإنغماس في لعبة المنطق الجديدة ، إذْ أنّ المسلم ذا العقلية الانتقادية ، على غرار الأثيني الفتى ، كان قد بدأ يتذوق نكهة الفلسفة . ومع ذلك لم يكن في وارده القطع مع القرآن ، طالما أن فقهاء الشرع كانوا عيوناً ساهرة ، فكانت اللعبة تدور على هامش العقيدة القويمة ، ولكنها كانت شديدة الارتباط بالاستلهام الديني من « الكتاب » . وقد حاول البعضُ التحرر من ذلك ، إلاّ أن من المبالغة القول إنهم كانوا مستقلّين . فبوجهٍ عام كان المجهود منصبّاً على التوفيق بين الفكر اليوناني والدين الإسلامي . وعلى مدى ثلاثة قرون ، ظهر عدد من كبار الفلاسفة الذين يناصبون العداء للعقل والفكر

والنقد الفكري . وبعد كثير من الشكوك واليقينيات ، ومن الحكمة والحماقات ، ظلّ راسخاً في الأذهان أنّ الإسلام قد تمكّن من التوفيق بين التوحيد ، وهو الإسهامُ الرئيسُ للعالم السامي القديم ، والفلسفة اليونانية بوصفها المساهمة الأساسية للعالم الهندي / الأوروبي العريق . وربّما لا تكون هذه المساهمةُ مأثرةً قليلةً من مآثر الفكر العربي / الإسلامي .

المعتزلة

تمثّل أول تعبير للفلسفة في تطور مذهب « منشقين » هم المعتزلة الذين كانوا يقولون بضرورة التأويل المجازي للقرآن والأحاديث عندما يكون هناك تناقض بين النص والعقل . صحيح أن العقل البشري كان يمكنه التوافق مع الدين ، شرط تصوّر قوة روحية بوصفها أساساً لكل حقيقة ، ولكن كان من الممتنع عقلياً الذهاب إلى أبعد من ذلك . وبعد طرح هذا المبدإ ، راح المعتزلة ينكرون أزليّة القرآن ، معلنين أنّ الإنسان لا يمكنه أن يعرف طبيعة الله وصفاته الحقيقية ، وأنّ القدر محتوم على صعيد الأخلاق والمبادرة البشريّة .

شاعت العقيدة المعتزلية وانتشرت في أواخر القرن الثامن ومطلع القرن التاسع ، في عهدي المنصور وهرون الرشيد . انحاز المأمونُ ، إبنُ هرون ، إلى المعتزلة وأعلنها عقيدة رسمية . وصار يتعين على المسلمين ، منذ ذلك الحين ، التسليم بخلق القرآن في الزمان ، والاعتقاد بحرية الاختيار وامتناع تصور الله من الوجهة التجسيمية . ولقد ثار الفقيه إبن حنبل ، الذي كان قد أنشأ مدرسة فقهية محافظة ومتشددة ؛ وكانت ثورته تستند إلى العقيدة السنيّة القويمة . جرى جلدُه حتى سال دمه ، وأودع في السجن . ورأت فيه العامةُ شهيداً ، وراح ردُّ الفعل يتهيأ .

الكندي

كانت الفلسفة المعتزلية قد أنجبت رجلها الأول الكبير ، أبا يوسف يعقوب ابن الكندي ، الذي وُلد في الكوفة سنة 805 ، والذي سبق أن تحدّثنا عنه في علم الطبيعة . وحين تبنى الكندي شعارَ أفلاطون الشهيرَ المتعلق بالفلسفة : « لا يجوز لأحد أن يدخل هذا المكان ما لم يكن عالماً هندسياً » ، إنما كان قد درس كل العلوم ؛ وقد نُسب إليه ما لا يقلّ عن 265 كتاباً . كان يعدّ الرياضيات

الفيثاغورية الجديدة بمثابة الركيزة لكل علم حقيقي ، لدرجة أنه بذل قصاراه لتحويل الموسيقى والطب والصحة إلى علاقات ومعادلات رياضية . لقد كان الكندي محظياً جداً لدى الخليفتين المأمون والمعتصم بصفته مترجماً وعالماً معاً . فإليه يعود الفضلُ في ترجمة « إلهيّات » أرسطو . فقد كان شديد التأثر بهذا الكتاب المزوّر ، فراح يجتهد وينكبّ على التوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون ، على غرار الأفلاطونيين الجدد ، كما فعل الكثيرون بعد ذلك . كانت فلسفةُ الكندي نسخة جديدة عن فلسفة أفلوطين (Plotin) الأفلاطونية الجديدة ، الذي يقول بوجود ثلاثة أطوار للإرتقاء نحو روح الله ؛ نفس العالم أو العقل المبدع ، ونفس الإنسان الفائضة عن نفس الكون ؛ وإذا شغل الإنسان نفسهُ في المعرفة الحق ، فإنه يستطيع كسب الحرية والخلود . إلّا أن الكندي فقد حياته وهو يجري وراء الخلود والأبدية ؛ وعندما قامت الثورة على المعتزلة ، جرى وضعه في السجن . وصُودرت مكتبته ، فلم يبق شيء يذكر من المئتين وخمسة وستين كتاباً التي كان قد وضعها .

عندما يرتكز النظام الاجتماعي على معتقدٍ ما ، فإن كل نقدٍ لهذا المعتقد يُعَدُّ بمثابة تهديد للمجتمع ذاته . والواقع أنّ الكثيرين ، بعد بداية ذلك التنكيل ، كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لرفع رؤوسهم : الشعوبيون الفرس ، الشيوعيون المزدكيون ، اليونانيون ، اليهود والنصارى ، أي كل أولئك الذين كان الفتح العربي قد ضيق عليهم لحين من الدهر . لقد وضع القرآنُ موضع هزء وسخرية . فلم يكن في إمكان الدين القويم إلّا أن يردّ بعنف . ما بين 847 و851 ، ألغى الخليفة المتوكل إجراءات المأمون الليبرالية ، وطرد الموظفين المعتزلة ، واضطهد المذهب الشيعي ، ودمّر مقام الحسين الشهير الذي كان يجتذب ، كل عام ، إلى كربلاء عشرات الألوف من المسلمين .

بالنسبة إلى اليهود والنصارى ، أُعيد العمل مجدداً بـ« وصية عُمَر » ، بعدما كانت قد وُضعت على الرّف . وبوجهٍ عام ، عندما تنتصر الحركة الدينية المتشددة ، يتناقص التسامح . وبالتالي ، أُعيد تذكير غير المسلمين أنّ من الواجب عليهم ارتداء علامات صفراء فوق ملابسهم ، وأنه لا يحق لهم أن يمتطوا الحصان ، لكنهم يستطيعون ركوب بغل أو حمار ، وأنهم لا يستطيعون إقامة

كنائس أو معابد يهودية جديدة ، بل يمكنهم فقط ترميم القديم منها . هذا ، ولا يجوز الغلوّ في النظر إلى ردة الفعل الطبيعية هذه للدفاع عن السنّة والدين الحنيف ؛ ففي صميم الإسلام بالذات ، كما في معظم الديانات ، كانت المذاهب المختلفة تتعامل مع بعضها بشدّة وقسوة أكبر من العداء الذي كانت تكنّه تجاه الكافرين . وقد تعينّ على المتوكّل ، وهو يطبّق هذه السياسة الصارمة ، أن يستند إلى العامّة التي ظلّت في مجملها مخلصة لمعتقداتها القديمة ، وأن يعتمد على الحرس التركي الذين كانوا حديثي الدخول في الإسلام ، مما جعل حماسهم قوياً . زدْ على ذلك أن الترك كانوا ، بالوراثة ، معادين للفرس ، وكانوا يجهلون الفكر اليوناني تماماً . وهكذا انقاد الخليفة شيئاً فشيئاً نحو فقدان امتيازاته السياسية التي انتقلت تدريجياً إلى يدي قائد الحرس التركي ، أمير الأمراء .

الأشعــري

بعدما تأكدّت الرجعةُ من انتصارها ، تقبلت في وقتٍ لاحق معركة الأفكار ، فراح مناطقتُها ، المتكلمون ، يحاولون في مطلع القرن العاشر التوفيق بين العقيدة والفلسفة اليونانية . وهذه المحاولات استأنفها ابنُ ميمون في القرن الثاني عشر ، في اسبانيا المسلمة ، لصالح اليهودية ، واسترجعها القديس توما الأكويني لصالح المسيحية . فقد وجد المناطقة / المتكلمون حليفاً غير متوقع في شخص الأشعري (873 -935) ، المعتزلي السابق ، العائد إلى السنّة . فراح يحارب المعتزلة بسلاحهم الذاتي ، ويكافح النظريات التي كان يعلمها بالأمس ، وأخذ يدافع بشدة عن عقيدة القَدَر وضمن انتصار العقائد السنية .

لم يكن جميع المؤمنين يؤيدون معركة المتكلمين تلك ، التي لم تكن من صلب السنّة الإسلامية القويمة ؛ فكانوا يتذمرون من رؤية الدين خاضعاً للمجادلات الفكرية ، فما كان من المتكلمين إلاّ أن اضطروا لوقف المعركة . ومن الآن فصاعداً ، أخذ المؤمنُ يكتفي بصيغة « بلا كيف » المناسبة ، أي « الإيمان بلا سؤال » ، التي ظلت تتردد أصداؤها في اسبانيا المسلمة . ومنذ بضعة أعوام فقط ، فوجىء ملحدٌ قديمٌ وهو يزور ضواحي اشبيلية راكعاً على ركبتيه أمام عذراء مقدسة ، وشفتاه ترتجفان كما لو كانتا تتكلمان ، وعيناه غارقتان في الدمع . وزعم أنه يشرح موقفه حين اكتفى بالقول : « أنا لا أؤمن ، لكنني أُصلّي » .

الفارابي

كانت الفلسفة قد لاذت بحلب حيث كان يعيشُ بشظفٍ ، محمد أبو نصر الفارابي ، المولود في تركستان . كان الفارابي قد درس المنطق في بغداد وحرّان على أساتذة نصارى . زهد في أمور الدنيا ، فاعتنق مذهبَ الصوفيين ، مما أدى إلى التنديد به كهرطوقي (زنديق) . وكان قد انخدع ، مثل الكندي ، بـ « إلٰهيات أرسطو » ؛ وختم حياته بالعودة ، كالأشعري ، إلى الدين الحنيف . فلئن كان قد أعلن في شبابه أنّ العقل البشري لا يمكنه بلوغ المُطلق ، فإن ذلك لم يمنعه ، في سن الرشد ، من وصف الألوهة وصفاً مسهباً ، ومن استرجاع براهين أرسطو على وجود الخالق ، تقريباً على غرار القديس توما الأكويني الذي تعيّن عليه بعد ثلاثة قرون أن يتسلح بالبراهين ذاتها . وأخيراً كان مثل أرسطو يؤمن بأن الخلود ممتنع وغير معقول . توفي الفارابي سنة 950 في دمشق . من بين الكتب التسعة والثلاثين التي تركها لنا ، يختصر « تصنيف العلوم » كل معرفة عصره . وتشكّل « المدينة الفاضلة » وصفاً لقانون الطبيعة المنظور إليه كصراعٍ دائم يخوضه كل جسم عضوي ضد كل الأجسام الأخرى . هكذا ، خرج المُجتمعُ من شريعة الغابة ، كما يرى البعض ، عن طريق عقد بين الأفراد الذين تقبّلوا الخضوع لأحكام العرف والقانون ؛ ويرى البعض الآخر أن المجتمع خرج من شريعة الغابة بواسطة هزم الضعفاء الذين صاروا عبيداً وأدواتٍ بين أيدي الأشدّاء والأقوياء . يبيّن هذا القانون أن الدول ذاتها هي أجسام عضوية متنافسة وأن القوّة هي الحكَم الوحيد في تصارعها . وخلص الفارابي إلى القول بمبدإ الملكية القائمة على عقيدة دينية قوية ، فعارض القوة والتغالب ، ونادى بأخلاقية زهد ومحبة وتسالم .

إخوان الصفاء [1]

بيد أن الولع بمناقشة المسائل الفلسفية لم يكن غائباً عن مجالس بغداد . فبعد مرور 20 عاماً على وفاة الفارابي ، قام أحد تلاميذه بتأسيس جمعية علماء . في الأصل كانت هذه الجماعة لا تكترث بانتماء أفرادها الديني ، فبدت وكأنها مهتمّة فقط بمنطق العلوم وبنقدها .

---

(1) تعد الدار طبعة كاملة لـ« رسائل إخوان الصفاء » في خمسة مجلدات مع دراسة مستفيضة للدكتور عارف تامر .

سنة 983انتظمت في البصرة أخوية مماثلة ، لكنّها كانت تتمسك بأهداب السرية حتى لا تتعرّض للخطر ؛ فكانت أهم من الجمعية الأولى وأحرزت نتائج أفضل ؛ كان اسمها جمعية « إخوان الصفاء » . كانت تضمّ علماء وفلاسفة ، لا يهتمون فقط بعلامات وَهَن الخلافة ، بل بفساد الأخلاق وإفقار الشعب أيضاً . كان إخوانُ الصفاء يسعون إلى تجديد السياسة والأخلاق ، من خلال التوليف بين الشرائع الإسلامية والتشيع والتصوف ، وبين الأخلاقية المسيحية والفلسفة اليونانية . وكانوا يعتبرون أنّ الحقيقة تتولد من تلاقي العقول أكثر مما تولد من أفكارٍ منعزلة ؛ فكانوا يناقشون كل المسائل الأساسية بكل حريّة . لقد لخّصوا المنظومة الناجمة عن تعاونهم في إحدى وخمسين رسالة ، تعكس إرادةً مصمّمة على نشر تعاليم وفقاً لبرنامج دقيق ورصين .

نجد في هذه الرسائل تفسيراتٍ علمية متعلقة بمعظم الظواهر الطبيعية . علمهم الإلهي « عرفاني » وأفلاطوني جديد : فمنَ العلة الأولى ، أي من الخالق ، ينبثق العقل الفعّال الذي منه يفيضُ عالمُ الأجسام والنفوس ! وإن إجتماع النفس بالعقل الفعّال أو اتحادهما ، يستلزم صفاءً مطلقاً ؛ ويوفّر العلم والفلسفة والدين وسائل بلوغ هذا الصفاء . أخيراً ، بفضل المعرفة يدرك العقل نفسه بأنه حر في تأويل مجازي ورمزي « لعبارات القرآن الغليظة التي كانت متناسبة مع أفهام الكافرين أو الجاهلين في الصحراء » . كانت هذه الرسائلُ الواسعة الانتشار ، تمثّل الفكر الإسلامي الحقّ في عصر العباسيين . وقامت السنّة البغدادية باحراقها سنة 1150 بحجة أنها هرطوقية . لكنّها كانت قد أثّرت في فلسفة العصر تأثيراً حقيقياً .

إبنُ سينا

أتينا على ذكر ابن سينا بوصفه الإسم الأبرز بين كل الأعلام الذين وردوا في الحوليّات الطبية العربية . إلاّ أن ابن سينا لم يكتفِ بأن يكون « أميرَ الطب » ، والحال فإنّه يُعَدُّ بحقٍّ ذروة الفلسفة العربية في المشرق ، إذ كان مولعاً بالمنطق ، شغوفاً دائماً بالتعريفات الدقيقة والتصانيف والتمايزات ، التي تطبع بطابعها كتابه « القانون » . كان إبنُ سينا يكنُّ احتراماً كبيراً لأعمال أرسطو الفلسفية ، فقام

بتحليلها وتفكيكها عبر « كتاب الشفاء » واختصره في « كتاب النجاة » .

عن السؤال الشهير : هل الكليات موجودة خارج الأغراض الفردية ؟ أجاب إجابةً مأثورةً ، وأعلن أنها كانت موجودةً « من قبلُ في عقل الله ؛ وبالقوة (في الأشياء) التي كانت تتجلّى من خلالها ؛ وبالفعل (بعد الأشياء) مجرَّدةً في عقل الإنسان ؛ لكنَّ الكليّات في العالم الطبيعي لا يمكن وجودها خارج الأشياء الفريدة » .

بعد قرن من السجال ، أعطى آبيلار والقديس توما الأكويني الجواب نفسه . فلا أحد يمكنه الإنكار أن ابن سَينا كان رائداً كبيراً بكل معنى الكلمة . وليست ميتافيزيقيا إبن سينا سوى ملخص لما قدمه اللاتينيون ، بعد قرنين ، باسم الفلسفة المدرسيّة (السكولاستيكيّة) . إننا نكتشف فيها جوهر عقيدة الفارابي وأرسطو : العَرَض والواجب ، الكثرة والواحد . ولتفسير مسألة الكثرة العارضة والمتبدّلة ، القائمة في الواحد الواجب والثابت ، قدّم إبنُ سينا أطروحة عقل فعّال وسيط ، هو النفس . كما اقترح العالمُ الفيلسوفُ ، للتوفيق بين مبدإ الثبات الإلهي والانتقال من اللاخلق إلى الخلق - الذي كان أرسطو قد حلّه باستخدامه مفهوم أزليَّة العالم المادي - ، إجراء تسوية لن تصدم مناطقة السنّة : إن الله سابق للعالم ، ليس في الزمان ، بل سابق له عقلياً بوصفه جوهراً ، واجب الوجود وعلّةً أولى . ففي رأي ابن سينا ، جميع الموجودات ، ما عدا الله ، عارضة ، ممكنة ، تستلزمُ لوجودها علّة ليست محتومة ولا واجبة . والحال ، لا يمكنُ تفسيرها إلاّ بالرجوع إلى كائن ضروري ، الوحيد الموجود جوهراً ؛ فمن جوهره الوجود ، إذْ بلا علّة أولى ، ليس في إمكان أي شيء مما هو موجود أن يبدأ بالوجود . وبما أنَّ كل مادة حادثة ، فليس من الممكن أن يكون الله مادياً . الحقيقة أن هذا البرهان على وجود العلة الأولى بجوهرها ، الذي يقدّمه ابن سينا ، ليس سوى تكرار للبرهان الوجودي الشهير على وجود الله الذي أورده القديس أمبرواز (-397 340) قبل ابن سينا بعدّة قرون . « إنَّ وجود الجوهر الذي يفيض عنه الوجود إنما يوجد إذا كان له جوهر ، والحال فإنَّ الله هو وجود الجوهر الذي ينبق عنه الوجود ، والله له جوهر ، إذن الله موجود » .

إن العقل الأرفع يرى كل شيء ، الماضي / الحاضر / المستقبل ، ليس في

الزّمن ، بل يراه فوراً ، لأنَّ فكره أزلي / أبدي . لكنَّ الله ليس العلّة المباشرة للأفعال ، فالأفعال تحمل في ذاتها أهدافها وغاياتها الأخيرة . وبالتالي ليس الله مسؤولاً عن الشّر ، الذي هو ثمن الحرية والذي ربما يكون مُلكاً للجميع .

بالعقل وحده وفّق ابن سينا بين الدين الشعبي والفلسفة . فالنبيّ ضروري لكي يقدم للعامة شرائع الأخلاق في أمثالٍ معقولة وفعالة . فهو إذْ يرسي على هذا النحو أسس التطور الاجتماعي والأخلاقي ، إنما يتصرّف حقاً كرسول الله . ويمكن للفيلسوف أن يشك في خلود الجسد ، لكنّه يعترف بأن محمداً ، مثلاً ، إنْ كان قد بشّر فقط بسماء روحية ، لما كان قد لاقى قبولاً ، ولما كان في الإمكان جمع العرب في أمّةٍ واحدة ، منضبطة وقويّة . عملياً ، تخطّى ابن سينا مناوئيه ، بوضوح أسلوبه وحيويته ، وبقدرته على توطيد الفكر المجرد وتنويره بفضل حكايات وطرائف خيالية موضوعة بأسلوب رائع ، وكذلك من خلال سعة معرفته العلمية والفلسفية المذهلة . كان تأثيره كبيراً ، هائلاً في العالم الإسلامي وفي البلدان المسيحية ، وكان القديس توما الأكويني يتحدَّث عنه باحترام مماثل لحديثه عن أفلاطون . حتى أن رينان كان قد كتب أنَّ ألبير الأكبر يدين لإبن سينا بكل شيء . كما أن لا أحد يمكنه الإنكار بأن كتابي ابن سيناء الشفاء والقانون ، شكّلا ذروة الفكر الوسيط ، وانهما يشكلاّن إحدى أعظم محاولات التوليف في تاريخ الحضارات .

الـصوفية

وُلد الإسلام في بيئة واقعية ، لم تكن صوفية في جوهرها ؛ لكنها لا تستطيع رغم الصرامة في تأويل القرآن ، الانفلات من شباك ثورة روحية .

لم يكن الناس الأتقياء يتقبلون التسويات والمساومات ، فكانوا يحتجون على البذخ وانحلال الأخلاق والآداب . كان أولئك المثاليون ينادون بالابتعاد عن الأمور الدنيوية ، ويقولون بالترفع إلى المشيئة ، وبالزهد والتقوى حتى الاتحاد بالله . لا ريب أن تلك الحركة كانت قد تطورت وتنامت متأثرةً بالفلاسفة الهنادكة وبالتقاليد الأفلاطونية الجديدة ، وربما أيضاً من خلال الاحتكاك بالرهبنات المسيحية . وقد سُمّيت صوفية نسبةً إلى ثوب الصوف ، « الصوفي » ، الذي كان

يرتديه النُّساك الأوائل .

حتى القرن العاشر ، كان الصوفيون يتميزون فقط ببساطة عيشهم وتقواهم . فكانوا يجتمعون حول مَثَلٍ صالح لكي يصلّوا معاً ويتهادحوا . كان بعضم يعيش عيشة المتوحدين الزاهدين . وشيئاً فشيئاً ، صار الأولياء ، غيرُ المعروفين في بداية الإسلام ، كثيرين في صفوف الصوفيين ، بقدر ما كان الخيالُ الشعبي وكلما كان ينسبُ إليهم قدرات عجائبية خارقة . تروى عنهم روايات عن قيام بأعمالٍ مدهشة على صعيد الرؤيا والتخاطر . وقام الغزّالي بتوطيد مكانة الصوفية في صميم السنّة الإسلامية ، فراح المؤمنون يبحثون عن الخلاص من خلال الوجد والإشراق والأعمال الخيرة في آن . إلاّ أن السنّة كانت تعرف كيف تطرح بعض العقائد وتصفها بأنها هرطقة كان بعض المسلمين يتلبسونها لكي يبتعدوا عن الشريعة الإسلامية أو لكي يستروا نزعاتٍ ثورية . ففي التشيع مثلاً ، كان مذهب الإسماعيليين يجتذب إليه المعترضين بشكلٍ خاص . وتحول بسهولة بالغة إلى جماعةٍ سرية ، تضمُّ شخصياتٍ إدارية ومثقفين ، وتوفد الرسل المكلفين بنشر العقيدة . ومع الوقت ، صارت الشيعة قوة مهمة ، اجتاحت افريقيا الشمالية وانشأت السلالة الفاطمية .

سنة 874 ، صار قرمط ، وهو فلّاح عراقي ناشط جداً ، زعيماً للمذهب وأقام جمهورية اشتراكية وعلمانية على ساحل الجزيرة العربية ، في الجنوب الغربي للخليج . فبعد ما دفع أتباعه خمس أملاكهم وعائداتهم لبيت المال (الخزينة العامة) ، أعلنوا المساواة الشاملة ، وشيوعية الأموال والنساء ، وألغوا العبادات والشعائر ، كالصوم والحج ، وأوّلوا القرآن تأويلاً رمزياً حراً . لكنهم لم يكتفوا بذلك . إذ بعدما أنشأوا دولة مستقلة على الساحل الغربي للخليج ، جمع قرمط وأعوانه قوة أخرى ونهبوا سورية بعدما غلبوا جيش الخليفة سنة 900 ، واستولوا على البصرة والكوفة ، ثم استولوا على مكة سنة 929 بقيادة زعيمهم أبي طاهر . جرى تقتيل 30 ألف مسلم ، ونهب بيت المال وكسوة الكعبة والحجر الأسود ، وشيئاً فشيئاً راحت الدولة القرمطية تنكسر من جرّاء جرائمها وتجاوزاتها ، فلم يعد في إمكانها أن تقاوم ثورة مواطنيها الذين تمكنوا في نهاية الأمر من إعادة الأمن واسترار الملكية .

الـغزّالي

كانت السنّة القديمة تكافح بكل قواها ضد فتن شتى المذاهب وانشقاقها : ضد المتألهين الذين كانوا يؤمنون بالله وبالخلود ، لكنهم كانوا ينكرون الخلق والقيامة ، وضد الربانيين الذين كانوا يعترفون بربٍ لكنهم كانوا ينفون الخلود ؛ وأخيراً ضد الماديين الذين كانوا يرفضون فكرة الله .

إلاّ أنَّ متكلماً شاباً في بغداد ، هو أبو حامد الغزالي ، كان يجتذب المثقفين إلى محاضراته في جامعة النظامية المحافظة . فكانوا يتوافدون إليه من كل أرجاء الإسلام ليستمعوا إلى جدله الكلامي وبيانه .

لقد وُلد الغزالي في طوس (خراسان) سنة 1058 ، وفقد أباه في سن مبكّرة فرعاه صوفيٌّ وأرسله إلى نيسابور لكي يدرس القانون وعلم الكلام والفلسفة . وهناك أحرز نجاحاً كبيراً . وبعد عدة سنوات من النجاح أُصيب بداءٍ غريب ، أدّى إلى شلل أعضائه وتبديل كلامه . وحين أحس أنَّ عقله قد ذهب ، مضى لاستشارة طبيب ، فعاينه الطبيب واكتشف مرضاً عقلياً ، لكنه لم يعرف العلة الحقيقية للمرض . في وقتٍ لاحق ، اعترف الغزالي أنه مرّ في أزمة روحية شديدة كانت قد جعلته يعيد النظر في كل أصول المعرفة ؛ فبعد ما يئس من قدرة العقل على شمول تلك الأصول المعرفية ، أُصيب الفيلسوف بحزنٍ عميق كان السبب الحقيقي لمرضه . تخلى الغزالي عن كل شيء ، ترك كرسي التعليم والألقاب والتزم العزلة والوحدة . وقضى 11 عاماً في الزهد والتنسك ، ممارساً العقيدة الصوفية ، باحثاً في العالم الداخلي عن سندٍ لم يجده في العلم . ثم راح يكتب عقيدته . فبعدما تمعّن في نظرية الحواس والإحساس وانتقدها ، خلص إلى القول إن المذهب الماديّ يستند إلى أخطاء وأضاليل . وضرب مثلاً على ذلك حاسة النظر التي تظهر النجوم صغيرةً بينما هي في الحقيقة كبيرة جداً ، وهذا يعود إلى النظر إليها من بعيد . وبعدما جمع عدداً من الأمثلة الأخرى على أخطاء الحواس ، توصل الغزالي إلى القول بأن الإحساس لا يمكنه أن يكون بذاته دليلاً على الحقيقة . لكن القول القائم على الحسّ يحتاج إلى إيجاد دليل أرفع ومرشد أكبر . فاكتشف الغزالي مرشده غيبياً ، في تأمل الصوفي ، مصدر الحقيقة الأقرب إل الفؤاد من الفلسفة . عندئذٍ وضع كتابه

« تهافت الفلاسفة » مبيّناً أن العقل يقود الإنسان إلى الريب ، والمجتمع إلى الضلال ، والحضارة إلى موتٍ أكيد . ولما بلغ هذه الذروة من حياته الروحية ، خرج الغزالي من عزلته وعاود التدريس في نيسابور. وراح يدافع ، بكل قوة شبابه ، عن سنّته المتجددة التي طورها في واحدٍ من أشهر مؤلفاته ، « إحياء علوم الدين » هذا ، وقد سعى في هذا العرض الكامل للصوفية ، إلى تجنّب مبالغات المذهب الإشراقي ووفّق بين العقيدة والدين . فالعلمُ في نظره ليس مهنةً ولا حرفة زمنية ، بل هو بخلاف ذلك « أثر إلهي في القلب ، صلاة داخلية ، وسيلة يملكها الوعي الإنساني للتقرّب من الله » .

يمكن اعتبار الغزالي أكبر مصلح للعقيدة ، فهو مفكر أصيل ، وأشهر متكلم في الإسلام. فلم يسبق أبداً أن واجه الريبيون والفلاسفة خصماً صارماً وشرساً كالغزالي . إلّا أنّ السنة في المغرب كانت قد أدانت كتابه ، وجرى إحراق نسخة منه ، علناً ، أمام باب جامع قرطبة الكبير . فوصف بأنه محاولة رخيصة مبرقعة بالزهد ، ترمي إلى نيل المكاسب والألقاب الدنيوية . وعلى الرغم من ردة الفعل هذه ، كان اللاهوتيون والمتكلمون من كل الأديان يعتمدون على كتابه ، إجمالاً ، ومن بينهم النصارى أنفسهم . وتواصل تأثيره على مدى زمن معين . وبعد وفاته بعدة سنوات ، الواقعة سنة 1111 ، ساد الصمت على الفكر النقدي ، ولم تتجاسر الفلسفة على رفع رأسها ، رغم محاولة ابن رشد واسمه الكبير .

إبن رشد

بيد أنّ أمراء اسبانيا المسلمين كانوا شديدي الولع بالتأملات والنظريات الفلسفية ، فكانوا يتعاطونها في السر . إذ كانوا بالطبع يعتبرونها مضرّة للعامة ، فكان لا بد للفلاسفة من التزامهم السرية والحيطة في كتاباتهم . كان ابنُ رشد ممثلهم الأكبر وآخرهم زمنياً . فقد حظي بمكانة مرموقة في بلاط الموحدين سنة 1153 تقريباً ، بعد لقاءين تاريخيين رتبهما إبنُ طفيل طبيبُ الخليفة أبي يعقوب يوسف ، وكاتبُه ووزيره . ولحسن الطالع لم تلعب الغيرة المألوفة بين أبناء المهنة الواحدة دورها في العلاقة بين ابن طفيل وابن رشد ، الطبيب مثله ، والفيلسوف صنوه .

أبو بكر ابن طفيل هو في الواقع واضع رواية فلسفية من أجمل روايات العصر الوسيط وأكثرها أصالة : « حيّ بن يقظان » . وفيها يؤلف في القرن الثاني عشر المغربي بين الفلسفة والصوفية . نُقلت هذه الرواية إلى اللاتينية 1671 ، وإلى معظم اللغات الأوروبية سنة 1672 ، لا سيما إلى الإنكليزية ، واستلهم منها دانيال دي فوي شخصيّة روبنسون كروزويه . ثم نُقلت إلى الروسية سنة 1920 ، وإلى الإسبانية سنة 1934 .

تدور الرواية حول ولد متروك في جزيرة ، فقد ذويه ، فتولت رعايته غزالة . وكبر الولد في الطبيعة ، مغتذياً بلبنها ، متنعّماً بحنانها ، لاعباً مع صغار الحيوان ، مرّوضاً لها ؛ إلّا أنّ أمه ، الغزالة ، ماتت . وبما أنه لم يصدق وقوع ذلك الموت ، شقّ صدرها ، بحثاً عن روحها ، أصل الحياة ؛ فلم يجدها . عندئذٍ راح ينظر ، يتأمل ويختبر ، فشق حيواناً حيّاً ، ثم شقّ حيواناً آخر ، بحثاً عن هذه النفس الخفيّة . وبعد ذلك بسبعة قرون كا ن الجراح تروسّو يقول : « سأؤمن بوجود النفس عندما سأجدها عى طرف مبضعي » . إلا أن بطل ابن طفيل ، الذي كان في آنٍ فيزيولوجياً ، بسيكولوجياً وميتافيزيقياً ، ارتقى لحسن الطالع إلى اكتناه العالم الأرفع ووجد على درجاتٍ ما كان يسعى وراءه ، اندماج النفس في جُرْم العالم الكبير .

عندئذٍ كان صوفي يبحث عن الوحدة والعزلة في الجزيرة ، فراح يعلّمه الكلام ويدعوه إلى نشر الفضائل العليا التي كان قد تمكّن من اكتشافها بنفسه . وراح حيٌّ والصوفيُّ يعلمانها للجهلة ، ولاحظا أن الحقيقة الخالصة من السهل ادراكها وأن الوصول إلى العقول الغليظة يستلزم إلباس الحقيقة لباس الأساطير والمعجزات والطقوس ، وباختصار يستوجب إلباسها كل الرموز التي تشكّلُ شعائر الأديان المنزلة بالذات . ثم اعتذرا من الناس الذين لا يستطيعون فهمها ، وأوصيا مستمعيهم بأن يتقيّدوا تماماً بدين آبائهم وأن يظلوا بعيدين عن الأفكار الجديدة . ثم قفلا عائدين إلى جزيرتها المقفرة ليعيشا فيها الحياة العليا التي يعجز الكثير من الناس عن الاستمتاع بمثلها ، لأنها من نصيب النفوس العظيمة .

كان ابن رشد قد وُلد سنة 1126 في قرطبة حيث كان جده وأبوه قاضيين . وكان هو نفسه قاضي إشبيلية وقرطبة . استدعاه أبو يعقوب يوسف إلى مراكش ،

بصفته الطبيب الأول لبلاط الموحدين سنة 1182 . وكان ذلك البلاط يحمي الفلاسفة ويرعاهم شرط أن تكون كتبهم غير مباحة للعامة ؛ ولكن يبدو أن بعضها كان مفهوماً ، بدليل أن أبا يعقوب يوسف ضحى بالفلاسفة حين ذهب إلى الحرب ، وذلك لكي يعطي ضمانات للفقهاء . فناله من ذلك بعض الضّرر ، وأبعد مؤقتاً عن البلاط ، ثم أعيد إليه ، ولكنه اضطهد مجدداً سنة 1194 ارضاءً للعامة الثائرة عليه وعلى هرطقاته . ثم أُعفي عنه وأُعيد سنة 1198 ، وتوفي في ذلك العام ، يوم العاشر من كانون الأول / ديسمبر في مراكش . من المعلوم أنه كان طبيباً كبيراً ، لكنه كان فيلسوفاً أكبر . وكان أبو يعقوب يوسف الذي اندهش من علمه حين قابله للمرّة الأولى ، كلّفه بوضع شرح لأرسطو . ولم يسبق لأحدٍ من قبل أن فهم أرسطو وشرحه مثلما فعل ابن رشد الذي كان يرى في الواقع أن كل الفلسفة تبدأ من أرسطو وإليه تعود ، وأنّ المطلوب كان تفسيره فقط . فلخّص كلّاً من كتب الفيلسوف اليوناني ، ثم شرحه شرحاً موجزاً وشرحاً مسهباً . إنها رسائل فلسفية حقيقية على طريقة ابن رشد ، تمتاز بتحليل حصيف ونافذ لدرجة أن الغرب بأسره ظلّ يعتبر ابن رشد بمثابة الشارح الأكبر .

إلى جانب كتبه عن أرسطو ، وضع ابن رشد رسائل في علم النفس وما وراء الطبيعة والإلهيات والنمطق والقانون . عارض الغزّالي ، وأعلن ابن رشد حرية الفيلسوف في البحث عن الحق والحقيقة مع التسليم بضرورة الكتب المنزلة لأولئك الذين لا يستطيعون الإيمان إلّا بأفكار سطحية ، فلا يمكنهم إدراك العلل الأولى . أما بخصوص العقول الأكثر تطوراً ، فإن الفيلسوف يرى أن العقيدة الدينية المفسّرة رمزياً يمكنها الإنسجام مع مكتشفات العلم والفلسفة . بماذا يمكن الرد على ابن رشد وهو يعلن ما يلي : « الحركة أبدية ودائمة » ؛ لكل حركةٍ علّتها في حركة سابقة . ولا زمن بلا حركة أو حراك . لا يمكننا تصور الحركة بوصفها ذات بداية ونهاية » . إن الخلق أسطورة ، إلّا أنّ العالم خلق إلهي متواصل ، فالله هو نظام الكون وقوّته وروحه .

يتكوّن العقل الإنساني (روحه) من عنصرين : العقل السلبي الذي هو جزء لا يتجزأ من الجسد والذي يموت بموته ؛ والعقل الفعّال ، وهو فيض إلهي ، لا مثيل له ، فهو وحده الخالد . انطلاقاً من هذا التعريف ، قارن ابنُ رشد فعل

العقل بفعل الشمس التي تضيء الأشياء لكنها تظل واحدة دائماً وأبداً ، وفي كل مكان . عملياً ، ليس للعالم أي وجود إلّا من خلال العقل الذي يكتنهه . أما الفردوس فيرى أنه الحكمة الهادئة ، السعيدة التي ينعم بها الحكيم بعقله . وهذا ما وصل أرسطو إليه من قبل .

لقد اضطرب عقل العلماء والمتبحّرين المسيحيين في العصر الوسيط من جراء فكر ابن رشد ، أكثر مما اضطربوا من جراء أي مفكرٍ آخر . ففي المقام الأول ، استثار الفيلسوف ردّات فعل المسلمين ، ثم ردات الفعل اليهودية ، وأخيراً ردات الفعل المسيحية . مع ذلك كان مفكراً حراً ، فوُصف بالكفر والهرطقة ، لكونه عقلاً منطقياً يعلن حق إخضاع كل شيء للإستدلال العقلي وللعقل النّاقد ، باستثناء العقائد المنزلة ، فبينما كان الفلاسفة بوجهٍ عام يوفّقون بين مذاهب أرسطو وضرورات الفقه واللاهوت ، كان ابنُ رشد يحصر العقائد في أدنى حدٍ من توافقها مع أرسطو . ومهما يكن الأمر ، فقد سارع المسلمون إلى تنفيذ أمر الخليفة المنصور القاضي بإحراق كتبه الفلسفية ، وأسدلوا عليه ستار النسيان . إلا أن اليهود احتفظوا بمؤلفاته بالعبرانية ، ولعبت شروحاته دورها لدى المسيحيين في زعزعة عقيدتهم زعزعة خطيرة ؛ فوضع توما الأكويني كتاب « La Somme » لمحاربة روحيتها ، ولكنه لم يستطع رغم ذلك إلّا أن يسير على خطى ابن رشد في تأويلات وشروحات جمّة . في نهاية المطاف ، حكمت السلطات الكنسيّة على الرشدية بالكفر ، إلا أن جامعة باريس أوصت بدرسها ، فكان تأثيرها حاسماً وفاعلاً في كل تطور الفكر الأوروبي حتى حلول العلم الاختباري .

بعد ابن رشد بقليل ، قام ابن ميمون ، اللاهوتي والفلكي ، بمحاولة توفيقية بين اليهودية والأرسطية الإسلاميّة . في كتابه الفلسفي الرئيس ، دليل الحائرين ، لا يتردد إبنُ ميمون في السعي لتفسير رؤى الأنبياء مشبّهاً إياها بتجارب نفسية . فما كان من اللاهوتيين اليهود إلا أن وصفوا كتابه بأنه كتابٌ سيء ولكن الأفكار الفلسفية التي كان قد طورها على نحوٍ طريف ومباين لطرق ابن رشد ظلّت متشابهة كثيراً مع مذاهب هذا الأخير .

باختصار ، من البين أنّ فلاسفة الإسلام المغربي حين ردّوا على حاجة العقل واستجابوا لتطور عقلاني ، إنما كانوا يرمون إلى التوفيق بين العقل

والإيمان ، بين العلم والدين . وهم بهذه الصفة يشكلون آخر حلقة في السلسلة التي تناقلتها الفلسفة اليونانية من المشرق العربي إلى الغرب اللاتيني .

تراجمة طليطلة

إن الجهد الرائع الذي بذله مترجمو الكتب اليونانية ، شرقاً ، في القرن التاسع ، تجدّد في اسبانيا ولكن لحساب اللاتينية ، هذه المرّة ، وكان موضوعها العلم العربي .

لقد بادر ريمون ، مطرانُ طليطلة ، إلى ترجمة كتاب ابن سينا في النفس ، إلى اللاتينية . ومعه ، صارت طليطلة في القرن الثاني عشر ملقى العقول الغربية الكبرى : ادهيمار دي باث (Adhémar de Bath) ، هرمان الدلمطي ، روبر دي رتين ، كانوا كلهم متعطشين للمعرفة وكانوا قد جاؤوها بحثاً في اسبانيا المسلمة عما كان مفقوداً لديهم . وأعطى المثل ألفونس العاشر ، ملك قشتالة العالِم ، إذْ ازدرى التاج الملكي ، وأحاط نفسه بعلماء من كل مذهبٍ ومشرب .

لا ريب أن معهد المترجمين المشهور في طليطلة لم يصل إلى المستوى الذي بلغه معهد بغداد . ولكننا إذا تركنا جانباً ترجمات الخيميائيين ، فإننا نجد ما لا يقلّ عن ثلاثمئة مخطوطة مترجمة ، ثلثها يدور حول مسائل الطب . وكان جيرار دي كرمون قد ترجم وحده 71 كتاباً في العلوم التي كانت تشكّل آنذاك موسوعة حقيقية للمعارف الإنسانية التي أفادت منها عقول علمية قادرة على فهمها وإدراك مكنوناتها ، مثل ميشال سكوت ، روجيه باكون ، ألبيرالكبير ، القديس توما الإكويني ، ڤانسان دي بوڤي (Vincent de Beauvais) . والحقيقة أن جيرار دي كريمون ، بما قدَّم من نصوص عربية منوعة ومتداولة في العالم العلمي ، يمكن اعتباره واحداً من أعظم منشطي العلم الغربي في العصر الوسيط .

إن القرون الخمسة التي اختصرناها ستعدّ من أعظم القرون وأشهرها في تاريخ الفكر الإنساني . فيمكن القول إنها جمعت في اللغة العربية ثروات توثيقيّة أهم من كل ما ضمّت كل اللغات الأخرى مجتمعةً ، سواء على صعيد العلم أم على صعيد الطب أو الفلسفة .

هكذا كان التيار الثقافي الكبير ، المولود في مصر وكلدة وآشور ، في فينيقيا وفلسطين ، والذي كان يتلاقى مع اليونان ، قد عاد في صورة هلنستية موحّدة إلى المشرق حيث كان العربُ قد قاموا بجمعه . فأضافوا إليه المصادر المستوحاة من الهند عبر بلاد فارس ، وأغنوه كثيراً بمساهمتهم الأصلية / الطريفة ونقلوه عبر إفريقيا إلى اسبانيا حيث ازداد نماءً وتطوراً . فمن طليطلة ، « مدينة الإيمان المثلّث » ، انتشر التيار الكبير وعمَّ في مراكز الفكر العربي في جنوب فرنسا ، وطاول رهبانية كلوني Abbaye de Cluny ، ومن خلالها وصل إلى لوتارنجيا وجرمانيا وانكلترا وكل أوروبا الغربية .

هكذا كان الشعب العربي قد أعطى للتقدم البشري أعظم مساهمة في العصر الوسيط .

الباب الرابع

الانحـــلال

الفصل التاسع عشر

في الأندلس

بلاط إشبيلية

بقدر ما يتطور تاريخ الحضارة العربية ، يغدو من الضروري النظر في السمات التي تميز أصالتها . ومما يلفت النظر بشكلٍ أكيد هو هذا الطابع المزدوج لحضارةٍ راقية وبدائية ، لينة وشرسة معاً .

ويندهش الغربي حين يصادف في هذه القصور والبلاطات المترفة ، نموذجاً من الملوك والعظماء الذين كانوا يعرفون كيف يحيطون أنفسهم بفلاسفة وعلماء ، فكانوا يظهرون في آنٍ شعراء رقيقين ونماذج للقسوة الفظيعة .

لقد كانت الأمور تجري كلها وكأن النَّفْسَ الشرقية كانت مصنوعةً من أفضل الأشياء وأرذلها ؛ قادرة على الشجاعة الرائعة والمجازر الدامية ، كما كان يبدو في بعض الأحيان البدوي العاقل ، المستعد لتقبّل الموت الذي يصيبه بكل طيبة خاطر ، والغريزة التي تدفعها إلى القتل الذي لا يشرّف والاغتيال الذي لا عذر له .

فهذه الغريزة الوراثية ، المتأصلة عبر الأجيال ، تتجسّد في بغداد كما في اشبيلية ، في عصر هرون الرشيد كما في عصر المنصور ، في زمن الفتح كما في زمن الانحلال أو الانحطاط . إنّ هذه العقدة التي لا يمكن تفسيرها والتي يتميّز بها إنسانُ الصحراء ، أناخت بكل ثقلها على قدره ومصيره .

وإن الغربي لا يعذره على هذا المزيج من الرقة والغلاظة التي لن تتوانى ، من جهة أخرى ، عن إثارة فضول الكاتب ونقد الفيلسوف . ولربما تكون قصة حياة المعتمد ، في الفترة التي كان يقرع فيها جرس التراجع العربي ، ويدق ناقوسُ الاسترداد الاسباني والمسيحي ، ملأى بالدروس والعِبر .

ففي الوقت الذي كانت فيه اشبيلية تعلن استقلالها عن قرطبة سنة 1023 ، كانت اسبانيا المسلمة مفككة وموزّعة على 23 مدينة / دويلة . وكان الكثيرون يفضّلون إشبيلية لفتنتها ، ولروعة شعرائها الملهمين ، وحدائقها وورودها . وسحرها المستعد دائماً للتحوّل إلى رقصات وأغنيات . فالشعراء كانوا يقيمون بينهم مباريات حقيقية . ويروي إبن خلدون أن لجنةً فاحصة كانت تشرف على تلك المباريات وتقلدّهم الجوائز السنيّة ، ومثال ذلك الشاعر الأعمى الطليطلي الذي كان يتغنى بالحب وبحبيبته ، منشداً ما معناه :

« عتندما تبسمُ تلوحُ اللآلي ؛
ويضيقُ العالم عن احتوائها ؛
وهي مع ذلك مقيمة في فؤادي » .

آنذاك ، كان أبو المحمود قاضي إشبيلية الأكبر ؛ وبما أنه كان قد التقى بالمصادفة سلآلاً ، يشبه هشام الثالث ، المخلوع عن عرشه ، فقد خطر له أن يعينّ السلّال خليفةً ، ثم استولى ، بذاته ، على السلطة . ثم خلفه ابنه العبّاد بن المعتمد ، فحكم إشبيلية بليونةٍ أكثر مما حكمها بقسوة ، وعندما اكتفى من إشباع ذاته ، راح يزرع الأزهار في جمجمة أعدائه . إن هذه الفكرة الجنونية (الباروكيّة) تسلط الضوء على طبيعة الإنسان وتظهر الوجه التناقضي لسلوكه . وعند وفاة هذا السلطان الدموي سنة 1042 ، ورث مملكتَه ولدُه المعتمد (1016 - 1091) . كان عمره ست وعشرون سنة ، وكان شاعراً ، حتى أنه صار أكبر شاعر في اسبانيا المسلمة . فمنذ سني مراهقته ، كان المعتمد يفضل مجتمع الفنانين ورجالات الأدب على مجتمع السياسيين ؛ وفوق ذلك كان شديد الولع بالآداب والفنون والعلوم ، شديد السخاء على أهل الأدب والفن ، فكان يعرف كيف يكافىء بلا أنانية ، أفضل منافسيه ، عندما كانوا ينازعونه قَصَبَ النبوغ . وكان المعتمد قد عرف بحكمةٍ كيف يحتفظ بوزير أبيه ، إبن زيدون (1033 - 1073) . ويجدر بنا

أن نذكر حكاية ابن زيدون هذا وقصة غرامياته كشاعر ، لأنها تقدم مثالاً على ما كتبناه في بداية هذا الفصل .

فبعدما أدى سقوط أعيان البلاط وبني الأحمر إلى سقوط الخلفاء الأمويين ، راحت تتشكل بؤر مكائد ودسائس في كل مكان تقريباً وحتى في صالونات النخبة أو الخاصّة . وكان لدى الأميرة الأمويّة ولاّدة مجلس أدبي تتردد عليه العقول النيّرة . وبما أن ولاّدة اشتهرت بأصالتها وطرافتها ، فإنها كانت ، على غرار معظم حسناوات بلاط هرون ، توشّي ملابسها وتطرزها بالشعر . وكان في الإمكان أنْ يُقرأ على كتفٍ : « أنا قادرة على أعظم الأمور وإني أُتابع طريقي بكل افتخار » ، وعلى كتفٍ أخرى : « اترك لحبيبي غمّازات خدّي ، وأُقبّل مَنْ يحب » . وعلى الرغم من ابتكاراتها الشعرية ، كان البعض يراها طاهرة ، والبعض الآخر يعتبرها أميرة الغنج والدلال التي انقادت وراء حب عشرين فتىً . ولا تخفي الحكاية مدى صراحتها ، إذ أنها لم تكن تتردد في رواية غرامياتها بحريّة كبيرة جداً .

لا يبدو مفيداً الدخول في هذه المساجلة الألفية تقريباً ، لأن المجتمع الإسلامي الراقي لا يبدو أنه قد تأثر بها ، أو أنه شعر بنوعٍ من الفضيحة من جرّاء تصرفات ولاّدة الفاضحة . ومما يروى أن ابن زيدون تولّع بها ذات يوم . وبما أن الوزير كان يجيد التعاطي في شؤون الحب والمدح بشكلٍ رائع ، فإنه نال موعداً منها ، ضربته له شعراً ، ثم كانت مواعيد أخرى وكانت مناسباتٍ لمبادلات شعرية جديدة . وكانت الأمور تجري على أكمل وجه ، إلى أن هام وزير غني ، إبن عبدوس ، بالحسناء ولاّدة . وكان ابن زيدون الحسود يجيد أيضاً فن الهجاء ، فتهكم على الوزير ، الذي جاوبه برسالة سريّة وسجن الشاعر بتهمة سوء الأدب ، بينما كانت الحسناءُ الخائنة تتسلل إلى حريم غاويها الأخير . ومن سجنه ، طلب الوزيرُ ـ الشاعر من السماء المشعّة بالنجوم أن يصبح أعمى : « قل لي أما زالت على العهد ؟ وردّ الليل : لا ، لقد خانت » .

« أيها الغيم المسافر ليلاً مع الضياء . . . إلخ» .

إلا أن هذه المقاطع الشعرية لا يمكن أن تُقارن بالأشعار التي ألفّها المعتمد

نفسه والتي تُعد من عيون الأعمال الأدبية العربية المأثورة .

إن لقاء المعتمد مع جارية شابة ، فنّانة وشاعرة ، تُدعى روماي كيجا ، هو الذي حسم الأمر بالنسبة إلى عمله الأدبي . فقد انفتن بكلامها وموهبتها ، وتولّع بها وتزوجها . وعندها ظلت أشبيلية في حالة أعياد متواصلة ! فلم تأبه المدينة بالغد ، واستسلمت للملذات الفكرية والفنية ، مثل بغداد في أزهى أيامها ، وكان المعتمد قد انسحر أيضاً بفتنة شعر عمّار ورؤاه ، فغمره بعطفه واتخذه وزيراً محظياً .

وعبر المعتمد بأشعاره (راجع ديوانه) عما كان يخالج نفسه . وكذلك فعل عمّار . ولكن التقدير الكبير الذي كان يكنّه المعتمد لعمّار ، بسبب موهبته الكبيرة ، المشبعة بالأحاسيس الهائجة وبالمشاعر الغريبة ، سرعان ما تحول إلى عاطفة عميقة وحسودة . وكان عمّار قد عيّن عاملاً على منطقة سلفا ، فلم يطق المعتمد غياب صديقه الحميم ، فاستدعاه إليه .

لقد كانت المرحلة دقيقة ؛ فقد اغتنم ألفونس السادس ، ملك قشتالة المسيحي ، فرصة تفكك اسبانيا المسلمة ، وقرر الاستيلاء على قرطبة واشبيلية اللتين كانتا عاجزتين عن مقاومته . ولما أرسل عمار إليه ، استطاع بمهارة كبيرة أن يجعله يعدل عن مشاريعه ، وتمكّن بمبلغ من المال أن ينقذ المدينتين . وشجع هذا النجاح المعتمد على تكليف عمّار بمهمة أصعب ، هي مهمة السيطرة على مورسي (Murcie) . وصادف الحظ الوزير فنجح في مهمته العسكرية وحقق رغبات خليفته . ولكنه أصيب بالصلف بعد انتصاراته ، فقطع علاقاته بالمعتمد ، وأعلن نفسه ملكاً مستقلاً بدوره . ولما هزم عمّار عسكرياً ، قُيّد بالسلاسل واقتيد إلى المعتمد .

بعد عدّة أيام هدأ غضب المعتمد ، فسعى الشاعر / الأسير لكي ينال حظوته من خلال مناجاته واسترحامه شعراً ، لأنه كان يرمي إلى تجنب العقاب الأعظم ، عقاب الموت الذي ينتظر كل خائن متمرد ؛ فراح عمار يعدّد للملك كم أحبّه وكم تفانى في سبيله ، ودعاه في بيتٍ من الشعر الرقيق إلى الارتفاع فوق القدر ، سيّد الموت نفسه : « سيكون حبي له دواء شافياً ، لو كان قهر الموت

ممكنا » . وكان هذا البيت من الشعر قد أثار انتقادات أهل الأدب والنظّامين ، لكن المعتمد ، القاضي الممتاز ، كان يحب الشعر ويحب الشاعر بلا شك ، فما كان منه إلّا أن دافع عن عمار : « الله أعطاه جزالة العقل » ، وهذا يعني أن العفو كان قريباً . إلّا أن كذبة جديدة من أكاذيب عمّار عجّلت في القضاء عليه . فقد أصيب المعتمد بنوبة غضب شديد فقتله بنفسه وهشّمه بضربات فأس . ثم بعدما أمر برفع أشلاء جسده ، راح المعتمد يصلي فوق بقايا ذلك الذي كن قد أحبّه كثيراً ، ودفنها في القصر المبارك .

في كل عام كانت بعثة مسيحية تأتي إلى إشبيلية لتحصيل الجزية التي كان المعتمد قد وافق على دفعها لألفونس السادس مقابل السلام . وفي العام 1079 ، عندما وصلت البعثة ، كان المعتمد في حالة حرب مع عبدالله ملك غرناطة البربري ، الذي يدفع بدوره الجزية للملك قشتالة . وهكذا دخل قائد الاسبانيين في مناخ حربي ، فقرر أن يبادر إلى المساهمة ، مع فرقته ، في الدفاع عن أرض إشبيلية ، معتبراً أن مالكها كان مولى للملك قشتالة ، لأنه كان يدفع له الجزية . ولكن في المعسكر المناوىء ، كان هناك قشتاليون بأعدادٍ وفيرة ، نتيجةً لسياسة ألفونس السادس التي كانت تكبح مطامح المعتمد وتوازن بين القوى الإسلامية المتخاصمة . والحال ، فإن فرساناً مسيحيين كانوا في مواجهة بعضهم البعض ، في كل من المعسكرين الإسلاميين ، في أثناء المعركة التي دارت رحاها في كابرة ، وكانت هزيمة لغرناطة . ولما انتهت المعركة ، قامت البعثة بنقل أموال الجزية ، وذهبت إلى بورغوس بقيادة قائدها الذي لم يكن سوى السيد كامبيادور (Le Cid Campéador) .

لم تحتفل إشبيلية بعيد انتصارها . فقد كان الفقهاء يشكون من هجر المساجد ، واتهموا روميا كيجا بفتور زوجها تجاه الدين . كان الفريقُ الإسلامي الورع يراقب أقل أعمال الملك وحركاته هو وزوجته . وكان المعتمد وزوجته مضطرين لبذل كل ما بوسعهما لخلق جوٍ مناسب ، فراح المعتمد يؤدّي واجباته كمسلم مستقيم ، وراحت زوجته ترعى المؤسسات الخيرية .

إلّا أنّ خبراً مفاجئاً ، سنة 1085 ، أدهشن المدن / الدويلات في اسبانيا المسلمة . لقد استولى ألفونس السادس على طليطلة . وفهم المعتمد أن دوره لن يتأخر كثيراً ، وأن المدن الإسلامية حتى لو استجمعت قواها ، لن تتمكن من مقاومة ملك قشتالة وليون ، بطل الاسترداد الاسباني والمدافع عن النفوذ المسيحي . استعان أمراء اسبانيا العرب بملك المرابطين يوسف بن تاشفين الذي كان ، في الجانب الآخر من البحر المتوسط ، يسود على كل البلاد الممتدة من بوجي إلى سوس ، ومن تفلالت إلى السودان .

تجديداً لتقاليد الجهاد ، عبر المضيقَ يوسفُ ورجاله الصحراويون المقنعون ، كأنهم رهبان جنود حقيقيون ، وضم إليه صفوفه العساكر الأندلسية في ملاقة وغرناطة وإشبيلية ، والتقى القوى المسيحية في زلّاقة أو ساغراپاس بالقرب من باداجوز ، يوم 23 تشرين الأول / أكتوبر 1086 . كان ألفونس قد أبلغ يوسف « ان يوم الجمعة هو يوم عطلة عندكم ، ويوم الأحد عطلة عندنا ، فلنبدء المعارك يوم السبت » ، فوافق يوسف على ذلك ؛ إلا أن ألفونس هجم يوم الجمعة ، فحارب يوسف والمعتمد بضراوة وبسالة . كانت المعركة كارثة على المسيحيين ، نجا منها ألفونس مع 500 رجل بأعجوبة . وإظهاراً للكرم الإسلامي ، أدهش الفارسُ البربري الكبير العالم بأسره ، حين عاد إلى افريقيا بلا غنائم .

تخوّف ألفونس من قيام العرب بهجومٍ جديد ، فراح يهتم بكل جدية بتجميع جيشٍ كبير ، ضم إليه كل نبلاء قشتالة . وكان المعتمد قلقاً ، فقرر عندئذٍ استدعاء يوسف للقضاء بشكلٍ حاسم ونهائي على التنين المسيحي . فلبّى يوسف الدعوة بسرعة . ولما عجز عن إخضاع المسيحيين ، ادعى لنفسه السيادة على اسبانيا المسلمة واتخذ إجراءاتٍ وتدابير استقطبت حوله العامة وأهل الدين القويم ، لكنها أقلقت الأمراء . عندئذٍ تحالف هؤلاء مع ألفونس ضده. فما كان من يوسف إلّا أن حاصر قرطبة التي كان يتولى الدفاع عنها المأمون ابن المعتمد ؛ فسلم الأهالي مدينتهم واستسلم ابنُ الملك الشاعر . ثم سقطت اشبيلية وأُسر المعتمد وأُرسل إلى طنجة .

عملياً في نهاية 1091 ، كان يوسف قد استولى على كل جنوب اسبانيا ، وامتدت هيمنته حتى بلاد الباليار (Baléares) حيث ولاته يحكمون .

سرعان ما تكيف الصحراويون المقنعون وعاشوا في مناخ الحضارة الأيبريّة . لكنهم في المقابل كانوا ينقلون الثقافة الأندلسية ويزرعونها في المغرب . ولمراقبة الجبال على أفضل وجه ، أقام البربري الكبير عاصمته في مراكش ، كموع متقدم . وحين توفي ، كانت وصيته الأخيرة ، المفعمة بالحكمة العميقة ، توصي ولده بالتنبّه لأقل اضطراب . فهل كان يرى بحدسه أنّ الفرق العسكرية المنتشرة في الجبال كان يمكنها أن تطيح بمملكته ؟ كان خلفاؤه واثقين من مؤخّراتهم المباشرة ، فلم يتنبّهوا لها . فعادوا إلى اسبانيا وأحرزوا فيها ثانيةً الانتصار على المسيحيين في أوقل (Ucles) (أو الولايات السبع) حيث قُتل دون سانشو سنة 1108 .

نهاية المعتمد

كان دون سانشو في الخامسة عشرة عندما قُتل ، وكان الابن الوحيد لألفونس السادس ولمريم زيدون ، الأميرة المسلمة . وساد الاعتقاد لزمنٍ طويل أنّ هذه الأميرة هي ابنة المعتمد التي قدمها للملك المسيحي كضمان لتحالفه معه ضد يوسف . والحقيقة أبسط من ذلك بكثير ، فهي لم تكن ابنته ، بل كانت كنتّه . فعندما قُتل زوجها ، المأمون ، وهو يدافع عن قرطبة في مواجهة الموحّدين ، هربت مريم زيدون عبر جبال السييراموريناا ، إلى مجال نفوذ ألفونس السادس ، وصارت زوجته غير الشرعية . وهكذا كانت الأميرة الإشبيلية قد فرّت إلى أرض الكفار ، ومعها أولادها الذين كانت قد أنجبتهم من المأمون . هناك وثيقة مغربية تشهد على ذلك وتنتقدها . « هذا ما وقع فعلاً لكنّة المعتمد بن عبّاد وللأولاد الذين كانوا عندها آنذاك . ليحفظنا الله من شرّ الأعداء وفسادهم ! » . لكن أحفاد المعتمد وأمهم ارتدوا عن الدين الإسلامي واعتنقوا المسيحية .

إلاّ أنّ المعتمد المسكين ، كان يرسف في أغلاله في طنجة . هناك روايات محفوظة تروي أنه ظلّ على حاله وعهده . فقد وجه إليه شاعر محلي عدة أشعار يمتدحه فيها ، طالباً منه إكرامية ، فأرسل إليه الملك المخلوع كل ما كان يملك في سجنه (35 دوقة) معتذراً عن ضآلة المبلغ . ولما نُقل إلى أوغمات ، سُرّ من رسالة

تلقاها من ابنته بُثينة التي كانت أخبارها منقطعة . وإليكم ترجمة لرسالتها الموجهة إلى أبيها ، فهي مهمّة على غير صعيد (راجع ديوان المعتمد بن عباد) :

« لا تنسوا أنني سجنت ، أنا ابنة ملك من بني عبّاد . . .
أسرني رجلٌ دون أن يقيم أي وزنٍ لما يفعل ؛
وباعني كما تُباع الجارية ؛ فأخذني آخر
وحرمني من كل شيء إلّا من الأحزان .
أراد تزويجي لواحدٍ من أبنائه ، طاهر القلب ،
رفيع الأخلاق كسليل رجل شريف .
هذا الفتى مضى إليك . وأنت سترى ما هو الأنسب .
ربما تستطيع يا أبي أن تعلمني
إذا كان ممن يمكن اعتبارهم جديرين بعطفي ،
الروميا كيجيا ، أم الأمراء ، تدعو لكم من كل قلبها
بالازدهار والسعادة » .

المؤسف أن بثينة لم تكتب سوى هذه الرسالة الشعرية التي وصلت إلينا (ونقلها هنري بريز إلى الفرنسية) . إن هذه الفتاة الرقيقة ، الشديدة الاحترام لوالدها ، والبالغة النضج ، كانت أميرة شاعرة ، تملك الوزن والنبرة ، الفكرة البليغة والكلمة المناسبة . إلّا أن المعتمد الذي عاش عدة سنوات إضافية في أوغمات ، مكبلاً بالسلاسل والقيود ، مهملاً منسياً ، ظل يكتب الشعر حتى آخر أيامه التي انتهت سنة 1095 . كان يستوحي شعره من تقلبات أيامه وأحواله قدره ، فكتب :

« نحن الذين كنا نعتقد أنْ سيف الشباب لا يِصدأ أبداً
وكنا ننتظرُ آبار السّراب وورود الرمل ،
سنفهم لغز العالم
وسنرتدي الحكمة مع الثّوب الغباري » .

فيا له من شخصٍ غريب عرف بالأناقة ذاتها كيف يرتدي في آن رداء الحكمة والرداء المذهّب ، وكيف يتفلسف ويفلسف تعاساته بلطافة متناهية ، ويقتل بالفأس وبلا جزع ، الصديق الحبيب الذي كان قد خانه .

الفصل العشرون

انحلال الامبراطورية

الأسبـابُ

كان اتساع الامبراطورية بالذات السبب الأول لتفككها وانحلالها . صحيح أنَّ الخلفاء كانوا في أيام الفتح الزاهرة ، قد عرفوا كيف يفرضون سلطانهم حتى على قادة المسيرات البعيدة . إلاّ أنَّ الحدود كانت متمادية في البعد لدرجة أنَّه كان يلزم ثمانية عشر شهراً للذهاب من أقصاها إلى أقصاها ، من سمرقند إلى سرغوسة . وكان لا بد من ترك استقلالية لولاة الأمصار البعيدة عن العاصمة ، الأمر الذي أدّى حتماً إلى تفكك الامبراطورية وتجزئتها . كيف كان يمكن للأمر أن يكون مختلفاً ؟ لم يكن هناك سلطة ممركزة كفاية وقوية جداً للحفاظ على تماسك تجمّع من الأمصار والقبائل ، بالغ التنوع والإمتداد .

من جهة ثانية ، كانت التجاوزات بكل أنواعها ، لا سيما حياة الحريم التي كانت تستنفد بسرعة قوة العقل وقوة الجسد معاً ، قد أدت إلى انحلال السلالات التي لم تعد تنجب سوى أمراء معتوهين ومعاقين ، أكثر ميلاً لحياة المسرّات والبذخ منهم إلى القيام بأعباء الحكم . وكان التسرّي اللامحدود يزيد من عدد الأدعياء الذين صارت مكانتهم مشبوهة من جرّاء انعدام قانون وراثة ثابت . ففي كل آن ، كانت انقلابات بلاطيّة لا تعدُّ ولا تحصى ، تطيح بالسلطان وتُقيم مكانه سلطاناً آخر ؛ فلم يعد هناك تواصل عملي وإداري في جهاز الامبراطورية العملاق . كما أنَّ الإنحلال الأخلاقي كان قد أصاب الأمة أيضاً . فازدياد الثروات وما ينجم عنها من يسارٍ وبذخ وكسل ، ومن تَسرٍّ وبغاء ، ومن إفراطٍ في الرقص والغناء ، وفي الموسيقى والشراب ، كان لهما أثرهما البالغ على صعيد

الطبقة الحاكمة . كان دمُ الفاتحين قد تميَّع وتموه في دم المغزوِّين . لقد كانت ديناميكية العرب وخصالهم وخصائص رجولتهم في حالة انحلال .

فوق ذلك ، كان الاتحاد القائم على وحدة اللغة والعقيدة ، يميل إلى الانحلال ؛ فحين استذكرت شتى الشعوب استقلالها المفقود وتناقضاتها وحقدها على السلطة المركزية ، كان لا مفرّ لها من التسمم والتعادي والانجرار إلى المعارك الداخلية . ومثال ذلك أنَّ الفرس ، الأوفياء لذكرى مجدهم الغابر ، لم يعودوا راغبين في الولاء للنظام الجديد . وكانت سورية تنتظر دائماً القائد الوطني الذي يمكنه تخليصها من ربقة العباسيين ، وكان البربر قد احتفظوا بشعور قبلي عميق الجذور ؛ ولدى العرب أنفسهم ظلّ قائماً شعور انقسامي قديم بين عرب الشمال وعرب الجنوب . حتى أنَّ العقيدة الدينية التي كانت قد صنعت الوحدة في الأمس ، راحت تترنح تحت ضربات الهرطقات والزندقات . حتى أن الخلافة لم تنجُ من انقسامات أهل السنة (اليمين) وأهل الشيعة (اليسار) . فالشيعة كانوا يؤيدون قضيّة « العلويين » ضحايا العباسيين . وكانت أهميتهم ودورهم السياسي كبيرين دائماً على مر الأزمان ؛ وكان المذهب الشيعي الإسماعيلي قد ذهب إلى حد إقامة خلافة شرعية وحرّة ، خلافة الفاطميين في مصر ، بينما كان المذهب الشيعي الزيدي وراء قيام الإمارة البويهية شرق الفرات . كذلك ، كان لا بد من أن يحسب حساب القرمطيّة ، المعتزلة ، الصوفيّة ومذاهب أخرى كثيرة ، فلسفية أو دينيَّة . والواقع أنَّ كل تلك الحركات أدَّت إلى تفاقم الانقسامات السياسية والجغرافية ؛ فتراءى الإسلامُ عاجزاً عن جمع المؤمنين في جماعة متماسكة ومتناغمة .

وعلى منوال الانقسامات المذهبية والعقيدية ، راحت العوامل الاقتصادية تضغط بكل أثقالها على التفكك الاجتماعي والأخلاقي . وعلى التوالي ، صار المشرقُ جنّة عدنٍ أو صحراء ، حسبما يكون مروياً أو غير مروي . لكنما إعداد قنوات الري كان يستلزم تنظيماً ورعايةً متواصلة ، لا يمكن لغير الدولة توفيرها . ولما صارت الأعمال سيئة التصور ، سيئة الإدارة وسيئة التنفيذ ، اقتربت المجاعةُ وتفاقم الفيضان والأمراض المُعدية . هناك أربعون داءً وبيلاً حلَّ في بلاد الإسلام على مدى القرون الأربعة الأولى ، وقضى على الكثير من سكانها . إلّا أن تلك

الأوبئة لم تصب النظام الضريبي الذي كان يتفاقم باضطراد مع تفاقم خطورة الأحوال ؛ فكان كل مليكٍ يجرّد رعيته من أملاكها ومحاصيلها بلا خجل . كانت تلك التجاوزات عرفاً يومياً ، وصارت قانوناً مع الأيام . فلم يعد ثمة شيء يشجع الإنتاج ، وبدأت تنهار الزراعة والصناعة ، وكان كل ذلك يلحق الضرر بالخزينة ، التي سرعان ما وجدت نفسها عاجزةً عن تمويل صناديق الدولة .

عندما لا يعود الاقتصادُ قادراً على تحمُّل الحكم ، ينحل الحكم ويتعيّش من البقايا ، فتكثر المضارباتُ وترتفع الأسعار ، وتندلع الثورة .

التفــكك

كان ضعف السلطة المركزية يفضي حتماً إلى تفكك الامبراطورية ، فالولاةُ الذين كانوا يتولون الأمصار البعيدة ، لم يكن بينهم وبين بغداد سوى علاقاتٍ محض شكلية ، وكان وضعهم مستقلاً نسبياً ، إذا جاز القول : ثم جاءت الفرصة المناسبة لجعله وضعاً استقلالياً تماماً ، ووراثياً . إن العدد الكبير للسلالات التي ستزداد على أطراف الامبراطورية ، ثم في قلبها بالذات ، لم يكن سوى نتيجة الداءِ الوبيل . عملياً ، كانت الطرائق العربية ، المتكيِّفة تكيّفاً رائعاً مع الفتح ، غير مصنوعة للحفاظ على استقرار البلدان المفتوحة ، وراحت الخلافة العباسية تموت ببطءٍ .

صحيح أن المأمون كان خليفةً كبيراً ، بعد هرْون ، إلا أن المعتصم الذي خلفه سنة 833 ، وجد نفسه مرغماً ، لتعزيز سلطته المهزوزة ، على إنشاء حَرَسٍ خاص مختار بكل عناية من صفوف العبيد الأتراك ، الجنود الشجعان ، المقاتلين بلا هوادة ؛ وهكذا صار 4000 يسهرون على أمن الامبراطورية .

هكذا ، كان الأباطرة الرومان قد أرغموا على القيام بعملٍ مماثل ، فكانوا يعتمدون على حرسٍ من العبيد الأشداء . ولكنّ الحرس ، في بغداد ، كما في روما ، سيغدو مع الزمن القوة الحاكمة الفعلية . وعلى غرار الامبراطورية الرومانية ، لم تعد خلافةُ بغداد سوى رجلٍ مريض . ومنذ ذلك الحين ، أخذت تنطفىء رويداً رويداً ، على مدى تعاقب الخلفاء الشرعيين أو المعترف بهم نسبياً ، الذين كانوا عملياً ملوكاً من التنابلة الحقيقيين . ففي الامبراطورية

الآخذة في التفكك ، راح رداءُ الحضارات القديمة يرتفع مجدداً ، وتجددت الفرديات الأثنية العتيقة من خلال دويلاتٍ مستقلة داخل حدودها الطبيعية ، بسرعة نسبية وفقاً لسلطان ولاتهم وشخصيتهم . هكذا عاد العالم الشّرقي إلى البنية القديمة التي كانت بنيته في مجرى التاريخ .

كانت اسبانيا أول من أعلنت استقلالها سنة 756 ، وكان المغرب قد تلاها سنة 788 ، ثم تونس سنة 801 . وفي سنة 868 ، كان ابن طولون قد استولى على السلطة في مصر . ومنذ ذلك الحين لم تعد مصر تابعة لبغداد إلاّ تبعيّة إسميّة . ولما انعتق المصريون من سلطان بغداد ، وضعوا أيديهم على جنوب بلاد الشام ، واحتفظوا به لمدة قرنين . بعد ذلك بقليل ، كان الامبراطور اليوناني ، باسيليوس الثاني ، قد استولى على بقية سورية ، وللمرّة الأولى شهد الناس مسيرة طويلة من الأسرى العرب في سيرك القسطنطينية . وأخيراً ، استولى امبراطور آخر على أرمينيا ؛ ففي الماضي كان العرب يواجهون التحدي بسرعة ، لكن الأزمنة كانت قد تبدّلت .

زدّ على ذلك أن المأمون الذي خلف هرٰون ، أسهم في تفكيك الامبراطورية ، حين سمح لابن طاهر بحكم ولاية خراسان حكماً وراثياً ، مكافأةً له على قهره وقتله لشقيقه الأمين ، إبن زبيدة وهرٰون . وبين 833 و892 توالى تسعة خلفاء ، وصارت الامبراطورية على وشك الانهيار ، ثم فقدت السلالة وجهها نهائياً . وفي عام 902 ، قام « قائد القادة » ، وهو من أعيان البلاط ، بخلع المقتدر . وتسارع التفكك .

سنة 928 ، استولى الحمدانيون ، وهم مسلمون شيعة ، على شمال بلاد الرافدين ، وعلى جزء من سورية ، وانشأوا في حلب والموصل مركزين ثقافيين مزدهرين جداً ، واستولى البويهيون ، وهم شيعة أيضاً ، على أصبهان وشيراز ، وحتى على بغداد سنة 945 . ومنذ ذلك الحين ، لم يعد الخليفة سوى زعيم سني تحت أوامر حاكم شيعي . بموازاة ذلك ، كان السامانيون (وهم مجوس زرداشتيّون) قد جعلوا من بخارى وسمرقند مركزية كبيرين للعلم والفن ، كان إبن سينا والرازي قد درسا فيهما . أخيراً ، قامت سلالة غزنوية في أفغانستان سنة 962 ، واستولت على كل بلاد فارس والبنجاب . وعلى غرار كبار الخلفاء

السابقين ، اجتذب زعيمُ السلالة ، محمود ، إلى بلاطه في غزنة الشعراءَ والعلماءَ ، لا سيما البيروني والفردوسي .

الأتراك السلجوقيّون

منذ أمدٍ غير بعيد ، كان يتهيّأ في شمال آسيا الوسطى جو هجرة كبرى ونكاد نقول جو غزو واجتياح ؛ فقد كان الأتراك السلاجقة يصنعون أسلحتهم ويشحذونها . ولكن في الوقت الذي كانت فيه بيزنطة تكافح لاحتواء العرب ، كان المسلمون يبذلون قصاراهم لقطع الطريق على الاندفاع التركي نحو الشرق . وفي وقتٍ لاحق ، سيكون دور الأتراك في بذل الجهود القصوى لوقف المدّ المغولي .

مهما كان الحال ، سيعتنق الغالبون دين المغلوبين الذين قهروهم وسحقوهم ، وسيجعلون من أنفسهم الأبطال المتحمسين لهذا الدين . إن الظاهرة مدهشة ، ولكنها غير نادرة في أخبار الإسلام وحولياته المضطربة . وسيكون الحال مماثلاً بالنسبة إلى الأتراك السلاجقة ، ثم بالنسبة إلى أبناء عمهم المغول في القرن الثالث عشر ، وأخيراً بالنسبة إلى الأتراك العثمانيين في القرن الرابع عشر . عملياً ، في أحلك ساعات الهزيمة والغزو ، سيحرز الدين الإسلامي أزهى انتصاراته . فقبل أن يسير الأتراك نحو الغرب ، انطلاقاً من بحيرة بايخوش (Baïkhoch) ، كانوا قد أجروا عدة اتصالات مع الإسلام وجعلوه يحتل بخارى سنة 990 . وبعد 5 سنوات أطاحوا بالأسرة الساسانية .

كان تقدمهم سريعاً ، فهيمنوا سنة 1000 على بخارى وسمرقند وتركستان . وفي سنة 1029 ، فتحوا كل بلاد فارس ، في ظل طغرل . وتحضيراً لتقدمهم المقبل ، أرسل الأتراك وفداً إلى الخليفة القائم ، ليبلغه دخولهم في الإسلام . وعلى الفور أمل الخليفة بالخلاص من آل بويه ، بفضل هذا الدعم القوي ، فاستعجل قدومهم . سنة 1055 ، انقض طغرل بك على البويهيين ، ففرّوا أمامه . تزوج الخليفةُ حفيدة طغرل ، الذي جعله « ملك الشرق والغرب » سنة 1058 . ورأى القائم أنه من الواجب منح مساعديه المتشدّدين إقطاعة البلاد التي سيتمكّنون من اقتطاعها من الجوار .

وهكذا ، راحت السلالاتُ الإسلامية تخضع ، الواحدة تلو الأخرى ،

للسلاطين السلاجقة الذين تلقبوا بلقب سلطان (سيّد) . ولما صار الأتراك أقوى من الخليفة ذاته ، حصروا دوره في نطاق ديني محض ، وحلّت الامبراطورية العثمانية محل الامبراطورية العربية .

إن حفيد طغرل ، ألب أرسلان (البطل قلب الأسد) حلّ محله سنة 1063 ، واكتسح أرمينيا وجورجيا وسورية بلا مقاومة ، ومكّن ابنه مليح شاه من الحلول محله (1072 ـ 1092) ، وهذا بدوره سيغدو من أعظم سلاطين السلجوقيين . فقد احتفظ مليح شاه ، الحكيم ، بنظام ، وزير أبيه ، الذي سيجدّد على مدى 30 سنة عظمة الامبراطورية وازدهارها كما كانت في عهد البرامكة . ويرسمُ نظامٌ في كتابه « فن الحكم » الخطوط الكبرى لسياسته ، ويشير إلى واجبات السلطان والحكام ويأمر الجميع باتباع السنّة الإسلامية الحنيفة . والمؤسف أنَّ هذا السياسي المتنوّر قضى قتلاً سنة 1092 على يد اسماعيليّ ينتمي إلى مذهبٍ كان يتهم نظاماً بالشيوعية . في الواقع ، لم يكن هذا المذهب سوى أخويّة سرية متحصنة في قلعة آلموت (عش النسر) على ارتفاع 3000 متر في شمال بلاد فارس . زعيم المذهب هو الحسن ، الذي كان الصليبيون قد أطلقوا عليه لقب « شيخ » الجبل ، الذي جعلوا منه على مدى 35 سنة مركزاً للاغتيال ، وللفن والتعليم في آنٍ واحد . إنَّ ماركو بولو الذي زار آلموت سنة 1271 ، يصفه ويصوره كحديقة مأهولة بـ« سيداتٍ وآنساتٍ كنَّ يتعايشن مع الرجال ويرضيهن » ، فهو نوع من الفراديس ، حيث كان يعيش المدمنون المقبلون على تعاطي الحشيش . تلك كانت صورة الدار المخصصة دائماً وأبداً لمن كانوا يطيعون حتى الموت . كانوا يلقّبون بلقب شاربي الحشيش ، الحشّاشين ، ومن هنا جاءت كلمة « Assassin » في اللاتينية بمعنى « حشّاش » و« قاتل » ، فكانوا يهاجمون مضطهدي المذهب الإسماعيلي بوجهٍ خاص . وفي سنة 1256 ، قضى عليهم المغول بوصفهم عدميّين ، إلاّ أن المسلك سيستمر كمذهب ديني متجدد ومتعقّل ، يحمل إسم النزارية خصوصاً في الهند وفي بلاد فارس وسورية وافريقيا . زعيم هذا المذهب هو الأغا خان ، الإمام السابع والأربعون حسب التسلسل من عليّ .

غير أن المملكة السلجوقية راحت بدورها تتفتّت إلى إماراتٍ مستقلة ، ابتداءً من القرن الثاني عشر .

الفصل الواحد والعشرون

الحملات الصليبية

ليس في الإمكان الكلام على الحضارة العربية دون تناول الحملات الصليبية وأثرها في المرحلة التي وقعت فيها .

أسبابها

منذ أكثر من 400 سنة ، كانت المسيحية تتراجع أمام الإسلام الذي كان يتقدم بقوة في آسيا وافريقيا ، في صقلية واسبانيا . ومن النّافل القول إنّ المشروع الهائل للحملات الصليبية كان في المقام الأول ردَّ أوروبا المسيحية على آسيا الإسلامية ، حيث كان ضريح المسيح .

ومنذ عدة قرون ، كان الحج إلى الأماكن المقدسة يمثّل في نظر نصارى العصر الوسيط قيمةً رفيعة . كان ميشليه يختصر تلك القيمة بقوله : « طوبى لمن يعود ! والأكثر طوباوية هو الذي كان يمكنه القول ، وفق عبارةٍ جريئة لشخصٍ معاصر : « أيها الربّ لقد متّ لأجلي ، وأنا أموت لأجلك » . زدّ على ذلك أن الحجاج كانوا يذهبون إلى الحج جماعاتٍ ، جماعات .

إن تدمير خليفة فاطمي ، سنة 1009 ، لكنيسة الضريح الأقدس ، يبدو السبب الحاسم للحملات الصليبية . في الواقع ، من المفيد التذكير بأن النصارى ، حتى في المرحلة التي كان العرب يستقبلون فيها الحجيج أحسن استقبال ـ وهذه كانت قاعدتهم بوجهٍ عام ـ ، إنما كانوا يستاؤون لمجرَّد كون الأماكن المقدسة في أيدي الكافرين . بيد أنَّ فكرة الحملات الصليبية ربما لم تفرض نفسها بشكلٍ حاسم ، لو لم يكن هناك أسبابٌ أعمق ، سياسية ودينية ،

وحتى دنيوية بالذات . ومهما يكن الأمر ، فإن الإسلام الذي لم يعد يشكّل أي خطر منذ تفككه ، عاد إلى الواجهة مجدداً وصار فجأة يمثّل خطراً على البلاد المسيحية ، اعتباراً من القرن الحادي عشر ، بعدما قام الأتراك بتجميع المسلمين حول الإسلام . وكان يبدو أن الجهاد قد استؤنف في كل مكان تقريباً . ففي المشرق ، استولى السلجوقيون على بيت المقدس سنة 1078 ، وعلى انطاكية سنة 1085 . وفي اسبانيا ، أحرز المرابطون سنة 1086 انتصار الزلّاقة على الجيش المسيحي . كما أن الأمبراطور اليوناني ألكسيس عندما رأى من القسطنطينية سنة 1093 خيام جند سليمان المعسكرين على شاطىء البوسفور المقابل ، بادر إلى إرسال وفود إلى مجمع پليزانس(Plaisance)، للمطالبة بدعم المسيحيين الغربيين لمواجهة الأتراك . ورأت البلاد المسيحية أن الوقت قد آن للتخلص من ذلك الوضع .

ولربّما رأى البابا في ذلك الأمر فرصةً سانحةً لإعادة توحيد الكنيستين اليونانية (الرومية الأرثوذكسية) والرومانية ، المنفصلتين منذ 40 سنة . ومن الممكن أن يكون قد رأى في الحملات الصليبية وسيلةً لوقف حروب العصابات المتواصلة التي كانت تقسم الأمراء الإقطاعيين . وذلك من خلال توجيه حماسهم الحربي نحو عمل ديني ؟ كان أوربان الثاني يقول : « لا تكاد الأرض التي تسكنونها توفر الغذاء الكافي لأولئك الذين يزرعونها ، ولهذا فإنكم تتذابحون . اسلكوا طريق الضريح الأقدس . . . وستكون ممالك آسيا من نصيبكم » .

من الواضح تماماً أن فرسان العصر الوسيط الأجلاف لم يكونوا مدفوعين فقط بدوافع روحية . فالانتصارات التي كان النورمانديون قد أحرزوها سنة 1091 على العرب في صقلية ، كانت قد حضّت المسيحيين على العمل . وكان هناك دوافع أخرى لا تقلّ أهمية عن ذلك . فإذا كان بعض الأمراء الإقطاعيين لا يزالون يبحثون عن مغامرة مجيدة ومُفيدة ، فإن الناس المساكين رأوا فيها دواءً لبؤسهم أكثر مما رأوها تضحية . ومع ذلك لا يستطيع أحدٌ الإنكار أنَّ الدافع الأكبر للحملات الصليبية كان بوجهٍ عام التقوى الصادقة ، وأنَّ الحافز الأساسي كان « تحرير قبر المسيح » .

توالت تسع حملات صليبية على فتراتٍ متقطعة ما بين 1096 و1291 . وإنّ

تجمّع ذلك العدد الغفير من الصليبيين ـ الذين قُدّر عددهم بحوالى 700000 ـ ، والدلالة التي يرتديها العدد الضئيل نسبياً للمسلمين الذين ساهموا فيها ، والدروب التي سلكتها الأرهاط والجماعات المتداخلة ، وما كانوا يعانون من آلام وتعاسات على تلك الدروب ، باختصار إنّ فصول وتقلبات تلك المغامرة الحربية الخاصة بتاريخ أوروبا ، لا مجال لإعادة رسمها هنا . فالصراع يتضمّن في خطوطه العريضة مرحلة غزوات الصليبين التي دامت 50سنة أيضاً . والمرحلة الثالثة التي تشمل القرن الثالث عشر ، تكوّنت من تعاقبات النصر والهزيمة لكل من الفريقين المتحاربين ، وانتهت أخيراً بطرد الصليبيين الذين اضطروا للجلاء نهائياً عن الأرض المقدسة .

غزوات الصليبيين

انطلاقاً من القسطنطينيةالتي كانت مركز تجمّع الصليبيين ، كانت طريقهم تمرّ عبر آسيا الصغرى . وكان الأتراك يحاولون قطع الطريق عليهم عند دوريلي ، في حزيران / يونيون 1097 ، فلم يفلحوا . إنّ المسير عبر هضبة الأناضول الجرداء القاحلة وجبال طوروس الحادة ، شتّت تجمعات الصليبيين الأولى ، لكنه فتح طريق آسيا الصغرى ، وأخّر دخول الأتراك إلى أوروبا ثلاثمئة وخمسين سنة .

لقد ثبّت العزائم وصول جحافل من كيليكية ، أفضل تنظيماً ، فجرى غزو طرطوس ، أديس ، انطاكية وحلب ، من جانب الصليبيين سنة 1098 . لكنّ جيشاً مؤلفاً من 200000 تركي ، بقيادة أمير الموصل ، هاجمهم في انطاكية . وفي الفترة التي كان فيها المسيحيون عرضةً للمجاعة ، ولا ينتظرون خلاصهم إلّا من معجَزة ، جرى اكتشاف الحربة المقدسة ، المدفونة في كنيسة ؛ الأمر الذي أعاد إليهم حماسهم وقوتهم الحربية في آن . هُزم الجيش التركي وتشتت ، وبعد سنة ، في 7 حزيران / يونيو 1097 ، كان 40000 قد بلغوا مشارف القدس . وفي 15 تموز / يوليو ، بعد هجوم دام يوماً ونصف اليوم ، دخل جيشهم المدينة : عبر غودفروا دي بويّون على جسر للمشاة ، وعبر النورمانديون من خلال ثغرة . كتب ميشليه : « في رعبهم الأعمى ، كان الصليبيون الذين لا يقيمون للأزمان أي اعتبار ، يرون في كل كافرٍ يصادفونه في القدس ، أنهم يقتلون واحداً من قتلة

عيسى المسيح » . هكذا كانت الحالة العصبية والتعصبية للصليبيين الأوائل .

انتخب غودفروا دي بويّون ملكاً ، فلم يقبل سوى لقب حامي (مدافع) قبر المسيح . إنه محارب شجاع ، وطّد انتصاراته حين هزم في عسقلان جيشاً من 20000 رجل جاؤوا من مصر . منذ ذلك الحين ، تحققت أمنيات الصليبيين ، فبعد ثلاث سنوات من التضحيات الجسيمة ، جرى احتلال الأراضي المقدسة ، ثم جرى تقاسم سورية وفلسطين ، فوُزعت بين ثلاث دويلات لاتينية ، هي القدس وانطاكية وطرابلس . وما كادت تنشأ هذه الدويلات حتى راحت تتقاتل ، وتقاتل أمراء حلب والموصل ، وأتابك دمشق وخليفة القاهرة ، الذين لم يكونوا أقل انقساماً من الصليبيين أنفسهم . في الفترة الفاصلة بين المعارك ، كان الصليبيون يبنون القلاع والحصون التي لا تزال آثارها الضخمة قائمة حتى اليوم . إلّا أن المعارك توقفت ، وقامت علاقات حسن جوار . فقد أدرك المسيحيون أن المسلمين لم يكونوا وثنيين كما كانوا يظنون ، وأنّ الاتصالات مديدة من شأنها أن تؤدي إلى مبادلات وديّة أكثر وعلاقات صداقة أوسع .

وكان من طبيعة الأمور أن يتعوَّد الصليبيون على تبني آداب الشرقيين وطرق عيشهم الأكثر تناسباً مع المناخ . لقد أغرتهم الحساسية الشرقية ، فراحوا ينظرون إلى لطافة العيش نظرة مختلفة وانعقدت زيجاتٌ بين نصارى وعربيات ، معمّدات أو غير معمّدات ؛ ونشأ التفاهم نفسه على صعيد المصالح الخاصة ، فلم يكن نادراً أن يُرى مسلمون يتحالفون مع مسيحيين ضد أبناء دينهم ؛ في المقابل ، كان ثمة لاتينيون يتقاتلون مع بعضهم ويطلبون عون الكفار ودعمهم . حتى أن رحالة عربياً ، إبن جبير ، يروي أن في منطقة عكّا مبنى دينيّاً كان يتقاسمه ، دورياً ، المسلمون والمسيحيون لأداء شعائرهم . والمعارك ذاتها كان لها أثرها في نفوس المتحاربين . لقد ولدت النفسية الفروسية تجاه العدو المغلوب ، مع صلاح الدين الذي أعطى أروع الأمثلة على العفو والترفع . ولا ريب أن ذلك أدهش النصارى الذين اكتشفوا آنذاك تفوق نخبة شرقية مهذبة ، متنوّرة وذات تقاليد راقية ، كانت تعرف فوق ذلك كيف تلقنهم أصول تقدمها التقني وتسدّ بوجهٍ خاص ثغراتِ طب غربي بدائي وتجريبي . وكان لا بد لاحتكاك الصليبيين بنظام اجتماعي متطور جداً أن يولّد لديهم التطلع إلى حرية فرديّة أكبر ، والنزوع إلى

تحرير العقول والنفوس ، الذي انطلق منه تحويلُ المجتمع الغربي . لكنَّ هذه الهدنة المفيدة لم تدم طويلاً ولم يتأخر رد الفعل الإسلامي وانقطاع العلاقات الودية .

الرد الإسلامي

إن رينو دو شاتيّون الذي كان قد نهب قافلة إسلامية ، وضع مشروعاً للقيام بنهب حجّاج مكة والاعتداء عليهم . فما كان من صلاح الدين ، سلطان مصر ، المسلم المتحمس ، إلاّ أن استبق المسيحي ، إذ أنه لم يكن ينتظر سوى هذه الفرصة السانحة ، فغزا مملكة بيت المقدس واستولى على طبرية في الأول من تموز / يوليو 1187 ، وفي حطّين سحق جيشاً مسيحياً من 20 ألف رجل كان مرهقاً من جرّاء الحر والعطش ، وعامل غي دو لوزينيان ، ملك القدس ، بكل إحترام جدير بأسيرٍ كريم ؛ إلا أنه أعدم رينو دو شاتيون الشرس . في 2 تشرين الأول / أكتوبر سقطت القدس بين يديه . لقد كان صلاح الدين أكثر إنسانيةً من الصليبيين ، فتركِ الحقد جانباً وأبقى على حياة المسيحيين الأسرى . كان حليماً ، كما قيل ، فأطلق في وقتٍ لاحق سراح أولئك الذين لم يتمكّنوا من افتداء أنفسهم .

وما عدا انطاكية وصور وطرابلس وبعض الحصون أو القلاع المعزولة ، كانت فلسطين وسورية تحت حكم صلاح الدين في نهاية العام 1187 . وكان لتلك الكوارث صداها العميق في الغرب . فحمل الصليب أقوى أمراء بلاد المسيحية الثلاثة ، وهم امبراطور المانيا وملكا انكلترا وفرنسا . غرق فريدريك بربروسا على رأس جيشٍ من مئة ألف رجل في كيليكية وتشتّت جيشه . وكان ريكاردوس قلب الأسد أوفر حظاً منه ، فاستولى على قبرص . ومن جهته تمكّن فيليب أوغوست من الصمود أمام أسوار عكا وأقام جسراً مع الصليبيين الاتينين الذين كانوا قد بقوا في الأرض المقدسة .

بدأ حصار المدينة في 27 آب / أغسطس 1189 ، فهبَّ صلاح الدين لنجدتها منذ اليوم الثاني لحصارها . ومن جهتهم وصل ريكاردوس مع إنكليزه ، ووصل دوق النمسا مع بقية الألمان . كانت خيامُ جيش الصليبيين تغطي السهل

وكانت مراكبهم تملأ المرفأ ، فوق التلال المجاورة كان يعسكر جيش صلاح الدين . واستمرت الحرب بينهما طيلة عامين ، وأظهر كلُّ فريق قدرة قتالية مدهشة . « لقد اشترك في هذه المبارزة الكبرى 600000 رجل ؛ قُتل 120000 من النصارى و190000 من المسلمين . وخاضوا تسع حروب كبرى وأكثر من 100 معركة » . كانت تلك أعظم عملية حربية في العصر الوسيط . كان الصليبيون متفوقين بأسطولهم وبعتادٍ حصارٍ حربي كبير ، وكان المسلمون متفوقون بوحدة قيادتهم ، وهذه الوحدة أمرٌ لا يُستهان به . لقد استسلمت الحامية العربية المُنهكة يوم 12 تموز / يوليو 1191 . ومما جاء في وثيقة الإستسلام الابقاء على حياة الحامية مقابل دفع 200000 دينار بيزنطي ذهب ، وإعادة الصليب الحقيقي الذي استولى عليه صلاح الدين في حطين . وبما أن المبلغ لم يُدفع في المهلة المحددة ، فإن ريكاردوس أمر بإعدام الحامية الإسلامية البطلة .

. إلاّ أن مفاوضات سلمية أدت في 2 تشرين الثاني / نوفمبر 1192 إلى اتفاق على تقاسم البلاد . فمُنحت السواحل للاتينيين ، ومؤخرة البلاد للمسلمين . وأُعلنت جزيرة قبرص مملكة مستقلة يسودها الصليبيون، وأُقيمت في شمال انطاكية مملكة أرمينيا الصغيرة على رأسها أمير أرمني وارستقراطية فرنسية . ولم يعد الحجّاج الذاهبين إلى القدس يتعرضون للنهب . ولتوطيد ذلك السلام ، رأى ريكاردوس أن يزوج أخته ، الملكة حنّة الصقلية ، لشقيق صلاح الدين ؛ وكان المشروع يُشير إلى تأمير الزوجين على القدس المحايدة ؛ إلاّ أن المشروع الرومانسي لم ينجح ، وعاد ريكاردوس إلى انكلترا دون أن يتمكن من دخول المدينة المقدسة .

نهاية الحملات الصليبية

في مطلع القرن الثالث عشر ، استولت حملة جديدة على دمياط في مصر ، ثم انسحبت منها . في سنة 1219 حصل فريدريك الثاني على القدس بالاتفاق مع سلطان مصر ؛ غير أن المدينة سقطت مجدّداً في أيدي المسلمين سنة 1244 ، بعد نشوب خلافاتٍ بين النصارى . ثم إن حملة صليبية جديدة بقيادة سان لويس ، استولت مجدداً على دمياط وسارت إلى القاهرة ، إلا أن إنهاك الفرسان الفرنسيين وفيضان النيل وانتشار الأوبئة كالطاعون وسواه ، أجبرهم على

التراجع . ولما كان ملك فرنسا في مؤخرة الحملة ، فإنه وقع أسيراً . ولم يُطلق سراحه إلا مقابل الإنسحاب من دمياط ودفع مبلغ ضخم ؛ وبعد ذلك واصل القتال ، وجدّد الحصون والقلاع التي كان المسيحيون لا يزالون يحتلونها في سورية ، ثم عاد إلى فرنسا سنة 1254 ، لأنه لم يتلقَ التعزيزات التي كان ينتظرها منذ ثلاث سنوات . ومات سنة 1270 مصاباً بداء الطاعون ، خلال آخر حملة صليبية شنها على مدينة تونس هذه المرة ، بشكلٍ خاطىء .

استهل بيبرس سلسلة السلاطين المماليك ، الذين وجّهوا آخر الضربات للصليبيين . فحرّر غزة سنة 1263 ، وقيسارية سنة 1265 ، ويافا وانطاكية سنة 1268 ، وأمر بتصفية حامية هذه المدينة الأخيرة واسترقّ مئة ألف شخص . وهاجم خلفاؤه مدينة عكا بوسائل قوية واستولوا عليها سنة 1291 ، فقتلوا حراس الهيكل الذين كانوا يدافعون عنها . وبعد ذلك ، جرى تحرير صور وصيدا وبيروت وطرطوس ، وجرى قذف آخر الصليبيين في البحر .

لقد فشلت الحملاتُ الصليبية في تحقيق هدفها ، لكنها لم تذهب سدىً . لقد عرضنا سابقاً أثرها الحضاري في المجتمع الأوروبي ، لكنها لم تخلف في الشرق سوى انقاض ضخمة وشعوراً بالمرارة لم تلتئم جراحه بعد .

صلاح الدين

اتسمت الحروب الصليبية ببعض سمات البطولة والشهامة ، ولكنها اتسمت ، بكل أسف ، بسمات الوحشية أيضاً ، لأن الشراسة ، وكذلك الشجاعة ، لم تكن وقفاً على أي من الفريقين المتحاربين . فمن بين الرجال الذين تصادموا في هذه المبارزة العملاقة ، يستحق البعض أن يُسلّط الضوءُ عليهم ، نظراً للقيم التي يمثّلون . وذلك ليس بسبب شجاعتهم ، وقد كانت عملة رائجة في وطيس المعارك ، بل بسبب ما بقي في النفس بعدما يهدأ الغضب : بسبب الخصال التي تشكّل غنى الإنسان وأخلاقيته الحقيقية الرفيعة ، والفضائل التي أسهمت حقاً في تطوير الحضارة وظلّت من أبرز مواصفاتها .

إن صلاح الدين في المعسكر الإسلامي وسان لويس في معسكر النصارى ، يبرزان بوصفهما من أهم دعائم العدل والحق ، الدعائم الثابتة والدائمة . فهما

شاهدان على ترفع أخلاقي كبير في الظروف المأساوية أحياناً ، لدرجة أنَّ شرف نفسيهما كان يفرضهما حتى على أعدائهما . إن سان لويس يُدرس في تاريخ فرنسا ، أما صلاح الدين ، الذي يعدُّ واحداً من أهم أبطال الإسلام المقدَّسين ، فهو يُدرس في نطاق الحضارة الإسلامية .

الملك ، الناصر ، صلاح الدين ، استحق هذه الألقاب كلها وبجدارة تامة . وُلد سنة 1138 ، من أصل كردي ؛ وكان منذ مطلع شبابه قد تعلم فنّ القيادة على يدي أبيه ، حاكم بعلبك ثم دمشق ، وفن الظُّفر في ميادين القتال . صار وزيراً في سن الثلاثين ثم والياً على مصر ، واستولى صلاح الدين على سورية بحفنةٍ من الرجال . بعد وفاة الخليفة الفاطمي الذي ترك 12000 امرأة وثرواتٍ هائلة ، قام صلاح الدين بتوزيع كل شيء ، دون أن يترك لنفسه أي شيء منها . صار صلاح الدين سلطاناً سنة 1175 ، ففرض العدل وبنى الجوامع والمدارس والمشافي والجامعات ، وشجّع العمارة وحفر القنوات وابتنى السدود وانشأ شبكة ريّ واسعة ، ومع ذلك عرف كيف يخفّض الضرائب .

وعندما استؤنفت الحرب مع الفرنج ، انتصب بطلاً اسلامياً واستولى على معظم الممالك الاتينية في المشرق . لقد كان محارباً كريماً . فقد أطلق أسرى القدس بلا فدية ، بينما كانت العادة تقضي بقتلهم . كما أنّه عفا عن الملك غي دو لوزينيان الذي لم يفِ بوعده عدم استئناف الحرب . إن الشواهد على كرمه وحلمه لا تُحصى ، ومع ذلك قام ريكاردوس قلب الأسد ، وبعد 4 سنوات من موقف صلاح الدين الفروسي في القدس ، بقتل 2700 أسير مسلم لم يتمكنوا من دفع الفدية في عكّا . . . هذا ولم يُعرف عن صلاح الدين سوى الحُلم بكل خصاله وفضائله .

كانت المعاهدة المعقودة بعد الاستيلاء على عكا تنصّ على تمتع المسيحيين بحريّة الذهاب إلى الأماكن المقدسة دون أن يدفعوا أية ضريبة أو غرامة في أثناء الحج . ووفى صلاح الدين بوعده ، فكانت أساليبه بالغة التهذيب واللياقة مما جعل الحجاج يتوافدون بكثرة لزيارة الضريح المقدس . واحتج ريكاردوس على ذلك وطلب من السلطان أن يأذن فقط لأولئك الذين قد يوصي بهم . وكان ردُّ السلطان أنه لا يستطيع ، ضميرياً ، طرد عددٍ كبير من الحجاج « كانوا قد تركوا

أهلهم وأصدقاءهم ، في بلادٍ بعيدة جداً ، وجاؤوا إلى بيت المقدس لإشباع حاجتهم الدينية » ! .

كان صلاح الدين شديد الكره للمجادلين والمتكلّمين والغيبيين وأولئك الذين كانوا يعكفون على دراسة اللاهوت المدرسي (السكولاستيكي) . كما كان يزدري الفلاسفة والشعراء وأهل الأدب ، لكنّه كان يستمتع كثيراً بالاستماع « إلى أحاديث النبي وسيرته » . وغالباً ما كان يقرأ مختصر الفقه والقانون للرازي . يصفه المؤرخون المسلمون بأنه وادع ومتواضع ، ورع ومتحرّر ، جلود ومتسامح . كان اعتداله وحلمه مثاليين ، ولم يكن يملك أرضاً ولا بيتاً ولا إقطاعات .

بعد وفاته ، لم يكن في خزنته سوى دينار و 47 درهماً . ومع ذلك كان في تصرّفه عائدات هائلة في مصر وسورية واليمن والولايات الشرقية . إلّا أنَّ كل تلك العائدات كانت تُستخدم للتخفيف من تعاسات تلك الشعوب « التي دمرها رعبُ الحروب والزلازل » . كان يوم وفاته سنة 1193 يوم حدادٍ عام . فنعاه أحمد الكاتب بهذه الكلمات : « لقد ذهبت القيمة ذاتها . . . ونضب ينبوعُ الرحمة والكرم . . . وغابت كل فضائل الحياة ولطائفها . السماء تلبّدت بغيوم سوداء . وحُرم العالم من زينته وبهجته حين حُرم من سلطانه الوحيد . وفقد الإسلام أقوى سندٍ له » .

جميع البلاد المسيحية اعتبرت صلاح الدين مثالاً جديراً بالكبار الكبار . وكان الإيطاليون ، بصوت دانتي ، يمجدونه كسلطان لا يقلُّ تحرراً عن الاسكندر . وسوف يبقى في الأعالي على رأس أبطال الأزمنة القديمة :

« Solo en parte vidi il Saladino »

لقد وصفه الألماني ڤيدا دو بازوخس بأنه :

Princeps quidam, nisi foret extra fidelium gregem, egregius.

أما الإسبانيون فقد رأوا فيه رفعة الشخص الذي بلغ مبدأ الكمال الأخلاقي حسب تصوّر « الإنسان الجوهري » . كما كانت العادة تقضي بالقول في القرن

الخامس عشر . إن « الإنسان بذاته » ، كما يقول دون جوان مانويل ، هو في مقابل تعريف الشيء بذاته ، مناطٌ بصفة إنسانية لا تتوقّف على قوّته ولا على شرفه . وحسب عبارة أونامينو القويَّة ، ليس صلاح الدين « سوى إنسانٍ كامل » . وكان الإنكليز رومانسيين جداً في هذا الموضوع ، فصار صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد في نظرهم موضوع خرافات روائية لا ينضب معينه ، فوصفوا كليهما وامتدحوهما كممثلين للفروسية . وكان الفرنسيون يشعرون بوجود رسالة إلهية ، فرأى جيلبر دو نوجان أن الحملات الصليبية كانت : « مآثر إلهية حقّقها الفرنسيون gesta Dei per Francos » ؛ لكنهم لم يتأخروا عن اكتشاف صلاح الدين ، معترفين بأنه « زهرة لياقة وكياسة » ، فوصفوه بأجمل صفات الأتقياء . وقبل خمسة قرون من إعلان بطل كورناي « كانت كثيرة الفضائل لدرجة أنها لم تكن مسيحية » ، كان الفرسان الفرنسيون يأسفون لأنَّ صلاح الدين لم يكن مسيحياً . وإن هذه الفكرة الجامعة راحت منذ ذلك الحين تطرد من قلبهم أيّ شعور بالحقد تجاه صلاح الدين الذي لم يكن خصمهم إلاّ من باب الوفاء لمعتقده ودينه .

الفصل الثاني والعشرون

انعكاسات مشرقة

حتى في قرون الانحطاط تلك ، ظل الإسلام محافظاً على المكانة الأولى في العالم ! ويمكن تصنيف السلاطين السلاجقة الأوائل ووزرائهم بين أفضل رجال الدولة في التاريخ . إنَّ علم صلاح الدين السياسي والعسكري لا يقلّ منزلةً عن علم معاصريه ريكاردوس قلب الأسد وفريدريك دو هوهنجتاوفن (de Hohenstaufen) وسان لويس . لا شك أنَّ هؤلاء الملوك دفعوا الأرثوذكسية الإسلاميَّة إلى حد اضطهاد الهرطقات الإسلامية ، لكنَّهم أظهروا تسامحاً كبيراً تجاه مذاهب الامبراطورية الأخرى ، لدرجة أنَّ طوائف مسيحية تنتمي إلى بيزنطة كانت تستعين بتلك المذاهب لمساعدتها في مواجهة الحكام الذين كانوا يضطهدونها . زدْ على ذلك أن حكمتهم على الصعيد الديني دعتهم إلى الحدّ من غلو الفلاسفة وإلى وضع الفلسفة في الثلاجة لأجلٍ معينٍ ، في المقابل ، كان عصرهم على الصعيد الفني لا يقلُّ قيمةً ومكانةً عن العصور التي سبقته . وفي ظل تأثيرات شتى ، خصوصاً المسيحية ، أخذت العمارةُ تتحرر أكثر فأكثر وبشكلٍ أشد سطوعاً ؛ وكان السلاجقة والأيوبيون والمماليك ، في مصر والمشرق ، قد طبعوا فن العمارة بطابع صوفيّ كانت تفتقر إليه ، فيا له من عصرٍ عجيب ، عصر صعود وانحطاط ، عصر شراسة ولطافة .

لحسن الطالع ، كان للفن السلجوقي قوة لطافة تعوّض عمّا كان يفتقر إليه فنُّ العمارة الفارسي . وقد تجسدت حصيلةُ انصهار هذين الفنّين في قصور وجوامع من طراز جديد ، تسودها أناقة الخط وجرأته . والجدير بالملاحظة أن الفن الغوطي كان في الفترة نفسها قد بدأ يزدهر في فرنسا . فهنا وهناك كانت ترتفع ،

كثيرةٌ ومديدةٌ ، الشواهدُ الفنية على عصر ديني ، عصر إيمان ديني رفيع حقاً ، ولكنه مخيب للآمال أيضاً ، لأنه قاد رجال تلك الشعوب بالذات إلى التجابه بشكلٍ خطير جداً في ساحات القتال . وعلى هذا النحو كان ذلك المثال يتقلّب ، فهو تارة كان يصنع المحاربين الأشداء ، وتارة كان يصنع العمّارين المفعمين بالشجاعة والحزم .

إن إلقاء نظرة على تطور فن العمارة لن يخلو من فائدة . فمع تقادم الأزمنة وتثبيت ركائز عقيدة دينية متينة ، لم تعد الجوامع تتخفّى داخل باحة ، فهي تتميز الآن بواجهاتٍ ساطعة ، وترتفع نحو السماء وتتكلل بقبة ومآذن . وتكاثرت الأقواسُ والعقود والقبب وانسجمت في مجمّع منسجم ، ذي أبعادٍ لطيفة ومتناغمة . والنماذج الأولى لتجلي ذلك الفن المعماري ، تجتمع في جامع آني (Ani) ، عاصمة أرمينيا آنذاك . فقد شُيّد هذا الجامع منذ بداية الاحتلال السلجوقي ، وكذلك الحال بالنسبة إلى آثار ايقونيوم (قونية الحالية) . كما لا يزال في الإمكان الإعجاب في هذه المدينة الأولى بجامع علاء الدين الكبير ، وواجهة مدرا دو سيرتجلي المُنمنمة .

ولا يزال هناك من العصر السلجوقي جامع الموصل الكبير ، وجامع المستنصر الكبير في بغداد ، وأثران جنائزيان : برج طغرل بك في الرَّي وضريح سنجار في مرو ، وثلاثة محاريب في همدان وقاشفان وهيدنة . إلاّ أن جامع الجمعة في أصبهان يبقى ، بلا ريب ، رائعة ذلك الفن الجديد . فقد بدأ بناؤه سنة وتواصل على امتداد عدَّة قرون ، على نحو من الكمال جعل بعض عناصر زينته الداخلية تعدّ من أروع لطائف الفن المعماري الإسلامي . وبقي في سورية من العصر الأموي قلعةُ حلب الرائعة وجامعها الكبير ، ومسلَّة صلاح الدين في دمشق ، بالقرب من جامع الأمويين . هنا أيضاً ، تحولت الجوامع وتكيفت مع الحاجات الجديدة للشبيبة الطالبية . واليوم تُلحق بها أربعة أجنحة متعامدة في كل منها محاضرات لتدريس القانون والفقه . وفوق كل جناح مئذنة ، وفي الوسط تنتصبُ بجلال الكتلة الصخرية للقبة الكبيرة . كما أن قلعة القاهرة وأسوار المدينة ترجع إلى عصر صلاح الدين (1183) التي أكملها خلفاؤه في وقتٍ لاحق ، مستعملين حجارة الأهرامات الصغيرة ، لأن الحجارة نادرة في بلاد الطميّ .

ولئن كان الانتاج ، من الوجهة الفنية وخصوصاً المعمارية ، كان وفيراً في مصر على نحوٍ لم تشهد مثيله منذ ألف سنة ، فإن أصالته وجودته تعدّان مرموقتين وغير قابلتين للتصور في ظل نظام دمٍ وحديد ، وفي خلال عصر صراعات متواصلة . وسبب ذلك أن خلفيّة ميراثٍ فنيّ ظلت راسخة في أعماق هذا البلد المنطوي على ذاته والبعيد لحسن حظه عن حركات الهجرة التي تعيث فساداً بكل شيء وتجرف معها كل شيء . فالغزو المغولي ذاته ، وعلى الرغم من كونه مدمّراً للشرق ، كان مفيداً لمصر ، بمعنى أنه أرغم الفنانين والحرفيين على الهرب من بغداد والموصل ، من حلب ودمشق ، لكي يقيموا في المناطق المؤاتية أكثر لممارسة موهبتهم وفنّهم . ومنذ ذلك العهد ، راح يتطور نموذج الجامع / المدرسة ، المستوردِ من سورية ، إلى درجة الكمال وصار النموذج الأساسي للمآذن المصرية التي تظلُّ الأجمل بأشكالها الباسقة ولطافتها وروعة زينتها . ويمكن للمرء أن يتأمل في جدرانها المشيدة فوق ركائز حجرية مختلفة الألوان ، وفي رسوم تنميقها وزخرفتها وعمارتها ونقوشها المذهبة . ففي كل أرجائها يسطع اللون والضوء . فليس هناك جوامع ولا أضرحة مملوكية إلّا وهي مزينة بفسيفساء برّاق وألوان مشرقة . والأبواب الكبيرة هي من البرونز المُدمشق ، والنوافذ غنية بالزجاج المزخرف ، حيث تتماوج باستمرار حركات الأضواء ، والظلال . وحينما يتعب النظر من التأمل يسعى إلى الهروب نحو أفقٍ بعيد ، غير أن الزخارف العربية ورسوم الكتابة الكوفية سرعان ما تجذبه إليها من جديد عبر لطافة الرسم وفخامة الخطوط المنحنية البديعة .

هناك ظاهرة تناقضية ، مدهشة بمفارقاتها ، تتجلى من ثنايا هذه الحضارة المشرقة . فمن جهة ، هناك رهافة قوم من الفنانين والأدباء والفلاسفة ، ومن جهةٍ ثانية هناك شراسة وقساوة السلاطين المماليك الذين كانوا ، على الرغم من عقليتهم الجاهلة والفظّة ، ملهمي ومحرّكي عصرٍ من أزهى عصور الحضارة العربية .

وهكذا تعاقب بيبرس على بناء الجامع والجامعة اللذين لا يزالان يحملان اسمه حتى اليوم ؛ والمنصور وابنه الناصر المخلوع مرتين عن العرش ، والذي صمد في محاولة خلعه الثالثة (1293 -1340) ، اللذان أمرا ببناء مشفى وثلاثين

مسجداً ومدارس ومناسك وأقنية وحمّامات عامة . والناصر ذاته هو الذي شرع بشق القناة العملاقة التي تصل النيل بالاسكندرية . وقد خُصص لإنجاز هذا العمل الجليل أكثر من مئة ألف رجل ، فكان دليلاً أفضل من أية فكرة أخرى على تطور مفهوم العظمة والخلود الذي كان لا يزال سائداً في نفس السلاطين المسلمين . ففي ذلك العصر ، كانت القاهرة مشهورة كحاضرة عامرة ، أكثر حيوية وازدهاراً من كل مدن الإسلام المشرقي اعتباراً من القرن الثالث عشر . فكان النيل الهادىء والقنواتُ مفعمين بالمراكب التجارية أو السياحية . وكانت الحدائقُ العامة المكتظة بأشجار كثيفة وسوداء ، والمحاطة بالآلاف من أشجار النخيل ذات الأقراط الثقيلة الحمراء أو الذهبية ، تحفُّ بمبانٍ فخمة ومآذن أنيقة وسامقة . وكانت الشوارع تضجُّ بالحياة والحركة ، وتعج فيها الألوف المؤلفة من الناس الذين يتنقلون من مكانٍ إلى آخر بصعوبة ، إذْ غالباً ما كان المارُّ يضطرّ للوقوف جانباً ، مفسحاً المجال أمام قوافل الجمال المتواصلة ، المحمَّلة بمنتوجات ثمينة وبضائع وفيرة . وعلى جانبي الشارع ، يظل الناس متسمّرين تحت أشعة الشمس ، وسط الضوضاء وفي مُناخ من الغرائب والعجائب . ولا يرى المرء من هذه المنازل ، ذات الداخل المدهش ، سوى الحدائق المغلقة أو الباحات الوارفة الظلال ، ونوافير المياه والمصاطب البيضاء . أما الزينة التي لا نظير لها ، زينة المآذن التي لا تُعد ولا تُحصى والمنظر الجميل الذي لا يُنسى في قلعة صلاح الدين ، فهي تشمل كل شيء ، من مباني المدينة وسطوحها ، وتنفرد بذاتها كأنها رؤية خيالية في سماءٍ مزدانة بالنجوم ، وتستحم ليلاً في ضوء القمر .

العصر الوسيط المأثور

(القرن 11 - 15)

لقد أسهم تفكك الامبراطورية في تشجيع الآداب ، حين زاد عدد بلاطات الأمراء وعدد حماة الأدب ورعاته . فقد كانت كل سلالات الممالك ، الكبيرة والصغيرة ، راغبةً منذ ذلك الحين في مواصلة عمل العباسيينّ في المجال الأدبي .

إنّه العصر المأثور الذي يشمل العصر الوسيط ، من القرن الحادي عشر حتى القرن الخامس عشر ، والذي ظلّ الحب في خلاله ، وبكل أشكاله ، الموضوعة الرئيسة للشعر العربي ؛ فمع إبن خفاجة صار الحبّ عجائبياً ،

ومتجسداً في وصف لطيف للشيء المحبوب :

« رأيتها تخلع معطفها فرحت أُعانق هذا السيف
الذي استلّ من غمده !
. . . يا لطولها الفارع ، وتألقها وبروق نصلها ! » .

وصار القلق والخوف من الحب ، مع إبن شرف ، يلهمان الشعر الحزين .

« أثقلتُ ضعفي بوزر الحب
مثلما يحمل جسم رقيق حملاً كبيراً .
أخاف حبّكِ ، بسبب إذلاله بالذات ،
مثلما يخاف الرّاجلُ من السلاح » .

أما ابنُ حزم ، المتوفي سنة 1064 ، فهو العاشق العاطفي الذي يتلذّذ بانتظار الموعد خافقَ القلب ، يتأوهّ ويتعذّب ، يصلّي ويدمدم .

« شكوتها بصلاةٍ لعلّ الله يغفر لي
كل خطاياي إذا ما صليّت بتأوّهٍ شديد » .

وقد يكون من المفيد أن نذكر نصوصاً أخرى ، إلاّ أننا نخشى أن نجد أنفسنا أمام المواضيع ذاتها والغنى الإلهامي نفسه ، لذا سنكتفي بإشارة خاصة إلى حب المتصوّف الجنيد ، المفرط والمشبع بالمرارة والحزن والتعطش :

عندما قلتُ :
أوردني البعدُ موارد التهلكة ،

قلتِ :
لولا البعدُ لما كان للحبِّ جاذبية .

ولما قلتُ :
انظري هذا القلب الذي حرقه الوجدُ .

قلتِ :
إن لهيبَ الوجد هو الذي يطهّر الفؤاد .

وعندما قلتُ :
لم ارتكبْ إثماً ،

قلتِ :
حياتك ذاتها إثم . وما من إثم آخر يشابه هذا الإثم .

الواقع أن هذا العصر الأدبي كان له موضوعات أخرى غير الوجد . ومع مرور الزمن ، كان لا بد للمؤرخ من فرض نفسه ، بدوره ، نظراً لضرورة جمع الأحداث الغابرة وحركات الرجال المشاهير .

إن أهم كتاب وضع في هذا الصنف كان « وَفَيات الأعيان » لإبن خلّكان (1211 -1282) . فهذا الكتاب يحتوي على السِّيَر الطريفة لثمانمئة إلى تسعمئة شخصية إسلامية بارزة . وعلى الرغم من دقة الكتاب ووضوحه ، فإن مؤلفه محمود إبن خلكّان ينبّه القارىء إلى أنّ الله لم يشأ « أن يكون هناك كتاب معصوم ، ما عدا القرآن » . ووضع معاصره البوصيري (1211 -1294) قصيدة « البردى » الشهيرة في مدح النبيّ ، التي لا تزال تُغنّى في المآتم . وقد كتب الأمير المملوكي أبو الفداء (1273 -1331) سيرة نبويّة . وهناك عدد آخر من الكتّاب الذين يسردون حياة الفلاسفة والعلماء ومشاهير الرجال الآخرين ؛ هذا وقد نسي محمد عوفي ، مثلاً ، ـ أو تجاهل كما هو الحال أحياناً بين الزملاء ـ أن يذكر عُمر الخيّام ، رغم أنّه كان قد عاش قبله بقرن .

عُمَر الخيّام

يبقى اسم عمر الخيام أول اسم يخطر على البال ، عندما نذكر الشعر الفارسي . صحيح أنه يعدّ في بلاده كواحدٍ من أعظم رياضيي العصر الوسيط ، وأنّ أشعاره تُعَدُّ من تسليات العالم .

إن الكِفّي ، المعاصر للعوفي ، وكاتب السيرة الذي كتب حياة 414 فيلسوفاً وعالماً ، يرى أنّ عمر الخيام « لا نظير له في علم الفلك والفلسفة » رغم تكتمه الشديد وتجنبه تناول موضوعاتٍ حامية جداً ، تناولاً مباشراً . كان الخيام سعيداً في المجال العلمي . لكنّه حورب بشدة بسبب كتاباته الميتافيزيقية . وقد سعى

الصوفيون إلى اكتشاف رموز صوفية في شعره ، إلاّ أنهم ندّدوا به في نهاية المطاف ، بوصفه أكبر مفكّر حر في عصره . كان القرن الثالث عشر يعدّه فيلسوفاً ملحداً . واليوم ، ضاعت أعماله الفلسفية ، ولم يعاود جمعها إلاّ جزئياً ، وعلمه الجبري جرى تجاوزه ، وتقويمه الذي كان أدّق من تقويمنا لم يعد ذا قيمة ، فلم يبقَ منه سوى رباعيّاته المشهورة عالمياً والمحبوبة التي تُرجمت إلى كل اللغات . إن الربّاعي ، كما يدل إسمه عليه ، شعر من أربعة أبيات . فالفرس لا يرتبون الرباعيات ترتيباً فكرياً أو موضوعياً ، بل يرتبونها ترتيباً أبجدياً ؛ وهناك ألوف الرباعيات في الأدب الفارسي . وفي أوكسفورد هناك مخطوطة فارسية لرباعيات عمر الخيام تعود إلى العام 1460 . ولكن بعضها منسوب إلى أبي سعيد ، وبعضها منسوب إلى ابن سينا ، وليس في إمكاننا التأكيد بيقين أنّ كل الرباعيات المنسوبة إلى عمر هي حقاً له . فالرباعيات الشهيرة الموسومة بالتفاؤل تارة وبالتشاؤم تارةً ، تكرّر الكلام على عبثيّة أمور هذه الدنيا ، وتنتقد النّفاق والحقد ، وتتغنّى بالخمرة « الوردية اللون » . هل كان عمر الخيام صوفياً ، مفكراً حراً ، أم كان اشتراكياً ؟ من الممكن أن يكون ذلك كله على التوالي ! . . . . لكنه كان أيضاً أبيقورياً هادئاً ، مولعاً بأفكار أصيلة وأحلام ، وكان شاعراً حقيقياً بلا أدنى ريب .

ما أنا إلاّ طين خلقه الفنّان الإلهي
وهو يعلم ما ستصنعه يدي .
والحال ، ما من خطيئة تُرتكب إلا بأمره .
فلماذا إذن ، الجحيمُ في النهاية ؟

. . . .

هيّا ، فلنتركْ المستقبل ، ولنترك أحزاننا المجنونة
ولنستمتع بالحاضر العابر واللطيف جداً !
. . . لأنّ العاشق والمخمور لو رُميا في النّار
لصار الفردوس فارغاً مثل يدي .
وحدَه المخمور يفهم لغةَ الورود
ولا يفهمها الناس المساكين بأفكارهم السوداء .

وها هي لحيتي قد نظّفت عتبة الكهف .

لم يكن من الممكن أن تتقبّل ذلك إرادةُ الصوفيين الأشدُّ غلّواً ، لأن الأمر لا يتعلّقُ هنا بشراب غيبيّ أو بثملٍ يولّده الحبُّ الإلهي ، بل يتعلّقُ بالسُّكر الباخوسي الذي يحدثه عصير العنب (الخمر) بشدة .

كان عُمَر قد وُلد في نيسابور ، وهي مدينة ملكية في تخوم الصحراء المالحة الكبرى . يدلُّ اسمه « الخيّام » على « صانع الخيم » . توفي سنة 1214 ، وإليكم ما يرويه عنه نظام الرُّوضي :

« في منتصف الوليمة التي أولمناها معاً (سنة 506 هجرية) سمعت عُمَر يقول ، و« هذه حجة حقيقيّة » : « سيكون قبري في مكانٍ تتساقط فيه أزهارُ الأشجار مرّتين في السنة . وبدا لي هذا القول غريباً لا يمكن تصديقه ، رغم أنه كان موثوقاً عندي ، إذْ لا يمكن لرجلٍ كهذا أن يتفوّه بكلامٍ فارغ . وعندما وصلت إلى نيسابور سنة 530 هجرية ، كان قد مضى 13 سنة على فقدان هذه الدنيا لعمر الخيام . . . فمضيت لزيارة ضريحه . . . كان قائماً بالقرب من جدارٍ ، وكانت فوقه أشجار الإجاص والدرّاق التي تؤرجح أغصانها فيتساقط منها عدد كبير من الأزهار وتغطي ضريحه كله . عندها تذكّرتُ ما كان يقول لي (منذ 24 سنة) . . . . ورحتُ أبكي ، لأنني لم أرَ على وجه الأرض المعمورة شخصاً مثله » .

كان عمر قد عاش 85 سنة ؛ ورباعياته البالغ عدد. ا ألفاً ومئتي رباعية ، حتى لو تجاسر المرء على القول إنها صادرة كلها من معينٍ واحد ، لم تلعب سوى دورٍ ضئيل في تلك الحياة الطويلة ، المكرسة بوجهٍ خاص لحل المعادلات التكعيبية ، ونقد مصادرات إقليدس الأقل أهميّةً ، حتى في نظر الرياضي ، من عبير وروده .

انحطاط أدبي

إن تكاثر الممالك كان قد شجع في آنٍ نمو النزعات القومية في مختلف البلدان التي كانت تؤلف عالم الإسلام ؛ فكان كل واحد يريد تمجيد قومه ، وبدأ منذ ذلك العصر الولعُ بدراسة رجال كل بلدٍ وأموره . فكما كان هناك منازعات

سياسية ، كان هناك تنافس أدبي بين الأتراك والفرس ، بين العراقيين والشاميين ، بين عرب الشمال وعرب الجنوب . وخلافاً للعادة ، لم تكن تلك المنازعات خصبة بحيث تجدّد خلق المناخ التنافسي الذي عرفته عصور الإبداع . كان قد ولّى العصر الذهبي للتقدمات العلمية والأدبية الباهرة . وكانت بداية الانحطاط الذي سيتواصل على امتداد القرون التالية .

كان الإيرانيون ينظمون عدّة حكايات غرامية على شكل قصائد منظومة ومقبولة من حيث البناء الأدبي ، حظيت بنجاحٍ كبير . والحكاية الأكثر شعبية في الشعر الفارسي ظهرت سنة 1188 ، بعنوان « ليلى والمجنون » لنظامي . وهذا ، على خلاف عمر ، كان مشهوراً بورعه واعتداله وتعلّقه بالشعر . كان مجنونه هائماً بليلى التي زوّجها أبوها لشخصٍ آخر . والتحقت به ذات يوم ، ولكنْ لتموت إلى جانبه .

هذه هي الموضوعة الخالدة في الشعر الشرقي ، حيث لا يمكن تصور الحكايات الغرامية بلا دموع وعذاب وتمزق ، وفي ذلك العصر ، كان الأدبُ الصوفي يتغنى بالعشق الإلهي . إن فريد الدين العطّار ، أحد المبدعين في هذا اللون ، وُلد في نيشابور سنة 1119 ، ولا يقلُّ عدد أشعاره عن 200000 بيت . إن كتابه « منطق الطير » الشهير الذي تناقلته الأجيال ، هو قصيدة رمزية ؛ فيها تبحث الطيور المسافرةُ عن ملك ؛ الطيرُ هم الصوفيون الباحثون عن الحقيقة .

هناك استاذ آخر في هذا النوع الأدبي ، هو ابن الفارض المولود في القاهرة سنة 1181 والمعبّر عن كل موضوعات التصوف بأشعار لاهبة . ذاك أن حدّة المشاعر المعبّر عنها ، قوية وحارة لدرجة أن المرء يظنُّ أنه يقرأ قصيدة حب جسدي ورغبات جسدية ، إذا لم تأتِ كلمة من هنا ، ويأتِ بيت شعر من هناك ، ليذكّره بأنه يقرأ شعراً « مستوحى روحياً » . لقد أضحت هذه القصائد مأثورةً ، وهي لا تزال ترتّل جماعياً في جلسات وجد الدراويش .

في عصر سعدي

غير أن سعدي هو ألمع انعكاس في مرحلة الانحطاط تلك . فقد وُلد سنة 1184 في شيراز ، ودرس في المدرسة السنية النظامية في بغداد ، وسافر كثيراً في

بلاد الإسلام والأماكن المتاخمة . قاتل ضد الصليبيين ، وأُسر . ثم أُطلق سراحه بفدية ، ورأى أن من واجبه أن يتزوج من ابنة الرجل الذي اعتقه . في سن الخمسين ، عاد إلى شيراز حيث عاش خمسين عاماً أخرى ، وتعود كل مؤلفاته إلى النصف الثاني من حياته .

كتب سعدي « البندنامه » أو كتاب العِبر ، والديوان وهو مجموعة قصائد في الورع والتقوى ، و« الجوليستان » أو حديقة الورود ، وهو مجموعة لطائف وأشعار ، و« البستان » الذي يعرض فيه فلسفته المفعمة بالأحاسيس . وتستمد هذه الأعمال قيمتها من خيال وحيها وغنى صورها . فقد كان سعدي يحس الجمال بكل أشكاله ، وكان في فنه سيد التعبير عن أفكاره ببلاغة وعباراتٍ ساحرة ومجانسات جميلة جداً .

ليس في الإمكان أن نتناول هنا المقاطع الرائعة التي يعرب فيها عن إحساسه الرقيق ، ولكننا لا نستطيع إلاّ أن نجني بعض ثمار تجربته الغنية :

من الممكن أنّ يجلس عشرة دراويش على حصيرة واحدة
ولكن من المستحيل أنْ يجتمع ملكان في مملكة واحدة .

لئن توجّب على العقل أن يغيب عن سطح الأرض
فلن يعود أحدٌ قادراً على القول : إني جاهلٌ .

الجواد العربي عدا كثيراً بكل قوّته ثم انهار ؛
أما الجمل فإنه يسير ليلاً نهاراً بخطى وئيدة
ولذلك يصل إلى نهاية رحلته .

إن خفّة جوزة دليل على أنها خاوية .

الخلاصة أن سعدي كان في آنٍ شاعراً وفيلسوفاً ؛ لكنه فيلسوف سهل المنال وشاعر مفعم بالحكمة . توفي نحو العام 1280 . واقترن القرن التالي باسم حافظ الشيرازي .

حافظ الشيرازي

كان أكبر شاعر غنائي في إيران ، وربما في المشرق كله . فتركيا وأفغانستان

والهند كلّها تدعي أنه شاعرها القومي ومجدها الأثيل ، كان مفعماً بالحكمة والصفاء ، ولم يكن مقصّراً في النقد ؛ نقد نفاق معاصريه وحتى بعض رجال الدين إذا لزم الأمر .

« اشرب على مهل ، لأن الشيخ والحافظ والمفتي والمحتسب كلهم منافقون إذا تأملتهم عن كثب » .

لكنه من جهةٍ ثانية ممتلىء فتنةً ، مفعم بالغواية الرقيقة ، عندما يعود الربيع :

« في كل عام يمنح العالم القديم
شباباً جديداً .
هبوبُ النسيم
يحمل عطر المسك .
شجرةُ العنب
تمدُّ كأسها الأرجوانية
للزنبقة البيضاء
وعيون النرجس
تتأمل الزنبق بعشقٍ .
بعد عذاب غيابٍ طويل
ينطلق العندليب
وهو يزقزق فرحاً
إلى أكمام الزّهر »

. . . .

فيا قلب ! لا تؤجل مسرّة اليوم ،
فمن سيضمن لك ، غداً ،
قيمة حياتك ؟ »

الفصل الثالث والعشرون

السلالات الأخيرة

غزو المغول

بعدما بذل الإسلام جهداً كبيراً سمح له بالصمود والمقاومة على امتداد المبارزة الطويلة مع الصليبيين . استسلم الأتراك السلاجقة ، بدورهم ، لحياة الترف وتركوا الامبراطورية تنقسم إلى ممالك صغرى ، بعضها ساطع حقاً ، لكنَّ معظمها في حالة تجابه واقتتال . إلاّ أن قبائل ساغبةً في سهوبها الصحراوية الكثيبة ، في الشرق ، كانت تتجمّع عند الحدود . فالقاعدة هي نفسها على الدوام : عندما لا تتوفّر وسائل العيش في أرض جدباء ، يهاجر سكّانها إلى البلاد الأكثر ثراء . هذا هو التفسير الدائم لتيارات الغزو الكبرى تلك ، التي تطغى بشكلٍ فريد على كل أحداث التاريخ الأخرى .

فمنذ أيام جنكيزخان ، كان الفارس المغولي الخالد ، المرعب مثل أجداده القدماء ، الهونزا ، والأفضل تجهيزاً وانضباطاً منهم ، قد بدأ يضع يده على آسيا الوسطى . سنة 1216 ، قام ستون ألف مغولي مسلحين بأقواس عجيبة تطلق أسهمها رشقاتٍ وزخّات ، بإحراز النصر على جيش محمد شاه الخوارزمي . وقام جيشٌ آخر ، بقيادة جنكيز نفسه ، باجتياح بُخارى ؛ فعسكرت الجياد الآسيوية الصغيرة في الجوامع ، الملاذ الشهير لأهل التقوى والعلم . وعبثاً أعلنت سمرقند وبخارى استسلامهما ، إذْ كانتا ضحيتين لمجزرة بالغة الشدّة لدرجة أنهما لم تتمكنا ، بعد مئة عام ، من النهوض واستئناف حياتهما العادية . وواصل أحد أبناء جنكيز اجتياحه ، فاستباح خراسان ودمّر مرو . أما نيسابور فقد حاربت ببسالة ، لكنها انهارت سنة 1221 ، وجرى نهب الرّي . كذلك ذهبت هباءً

محاولة أحد أبناء محمّد شاه ، (جلال الدين) ، الصمود عند نهر المندوس ، فانكسر هناك ، وقُلبت الحيرة رأساً على عقب . انقلب كل شيء إلى انقاض وحداد ودمار ، هناك حيث كانت ترتفع بالأمس المدن الزاهرة ؛ وجرى تدمير كل المراكز الثقافية للإسلام الشرقي ، وتحولت آلام المساجد والجوامع إلى ركام ، والمكتبات إلى رماد . أما الأهالي الذين لم يتمكنوا من الفرار فقد أُعدموا بالسيف أو ذُبحوا ، وتكوّنت أهرامات مرعبة من رؤوس الضحايا المشوّهة . وكانت غاية تلك الوحشية المبرمجة ، المنظمة عمداً ، هي القضاء التام على كل محاولة مقاومة .

إلا أن جلال الدين كان قد جهّز جيشاً في ديار بكر ؛ وكان جيش من ثلاثمئة ألف رجل منطلقاً من منغوليا ، بقيادة أوغولي ، ابن جنكيز وخليفته ، ومشبعاً بجنون الاجتياح ذاته ؛ فخرّب الغازي أذربيجان وبلاد الرافدين الشمالية وجورجيا وأرمينيا . وأدّى موت أوغولي سنة 1241 إلى انقاذ ما تبقى من الإسلام . وبعد استراحة قصيرة ، انهمرت موجة غزو جديدة ، بقيادة هولاكو حفيد جنكيز ؛ فتقدمت عبر سمرقند وبقترة ، وكنست الممالك الصغيرة التي قامت على أنقاض الخلافة ، وسارت الحملة إلى بغداد . في كانون الثاني / يناير ، انقضّت آلات الحصار والدمار على العاصمة ، وفتحت ثغرة في أسوارها . وخرج الوزير الأول لمناقشة شروط الاستسلام ، غير أن هولاكو لم يستقبله .

كان آخر خليفة عباسي المعتصم ، زاهداً وعالماً ، متكرّساً للدين والكتب . ويُقال إنّ نبوءةً قد أبلغت إلى هولاكو؛ « لئن قُتل الخليفة ، فإن العالم كله سيهتز ، والشمس ستنكسف ، والمطر سيتوقف عن السقوط والنبات سينقطع عن النمو » . ولكنّ المغولي الواثق من منجميه لم يتأثر بتلك النبوءة . في 10 شباط/ فبراير كانت جحافله تدخل المدينة عنوةً ، حيث كان الخليفة مع ولديه و 300 من كبار موظفيه قد جاؤوه مستسلمين بلا قيد أو شرط . يُقال أن 800000 نسمة ذُبحوا ، وأُعدم 24000 عالِم دين ، وقُتل الآلاف من العلماء والشعراء والمتبحرين الراسخين في العلم ـ الأبرياء هم على الدوام ضحايا مثل هذه المجازر المرعبة ، وجرى نهب أو تدمير كنوز تراكمت منذ عدة قرون . وقذفت الكتبُ في دجلة ، فسدّت النهر أو كادت . « فبين الضفتين كانت الكتب تشكّل جسراً. . . الأمر الذي حدا بالغزاة لإحراق الباقي ، خوفاً من انسداد النهر » . وخلال عدة

أيام ظلت مياه دجلة سوداء من جراء حبر ملايين الكتب والمخطوطات التي كانت قد قُذفت فيه ، وبعدما أرغم الخليفة على كشف مخابىء ثرواته ، جرى إعدامه هو وعائلته . وهكذا ، منذ 600 سنة ، لم يعد للعالم الإسلامي زعيم ديني ولا قائد .

سنة 1260 ، استولى هولاكو على حماه وحمص وحلب ، حيث يُقال إن 50000 شخص قتلوا بحد السيف . ثم قفل عائداً إلى منغوليا حيث كان شقيقه ، الخان الأكبر قد مات . أما الجيش الذي خلّفه وراءه ، فقد تابع غزوه واحتل سورية ، ولكنّه في عين جالوت ، بالقرب من الناصرة ، وجد نفسه فجأة أمام جيش مصري ، بقيادة قطز وبيبرس ؛ وكان يتعينّ على هذا الجيش الذي أحرز انتصاراً باهظاً جداً ، أنْ يحمي مصر ، وربما أوروبا ، من الخطر المغولي . وعندما انكفأ المدُّ المرعب ، خلّف وراءه بلداً محطماً ، مجزءاً من حيث بنيته واقتصاده ، وشعباً منكسراً بالمعنى الفيزيولوجي ، بلا أُطر وديناميكية .

لقد كثر الجدال حول هذا الانهيار الذي يكمن سببه المباشر في السلسلة الطويلة من الهزائم والنكسات التي كانت قد ألمّت بالجيوش الإسلامية قبل انتصار عين جالوت . ففي أزمنة أخرى ، كان يمكنها أن تجابه بقوة أشدُّ وربما كانت قادرة في نهاية المطاف على وقف حملة الغزو المدمر . وكان يمكن للمغولي أن ينكفىء مثلما انكفأ الهونزا في الحقول الكاتالونية ، وتراجع العرب أنفسهم في بواتييه .

« إننا نعلم ، نحن الحضارات الأخرى ، أننا حضارات بائدة ! » هذا القول المُردّد غالباً ، المؤكد بالتجربة ، غالباً ما يجري نسيانه أو تناسيه . مع ذلك التاريخ ماثل هنا بكل ذكرياته المرعبة ؛ فالجيران المتضّورون جوعاً هم دائماً عند الأبواب ، مستعدون لاجتيازها عندما تسنح الفرصة المناسبة .

إن السبب الرئيس لسقوط الحضارة الإسلامية المريع لا يكمن في الهجمة الأتية من الخارج ، بل يكمن في الانحلال البطيء للقوى الداخلية ولتماسكها ، وفي الفوضى السياسية والمعنوية الناجمة عن الفساد والعجز ، عن الكسل والجبن ، والناجمة أيضاً عن نقص معين في التكيّف الطبيعي مع النمو المعياري السويّ للحضارة . صحيح أن الخان الأكبر ، وبعد 50 سنة من تقويض الامبراطورية ، اعترف بالإسلام ديناً للدولة . فكان ذلك انتصاراً معنوياً كبيراً ، إلا أن وحدة

الامبراطورية كانت قد ضُربت في صميمها .

المماليك

تشكّل سلالةُ المماليك ، الأخيرة في العالم العربي ، النهاية المنطقية للتفكك الذي كان يدمر الامبراطورية الإسلامية منذ أكثر من أربعة قرون ؛ فقد كانت سلالاتُ مصر ، على غرار خلفاء بغداد ، قد كوّنت لنفسها حرساً مؤلفاً من العبيد الأجانب . وكانت النتيجة هي ذاتها ، فقد حكم الحرس المرتزق الدولةَ أولاً ، ثم عيّن قائدها ، السلطان . ولم تعد هناك قواعد خلافة واستخلاف ، فالقوي هو الذي يحكم . لكن أولئك السلاطين ، العبيد من حيث أعراقهم ، وجنسياتهم المختلفة الغريبة تماماً عن مصر ، قد قاموا مع ذلك بإنجاز أعمالٍ جليلة في بعض الأحيان .

كان بيبرس أشهرهم ، فقد وُلد عبداً تركياً ، وكان يتحلى بمواصفات القائد الرفيعة ، وكان بيبرس قد أحرز انتصاراته الأولى على المغول ، لكنه كان بوجهٍ خاص بطل المعركة المظفّرة التي خاضها ضد الصليبيين . فهو قائد عسكري وسياسي ، كان قد جدّد تنظيم الجيش ، وشجع الأعمال العامة ، وأنشأ مؤسسات دينية وتعليمية ، ومستشفيات ومساجد ، وكان كسلطان متنوّر قد عقد معاهداتٍ تحالفية مع الخان الأكبر ذي الرهط الذهبي ، ومع شارل دانجو ملك صقلية ، ومع جاك الأراغوني (Jacques d'Aragon) ، وبكل مهارة عيّن خليفةً ، ظلاً ، من العباسيين الناجين من مجزرة بغداد . والحقيقة أنه لم يكن سوى خليفة اسمياً فقط ، يتولى مرتبة روحية دون أية سلطة زمنية ، لكن مبدأ الخلافة استمر خلال عدّة قرون . كان خلفاء بيبرس أقلّ سطوعاً منه . فقد فرضوا ضرائب مفرطة ، وتكرّرت الأوبئة والمجاعات ، وراحت الفوضى الأبدية تدمّر مصر شيئاً فشيئاً . واعتباراً من القرن الرابع عشر ، لم تعد أسماء أولئك السلاطين المماليك تستحق الذُكر ، فهم لا يتميزون إلاّ بجهلهم وشراستهم . وكان أحدهم قد أمر بإعدام أطبائه لأنهم لم يتمكنوا من علاج أمراضه ؛ وهناك آخر اشتهر فقط بجهله وعدم فهمه وعجزه عن توقيع المعاملات الرسمية ؛ وأكثر طرافةً كان ذلك السلطان المملوك الذي أمر بقطع لسان خيميائيٍ عجز عن تحويل أوكسيد الرصاص إلى ذهب

كذلك لا بد من الإضافة أن أولئك الزعماء المماليك غالباً ما كانوا رجال أعمال ، بل كانوا تجاراً مُحجلين . يروى أنَّ أحدهم احتكر الفلفل ثم عاود بيعه لرعيته بأسعارٍ باهظة وأرباحٍ كبيرة . ولم يكتفِ بذلك ، فكرَّر العملية نفسها مع السكر .

ومن الطبيعي أن يؤدي تدبير سيء للشأن العام إلى انهيار الاقتصاد وندرة الحبوب وتحوّل المجاعة إلى محنة مزمنة في مصر التعسة وسورية التي كانت تابعةً لها . ويقدر أنَّ البلدين فقدا في ظل المماليك أكثر من ثلثي سكانهما . أخيراً جاء غزو تيمورلنك في مطلع القرن الخامس عشر ، ليعيث فساداً في سوريةِ حيث تم القضاء على ما تبقى فيها من جوامع وآثار ومدارس .

هناك سبب آخر سيحدّد كسوف الحضارة العربية شيئاً فشيئاً . ففي أواخر القرن الخامس عشر ، كان فاسكو دي غاما قد طاف مرتين حول رأس الرجاء الصالح ، مما أدّى إلى تحول تجارة الهند والجزيرة العربية عن المرافىء السورية والمصرية . وكان مصدر مهّم من المداخيل قد ضاع نهائياً . وإن اكتشاف أميركا ، من جهة ثانية ، سجل بداية عصر جديد . فصارت النشاطات تنصب نحو الغرب ، وراح مركز جاذبية الحضارة ، يتحرَّك في هذا الاتجاه . ولكنّ يبدو أن القدر شاء أن تتلقى الامبراطورية العربية الشرقية رصاصة الرحمة على يد الأتراك . فبعد حلب ، قام العثمانيون ، أبناء عم السلاجقة ، الذين كانوا قد استولوا على القسطنطينية ، بإحراز النصر سنة 1516 على الجيش المملوكي ، فاستولوا على سورية ، وقلبوا سلطنة القاهرة واحتلوا المدن المقدسة . ولم يتردد سلطان القسطنطينية التركي في تلقيب نفسه بألقاب الخلافة ، وبإعلان نفسه خليفة للمسلمين في وقتٍ لاحق . هكذا جراء إحياء الامبراطورية العربية الشرقية .

مملكة غرناطة

يجدر بنا الآن أن نعود إلى الامبراطورية العربية المغربية . فرهبان يوسف بن تاشفين المحاربون ، سرعان ما فسدوا بعد احتكاكهم بالعادات والتقاليد الأندلسيّة . وفي جبال جنوب مراكش ، التي أهمل خلفاؤه السهر عليها ، راحت

القبائل تسير جماعياً وراء مهديٍ كان يبشّر بالعودة إلى بساطة الحياة والإيمان . وحلّت سلالة جيدة (الموحّدون) محل المرابطين في المغرب أولاً ، وفي اسبانيا ثانياً .

وتكرّر التاريخ ، فكأنه هو نفسه دائماً بخطوطه الكبرى . لقد جدّد هؤلاء المحاربون الفاضلون الأمن والنظام وعاد الازدهار وتطورت العلوم والفنون . ثم جاء مجدداً عصر البذخ مع كل عواقبه المشؤومة ، وضاعت خصال المحاربين ، وفسدت السلطة وضعفت وتمزقت ، فجاء آخرون ليحلّوا محلهم . باختصار ، كان المسار في المغرب مساراً تفككياً لا يختلف بشيءٍ عن المسار المماثل في المشرق .

إن تقلبّات سلالة الموحدين والدويلات الناشئة عن تفكك السلالة ، لا تدخل في تاريخ الحضارة العربية . لقد عرضنا هذه الناحية في فصل سابق ، حين تناولنا النتائج الباهرة في المغرب التي ترتّبت على الاحتكاك والاتصال بين المسلمين والمسيحيين . لحسن الحظ أن تلك العلاقات استمرت وتواصلت ، حتى خلال مراحل الحرب الدائمة . ولكن حصل ذات يوم أن توّحد المسيحيون ، الذين كانوا منقسمين جداً حتى ذلك الحين ، وهاجموا الجيش الإسلامي الذي كان يقوده محمّد الناصر (1199-1214) . كان ابن يوسف يعقوب ، المشهور تماماً بسبب إقدامه الجسور على التضحية بابن رشد إرضاءً للفقهاء واجتذاباً لهم إلى سياسته الحربية . كان الناصر مولعاً فقط باللهو ، فلا تهمه الفلسفة ولا الدين . انكسر سنة 1212 في لاس نافاس دي تولوزا (Las Navas de Tolosa) . ومنذ ذلك الحين ، راح الاسترداد المصيحي يتصاعد . فسقطت قرطبة سنة 1236 ، وڤالانسا سنة 1238 ، وإشبيلية سنة 1248 . ولما حوصر العرب المغاربة من كل جهة ، لاذوا بجبالٍ سيير نيڤادا ، في مملكة غرناطة ، التي صمدت قرنين وعكست آخر ظلٍ على القوة الإسلامية المتناهية في أوروبا .

كان الموحّدون أولاً من كبار بنّائي القلاع ، وثانياً من كبار بنّائي القصور . وما قصر إشبيلية سوى حصيلة اندماج هذين الفنين المعماريين ؛ وقد اتخذه الملوك النصارى مقراً لهم منذ 1248 ، ووسّعوه . إن القصر أثر فني مغربي / مسيحي ، وكذلك الحال بالنسبة لسانتا ماريا لابلانكا في طليطلة والكوربيس كريستي في

سغوفيا . وإن البرج المربع الرائع في جيرالدا ، البالغ ارتفاعه 94 متراً ، هو شقيق برج الحسن في الرباط والكتبيّة في مراكش ، وهو أيضاً من الفن المغربي / المسيحي في ثلثه الأعلى ، الذي ينسجم تماماً مع قاعدته الفنية المغربية . وإن شرفاته القائمة على أقواس ومشبّكاته التي تشبه منمنماتٍ حجرية مصقولة بدقّة ، إنما تجعله جوهرة معمارية . وإن الجيرالد تستمد اسمها من تمثال برونزي ديني ينتصب فوقها ويدور ، رغم وزنه الثقيل ، لدى هبوب أقل نسمة هواء . ومن النافل القول إن الجيرالدا لا تمثل الدين الاسباني الذي جرى الدفاع عنه بالدم دائماً في هذا البلد الفروسي .

لا يزال قصر الحمراء في غرناطة من أجمل مباني اسبانيا المسلمة ، وهو في الوقت ذاته من أروع انجازات العبقرية البشرية ؛ وهو يستمد إسمه من الصفة العربية / أحمر / حمراء . بدأ تشييده سنة 1298 ، وفقاً لتصاميم جليلة ، وكان لا بد لبنائه من أن يستمر طويلاً جداً . فالحَرَمُ القديم يتسع لأربعين ألف مقاتل ، غير أن القرون التالية أحالت هذه القلعة الهائلة إلى عددٍ من القصور والمناور التي تُعَدّ هي أيضاً روائع بذاتها . ذاك أن كل ما كان يمكن لعبقرية الإنسان أن تتخيّله من إعجازٍ وجمال عجيب ، قد اجتمع في هذه الصخرة المصقولة ، المزخرفة بأبدع الزخارف في مدينة فريدة وعجيبة . إن قصر الحمراء المعلّق بين الأرض والسماء يشرف على آفاق الأرياف البعيدة حيث شمس اسبانيا اللاهبة ومياه جبال السييرا الغزيرة تولّد أغنى الزراعات والثقافات . وعند أقدامه تمتد بانوراما مدينة مبرقشة ، تسبح في أنوار البحر المتوسط . ونصل إليه عبر وادٍ مقدّس صغير ، مستغرق في ظلٍ ظليل وحميم ، هو أشبه ما يكون بوادي الهدى . ثم يبرز المنظر الساحر لقصور وجناتٍ تنشر الأريج من أكواخها وأبوابها وأعمدتها . فالرخام في كل مكان ، وكذلك الأشجار والأزهار . ويبدو الورد والياسمين أكثر تفتحاً وازدهاراً منه في أي مكان آخر ؛ وتكاد أغصان الرمان والليمون تنكسر من شدّة حملها . إن ماء السييرا البعيدة هو الذي يوفر للحدائق رطوبة عجيبة ، بينما تلتهب شمس حادة في كل أنحاء الجوار . إن الماء يتدفق من كل جهة ، وينساب على الفسيفساء والرخام ، وينهمر زخات زخات ، تتألق في وهج الشمس . هناك نص شعري عربي منقوش فوق نبع قاعة الأسود ، يوضح

أن المادة التي صنع الحوضُ منها هي كعرق اللؤلؤ في الماء الصافي الذي يترقرق ساطعاً ؛ « انظر الماء وانظر القاع ، ولن تعرف ما إذا الماء هو الثابت أو الرخام هو الذي يجري » .

لقد تلاعب هنا أساتذة في فنّ المزاوجة الصوفية بين الحجر والماء وتفننوا في مزجه مع قوانين الجاذبية والمستوى والضوء . إن حائطاً من الفسيفساء ينكسر على الموجة الضوئية ، ويغدو هو ذاته متماوجاً ، مع ظلال ٍ تنزلق وهي ترتجف . في حوض قصر الرياحين ، يتأرجح باستمرار الرواقُ والوريقات التي يعكسها . وفي الباحة حيث يربض 12 أسداً منقوشاً على رخام ، في حراسة ينبوع مرمريّ ، تنسحر العينُ بتناغم أبعاده وأشكاله المتناسبة ورشاقة أعمدته وهيافة أقواسه الصغيرة . ويندهش المشاهد وهو يستعرض غنى العقود المتدلية ونقوش السقوف والرسوم والزركشات والنمنمات المتعاشقة والمتشابكة عبر الخطوط والألوان . إن هذا المجمَّع من قصور وشرفات وحدائق وعيون ٍ يجسِّد في آن ذروة الفن الإسلامي وانحطاطه ويعبِّر عن طاقةٍ غازيةٍ راحت تنحلُّ في البذخ ، ويفصح عن القوة المتصاعدة نحو الأناقة والعظمة المتحولين إلى رقة . وعليه ، فإنَّ الخصال البطولية التي كانت قد صنعت عالماً فتحياً راحت تضعف وتخبو رويداً رويداً تحت وطأة الرخاء المفرط والغنى الفاحش . لقد ترتّب على ذلك كله استرخاء في العيش الرغيد ودعوة دئمة إلى الراحة والبطالة . إنّ النزلاء اللطفاء في جنة عدن هذه ما عادوا قادرين على الاتصاف بالخصال الحربية . وهكذا اتخذوا من الشعار المتواضع الذي حفره مؤسس القصر في كل أرجائه « لا فاتح إلاّ الله » شعاراً وقاعدة لعملهم . لقد استطاع أمراء الأندلس بمهارتهم الدبلوماسية أنْ ينقذوا مملكة غرناطة لأجل طويل ، لكنهم لم يتمكنّوا في نهاية الأمر من الحيلولة دون احتلال المسيحيين لها بالقوة . لقد عجز آخر أمرائها عن المقاومة ، فلم يبقَ أمامه سوى التفاوض وتسليم غرناطة في الثاني من كانون الثاني / يناير سنة 1492 . يُقال إن الأمير المسكين تمنى على الملك المسيحي أن يسد بالحجارة الباب الذي يغادر منه ذلك القصر الساحر، حتى لا يمر أحد منه بعد ذلك العهد . وعندما غادر آخر القصر ، كانت عيناه تعانقان المنظر الأخّاذ والدموع تنفر منهما . وسواء كانت هذه الرواية صحيحة أو كاذبة ، فإن التاريخ احتفظ بالصورة الكئيبة لآخر

آهٍ أطلقها العربي المغربي .

هناك حي كبير في مدينة فاس يُدعى « الأندلس » . هناك يعيش المنحدرون من مهاجري غرناطة ، ومعظمهم يحتفظ بذكرى مفتاح بيوت آبائهم . وإن إحدى أغانيهم الشهيرة ، وأسفي ! ، تذكر بكل أسى المدينة التي لم تَمّحي ذكراها بعد : « وآسفي على الماضي ، على أيام الفرح والمسرّة والأمسيات الهادئة ! فيا بيوت الأندلس التي غادرناكِ ، لن أنساكِ أبداً » . والعبارةُ ذاتها تتكرر دائماً ؛ ويُقال في معرض تفسير حزنِ حالمٍ ، لا يُفهم دائماً معنى كلامه : « إنّه يحلم بغرناطة » .

الفصل الرابع والعشرون

سبات الإسلام

توسّع أوروبا

بعد سقوط غرناطة ، تجاسر الاسبانيون على مطاردة المسلمين حتى افريقيا . في مطلع القرن السادس عشر استولوا ، بالتوالي ، على مليلة ، مرسى الكبير ، وهران ، بجاية ، الجزائر المدينة . لكنهم كانوا يمارسون سياسة القضمات الصغيرة مما جعل الحاميات الاسبانية تتمركز في المدن ، كما لو كانت قوات محاصرة . واستعان بالأتراك العربُ والبربرُ الذين ما كانوا يتحمّلون وطأة احتلال . وضع الأتراك أقدامهم في شمال إفريقيا سنة 1517 ؛ فبدأت مرحلة جديدة استمرت حتى العام 1830 . وقامت حكومة عسكرية في مدينة الجزائر ، موالية للآستانة ، وأرغمت شارلكان (Charles Quint) على التراجع بعد قدومه لمحاصرة المدينة بـ 500 بارجة حربية و35000 رجل . منذ ذلك الحين ، صار الأتراك يسيطرون على البحر المتوسط بكامله . وعندئذٍ جرى تنظيم حملة قرصنة كبرى ؛ موجهة بادىء الأمر ضد السفن الاسبانية ، ثم اتسعت اتساعاً كبيراً حتى صارت كل أساطيل أوروبا من ضحاياها . عملياً ، ظلّ القراصنة مسيطرين على البحر المتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وحتى الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة 1830 .

غير أنَّ فرنسا لن ينقطع حضورها في إفريقيا اعتباراً من عام 1533 ، على شكل مرافىء اتصال ومنشآت تجارية مرخّصة ؛ ومنذ 1577 ، عينت قنصلاً لها في مدينة الجزائر ، وحذت حذوها الدول الأوروبية الأخرى التي كانت ترغب هي أيضاً في حماية تجارتها . لكن الباي فرض عليها غرامة كبيرة . سنة 1571 ، انهزم

اسطول الباي في ليپانت ، ولكن السفن الأوروبية ظلّت مع ذلك عرضة لأعمال أولئك القراصنة . فعلى الرغم من الغرامة المدفوعة ، كانت تُصادر البضائع وتُحجز مراكب الشحن وتُباع طواقمها عبيداً . أمام وضع كهذا ، قامت انكلترا بشن حملات انتقامية سنة 1622 ,1655 و1672 . وفي سنة 1682 ، قامت فرنسا بقصف مدينة الجزائر بواسطة البارجة دوكين Duquesne ، وسنة 1688 بواسطة البارجة إستري ، وعلى امتداد القرن الثامن عشر برمته ، كانت جميع الدول الأوروبية ، وحتى الولايات المتحدة منذ ظهورها على المسرح ، تدفع غرامة لداي الجزائر ، ومع ذلك فلم تلقِ القرصنة سلاحها ، فكان البحر المتوسط مزبداً حقاً . عندها قرر مؤتمر ڤيينا التخلّص من القرصنة والقراصنة ؛ فبدأت حملة بحرية انكلو- هولندية سنة 1816 ، كانت قد سبقتها حملة أميركية قبل ذلك بعام ، ولكنها لم تحظَ بغير وعود لم تبدّلْ شيئاً في الوضع القائم .

سنة 1830 تقرّر شن حملة فرنسية بموافقة كل المستشاريات الأوروبية ، باستثناء انكلترا . وكان هدفها حسب مؤتمر ڤيينا ذاته : القضاء نهائياً على القرصنة ، الوقف المطلق لأعمال الرق والنخاسة ، إلغاء الغرامة التي تدفعها القوى عبثاً للوصاية والحماية . ومن جرّاء عمل فرنسا الصارم ، جرى تنفيذ المهمة بسرعة ، إلاّ أن المنتدبين سرعان ما نسوا المهمة التي انتدبت لها فرنسا . حتى أن البربر الذين أطلقوا من الوصاية العربية التي كانت تقمعهم في إفريقيا ، لم يستقبلوا فرنسا أي استقبالٍ حسن .

تقدم الأتراك وتأخرهم

بعد الاستيلاء على القسطنطينية سنة 1453 ، صارت الامبراطورية التركية تشمل جميع الأقطار العربية ما عدا المغرب وبعض شبه جزيرة البلقان . هذا ، ولم يكن السلطان القائد السياسي لامبراطورية واسعة وحسب ، بل صار منذ 1517 بصفته خليفةً ، زعيماً دينياً للأمة الإسلامية . فبدأ بفتح البلاد المسيحية ، فاستولى على الصرب وبوسنة (Bosnie) ومقدونية وهرزيغوڤينيا ومورية وضرب الحصار حول ڤيينا سنة 1529 . فواجهته البلاد المسيحية بشدّة ؛ ومع معاهدة السلم في كارلوڤيتز سنة 1699 ، تخلّى التركي عن هنغاريا ومورية وبودوليا وآزو . وفي سنة 1718 ، انعتقت من هيمنته ألبانيا ودلماطيا وهرزيغوڤينيا ؛ وفي سنة 1775

جاء دور الكريمي وبوكوڤين ، ودور بصربيًا سنة 1812 . أخيراً بعد ناڤارين التي خسرها الأتراك سنة 1827 ، خسروا نهائياً اليونان والصرب ومولداڤيا وڤالاشيا .

منذ ذلك الحين لم تعد تركيا « سوى الرجل المريض » الذي تترصده الممالك الأوروبية وتهتمّ كثيراً بوراثته والحلول محله ؛ فروسيا مهتمة بالمضائق ، وانكلترا بطريق الهند ـ والنمسا ـ هنغاريا ـ بالبلقان ـ وألمانيا مهتمة « بحلمها الشرقي » ـ وايطاليا بإقامة امبراطورية افريقية ـ وفرنسا بدورها كحامية للأقليّات المسيحية في المشرق .

فبعد غزو الجزائر سنة 1830 ، واحتلال تونس سنة 1881 تم إخراج التركي أخيراً من البحر المتوسط . وبعد احتلال انكلترا لقبرص أولاً ، ثم لمصر سنة 1881 ، وطرابلس الغرب ، واحتلال ايطاليا لطبرق وبنغازي سنة 1911 ، جرى طرد التركي من شرق البحر المتوسط ، وعندما انتهت الحرب البلقانية سنة 1912 ، لم تعد تركيا تنتمي إلى أوروبا . وما عدا بعض الاستثناءات ، رزحت الشعوب الإسلامية قانونياً أو عملياً تحت نير الاستعمار والتبعية للأمم الأوروبية ، وبدا أن قدر الإسلام السياسي قد حُسم .

إن هذه الخلاصة الوجيزة أظهرت مدى تفكك الامبراطورية سياسياً واجتماعياً منذ ما قبل العام 1000 ، إذْ خرجت منهكة من مبارزة طويلة مع الصليبيين ، ثم وقعت في بؤسٍ مادي ومعنوي عميق بعد الاجتياحات المغوليّة .

وهكذا أُصيبَ الإسلام بجمود شبه تام ، دام حوالى 700 سنة ، فظل على الدوام مماثلاً لذاته ، فهو جامد في القرن التاسع عشر مثلما كان جامداً في القرن الثالث عشر .

عملياً انتهى دوره ؛ فبعد ما جمّع أفضل ما في الحضارات كلها ووزعها عبر العالم ، صارت حضارته الذاتية ميتة ، وحياة شعوبه متدنية جداً . زدْ على ذلك أن الطبيعة والنباتات والحيوانات والبشر لم يتغير منها شيء تحت سماء الصحراء العربية الجامدة .

فالنخب القيادية التي كان يُفترض بها أن تقود نهضتها ، كانت قد توارت في

دوامة العذاب ، أو تراخت في البطالة والفخامة . وفوق ذلك كانت الامبراطورية قد رأت نفسها مضطرة لاستيعاب شعوب فتية ، لكنها جاهلة ومتأخرة : الأتراك شرقاً والبربر غرباً . وبينما كان الغرب يواصل تطوره الكادح ، كان الإسلام يبدو ضائعاً ، فاقداً كل أصالة ، منزلقاً ، عبر الجمود والعزلة ، في مهاوي رتابات الماضي .

ولئن شئنا البحث في الأسباب العميقة لهذه الحالة ، لهذه الاستقالة الجماعية ، فلا بدَّ لنا من الملاحظة أنَّ الإسلام ليس السبب وحدَه ، بل يجب أنْ نعزو للمناخ ولنزعات الشرقيين الفيزيولوجية النصيب الذي يقع على كاهلهم في تلك العقدة الخطيرة ، عقدة التخلّي عن الصراع . كما ينبغي الاعتراف أيضاً بأن شعوباً عريقة في الحضارة لم تعد ترى في الجهد ما يجذبها نحو المجهول ، فكأن حوافز الحياة ونوابضها المتوترة منذ زمنٍ بعيد جداً ، كانت بحاجة إلى استراحة تصلح فيها ما أفسده دهرها . صحيح أن العرب النائمين من الآن فصاعداً على مجدهم الغابر ، المفعمين بنفوذهم القديم المقتنعين بأوليّتهم الروحيّة ، لم يدركوا بعد أن ملكوت العالم قد طار من بين أيديهم . وربما يكون هذا هو التفسير الذي يستحسن تقديمه لفهم لامبالاتهم المستكبرة في مواجهة الصعود الهائل للحضارة الغربية .

لكنَّما الأعوامُ مرَّت !

إذْ لم يبقَ شيء من الزمن الغابر ، من ذلك المجد الذي كانت ترفل فيه بغداد ، مدينة هرْون الرشيد الزاهية . فقد عادت القصور والجوامع إلى الغبار ، ولم يبقَ سوى سديم رمادي . وهناك حيث كانت بابل الساحرة ، لم يعد يوجد سوى مضارب البدو الذين ينصبون أوتاد خيامهم السوداء التي تحرسها كلابٌ لاهثة . ولم يعد ساحل بلاد الشام سوى مقبرة طويلة لمدن قديمة معصوفة . ورغم كل شيء ، لم يبقَ سوى تلك الحصون والقلاع المنتصبة من صقلية إلى البحر الميت ، كأنها حدود للملحمة مملكة الأفرنج . بعضها يأوي اليوم بعض الأهالي البائسين ، « المماثلين لأسود تأكلها الزواحف وتنهشها الطفيليات » . وفي الحرم الحجري للمدن التي دمرها البشر أو الأزمان ، لا تزال أنقاض صماء ، يتصاعد منها آهٌ ، أو رائحة بشرية وحيوانية تحت الشمس القاسية ؛ وهنا نفتكر ،

مرغمين ، بشعر عمر الخيام :

« وأسفاه ! وأسفاه !
أين هي الطبول الرنانة وأين هي أصوات الأبواق ؟ »

في الامبراطورية كلها ، تعيش المدن القليلة الباقية عيشة كسل وارتخاء ، كأن شيئاً لم يعد يغويها ، فتجري الحياة كسلى ، لامبالية ، صماء عن نداءات الأمس . فمنذ 700 سنة لم تتبدل البنية العامة ولا الاقتصاد ولا حركات العامل التي ما فتئت تتكرّر برتابة ، من دمشق إلى تونس ، وفي القاهرة كما في فاس ، حيث تواصل المهن القديمة سيرها على ايقاع زمني قديم . حتى أن الطبيعة ذاتها لم تعد تذكر خصبها الذي كان منقطع النظير . والسهول التي يرويها دجلة والفرات ، والتي كانت إهراءات العالم القديم ، لم تعد سوى قفرٍ قاحلٍ ، حزين ، بعدما كانت أبعاداً مترامية من الأرض الخصبة التي يعيش فيها ملايين البشر حياة نعيم وازدهار . لا شيء يمكن انبعاثه من هذه السدود المهشّمة ، من هذه القنوات الناشفة والمهجورة ، اللهم إلا السهب الكاسح دائماً . ففي كل المشرق ، لم تعد الأرياف سوى مساحاتٍ حزينة من الأشواك والأعشاب المزينة ببعض الجنائن النادرة . وفي البعيد البعيد ، ليس هناك سوى بلدات وقرى فقيرة ، تتداعى جدرانها الخارجية لتكوّن متاريس وموانع لتدخلات البدو الرحل . وفيها يتنفس الناسُ رائحة دهنِ الخروفِ العديم الطعم ، ولا يهزُّ لياليها سوى عواء حزين لكلاب شاردة ، يعلو صوتها البعيد في كل أرجاء المشرق . وهنا وهناك ، بعض قرى مكابرة ، تحتمي في مطاوي الربية وراء سياجات الأشجار . وهناك أيضاً جيف جمالٍ تتجمع حولها ، ليلاً ، عصائب الثعالب فتنهشها وتزيد حزناً على حزنها .

هكذا كان مشهد هذه الأماكن الحزينة في مطلع هذا القرن .

وكما كان الحال في الأزمنة القديمة جداً ، لا يزال الفلاح في مصر وسورية أو في المغرب يفلح أرضه بمحراث ، بمجرفة أو شوكة ، والأرض لا تكاد تعطي ما يكفي لإطعام العاملين فيها . ونظام القسمة والتوريث يقسم الأملاك إلى ما لا نهاية ، فهذا يملك هنا زيتونة ، ونخلتين هناك ، فلا يعود أي تحسن زراعي ممكناً

ومأمولاً . وأما تقلّبات المناخ والجفاف فإنها تجمّد الفلاح ، المتروك من الجميع ومن الطبيعة ، وتزرعه في شكٍ أبديّ ؛ وتظل مسألة الحياة تطرح نفسها ، باستمرار ، وبحدّة .

ومع ذلك فإن كل شعوب الإسلام ، ما عدا الجزيرة العربية ، ذات أراضٍ غنية وخصبة ؛ ولكنّ الزراعة تستلزم حبّ الأرض ، وهناك في العالم الإسلامي عدو دائم للأرض والفلاح ، عدو لا يلقي سلاحه ، ويحافظ على استقلاله الرائع والاقطاعي ، إنه البدوي المترحّل .

فهرست

الباب الثاني
ذروة الحضارة العربية

الباب الثالث
أثرها في الحضارة الغربية

الباب الرابع
الانحلال

منشورات عويدات 1993/970

سلسلة عام 2000

- انتفاضة العقل العربي / د. محمد عبد الرحمٰن مرحبا
- جغرافيا الحضارات/ رولان بريتون
- الحضارة العربية/ جاك ريسلر
- الحضارة الأميركية/ جان بيار فيشو
- اللّه والعلم/ جان غيتون
- ما هي الفلسفة؟/ جيل دولوز وفيليكس غاتاري

JACQUES C. RISLER

LA CIVILISATION ARABE

Texte traduit en arabe
par
Pr. Khalil A. KHALIL

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth- Paris